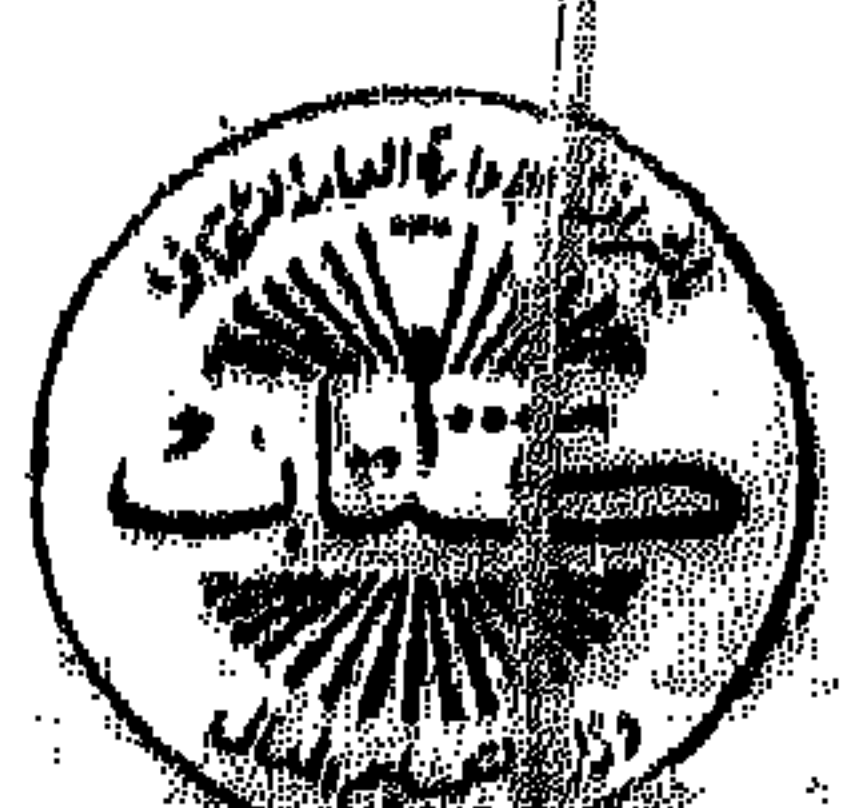




تأليف: انت بنت



اهداءات ٢٠٠٢

د/ محمد عبد الفتاح الخمرأوى

الأسكندرية

(٦٤٨)

الإف كتاب

فن التفكير

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

(٦٤٨)

الإف كتاب

فن التفكير

تأليف

أرنست دمنيه

ترجمته

رشدي السيسى

راجعه

مصطفى حبيب

الناشر

مؤسسة سجل العرب

بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد

٢٦ شارع شريف، القاهرة

تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٧

هذه ترجمة كتاب :

The Art of Thinking

تأليف :

Ernest Dimnet

محتويات الكتاب

٩	لطالعتك قبل النوم
١١	تصدير
١٣	الباب الأول :
١٥	الفصل الأول : في التفكير
٢٩	الفصل الثاني : كيف يقوّم الفكر
٣٧	الفصل الثالث : التفكير الصحيح
٤٧	الفصل الرابع : استطاعة إيجاد فن التفكير
٥٥	الباب الثاني : معوقات الفكر
٥٧	عجالة تمهيدية
٥٩	الفصل الخامس : الانحصار الفكري أو عقد النقص
٧٣	* كيف تنشأ الطفيليات العقلية
٧٣	أ — المحاكاة والمعاشرة
٧٩	ب — التربية والتعليم

٩٩	الفصل السادس : الفكر تضعفه الحياة
٩٩	أ — حياة الفكر
١٠٠	ب — ضروب الحياة غير المفكرة
١٠٣	ج — الضياع الهائل
١١٥	الباب الثالث : معينات الفكر
١١٧	الفصل السابع : إحساس المرء بحياته
١١٧	أ — العزلة الظاهرية
١٢٠	ب — العزلة الباطنية
١٣٣	ج — تدير الوقت
١٤٥	الفصل الثامن : كيف يحيا المرء حياته على مستوى أعلى
١٤٥	أ — الصور المنتجة للفكر
	ب — التسامح الخلقى شرط من شروط التفكير الرفيع
١٥٢	ج — أفكار رفيعة من الكتب
١٥٦	د — كيف تقرأ لتفكر
١٦٨	هـ — الإدراك والمطالعة الناقدة
١٧٦	و — كيف تطالع الصحف
١٨١	١٨١
١٨٥	الفصل التاسع : تنمية البيانات في العقل
١٨٥	أ — فحص معرفتنا
١٩٠	ب — إمعان الفكر

١٩٤	ج — الكتابة كعون للتفكير
١٩٨	د — محافظة المرء على أفكاره
٢٠١	هـ — طراز الذهن الذى ينتجه هذا النظام العقلى
٢٠٥	و — مزيد من التقرب صوب الفكر المبتكر
٢١١	الباب الرابع : الفكر الخلاق
٢١٣	كلمة تمهيدية
٢١٥	الفصل العاشر : الإبداع
٢٢١	الفصل الحادى عشر : أصل الإبداع : الأفكار
٢٢٥	الفصل الثانى عشر : كيف نستطيع التوصل لأرائنا الخاصة
٢٢٩	الفصل الثالث عشر : كن فى إهابك
٢٣٧	الفصل الرابع عشر : التمس نفسك
٢٥١	الفصل الخامس عشر : الإنتاج الأدبى ميسور للجميع
٢٥٧	(الخاتمة)

لمِطالِبِ العِلمِ، قَبْلَ النِّوْمِ

يقول فيلسوف أمريكي كبير عن هذا الكتاب الذائع الصيت :

أود أن أقول للقارىء: « تذوقه ، اختبره بنفسك ، احتفظ به في متناول يدك ، طالع منه صفحة أو صفحتين ، أو فقرة تقع عليها عينك حين تفتحه حسبما اتفق ، طالع له لاما أو تباعا ، احتفظ به في مخدعك و طالع له تهدئة ذهنك عند المساء وتنشيطه في الصباح » فهو مفعم بالحكمة التي جناها المؤلف خلال أعوام من دراسته لنفسه ولغيره من الناس .

ويجد القارىء ، في هذا الكتاب ، مقترحات لطرق يقوم بها خواص تفكيره فقد عرض المؤلف ما لا يقل عن اثني عشر مقترحاً . يؤدي كل منها لصقل الذهن وتحسين عاداته .

ولا يستطيع أحد أن يقرأ الكتاب ، دون أن يفطن إلى أن الترهل الفكرى ، والتواكل الطفيلي على الآخرين ، وبلادة حاسة الذوق الفنى ، وما يماثل هذا من عيوب خلقية ، تسبب من النقائص العقلية أكثر مما تسببه

ضروب العجز التي يتضح أنها ناشئة عن أصل غير وجداني، وإذا كان ثمة قوم
قد حالقهم الحظ حتى أصبحوا في غير حاجة إلى أية نصيحة من نصائح المؤلف ،
فإني - على الرغم من ذلك - أحفزهم لمطالعة الكتاب بغية التعرف إلى
شخص مختبر موفور الحكمة وكفى .

جون دبوي

تفسير

ترى أى هو ذلك الكاتب الذى يستطيع أن يدعى لنفسه قولة فولتير
فى قصته « شيطان المسكين » بل يتجرأ على القول عن قارئه : « لقد اختارنى
كى أمد له يد العون فى التفكير » ؟

حقاً إن هناك ملايين من الرجال والنساء يتلمهون على تلقى الدروس فى فن
التفكير ، وإن هناك لفيقا غيرهم من الرجال والنساء يجازفون بإظهار القدرة
على إعطاء هذه الدروس مهما يكن فيها من خيلاء .

ليس من الضرورى أن يتسم من يقدم على هذا العمل بالعبقرية ، ذلك
أن العبقرية لم تكن فى الحسبان قط، إنها المعلم الصالح لأى فن من الفنون، ومن
ثم فمن الخير ألا يكون معلم فن التفكير شخصاً لا يعرف أى صعوبة فى التفكير،
أو يبهر الناس بروائع أفكاره التى من شأنها أن تشعر قليل الخبرة بضآلة تفكيره
فتشبث من عزمته ، والواقع أن الطيب الرقيق قد لا يصلح لأن يكون مثالا على
الصحة، على حين يستطيع أى خطاب أن يكون مثالا على ذلك — صحيح أن
الطيب يمكن أن يقدم الطريقة المثلى فى الاستخدام الزكى البارع لرصيد صغير
من الصحة والعمل على زيادته ، ومع ذلك فإننا نعرف أنه يستطيع أن يكون

أكثر نفعاً بسبب تفرغه للصحة المعتلة وتقديره لعلم الصحة ، ومن ثمة فنحن دائماً
نؤثره على غيره، وبقينا أن مؤلف هذا الكتاب غير مستعد للزعم بأنه قد مارس،
أو حتى أنه يمارس الآن نظرياته ولكنه بعيد عن التفاخر حين يقول إنه من
المحتمل أن يكون إحساسه بقيمتها أشد من كثيرين من الناس الذين أشرفوا على
العبقرية أكثر منه ، ألا يكفي هذا ؟ ثم أليست الرغبة الصادقة في أن يكون
المرء نافعاً مبرراً كافياً ليقوم بإسداء نصحه المتواضع؟.

وسيجد القارئ عاجلاً أن هذا الكتاب ، على الرغم مما قد يشوبه من
قصور ، قد كتب من أجله فإن ما يتسم به من جهد للوضوح والإيجاز ، وعزوف
عن اللغة الفلسفية العسيرة ، وتنكب لوسائل عرض البيانات البيولوجرافية المثبطة
وغير المثمرة ، وهي أمور تنبع جميعها من رغبة لإسداء العون لا لإثارة الإعجاب ،
أن معظم الكتب تؤلف مستهدفة ، بقسط قل أو أكثر أن تكون من روائع
الفن ، أو بتعبير آخر أن تكون غاية في ذاتها ، وأن تثير الإعجاب في خاتمة
المطاف ، والأناية ، عند الكتابة عن أي فن ، خاصة فن التفكير ، تصبح
جريمة ، ويمكن القول ، في صدق وأمانة ، إن نصيبها في هذا المؤلف قد تضاعف
إلى أصغر حد ممكن .

وإذا فطن القارئ إلى التعاطف الذي بات حقاً له ، وإلى المحاولة المتواصلة
لإسداء العون له في جهاده للوصول إلى قمة الحسن من تفكيره وإلى ذروة
النبيل من حياته فحسبي هذا وكفى .

الباب الأول

الفصل الأول

في التفكير

منظر مألوف — الساعة الخامسة من أصيل يوم في أواخر أكتوبر —
الشمس الغاربة فوق الحديقة الحمراء — أنت واقف قرب رصيفة الباب تنظر ،
ولا تبصر ، مستغرقاً في التفكير — يتسلل شخص ما عن كذب منك فتسمع
هذه الكلمات همساً « درهم ثمن تفكيرك » فما جوابك ؟

وفي وقت متأخر من اليوم تستغرق ، أو تبدو مستغرقاً ، في مطالعة
كتاب ، ولكن وجهك لا يبدو كما يبدو عادة حين تحس السعادة فيما تقرأ :
فجبهتك المتفضضة تكشف عن استغراق مسرف ، يزيد في سرفه على ماتستلزمه
مجرد المطالعة ، والواقع أنك ناء قصي ، وفي إجابتك عن السؤالين « فيما تفكر ؟
وأى كتاب هذا ؟ » لن تختلف قط عما قلته حين نزل عليك صاحبك في أصيل
هذا اليوم وقد انطلقت في يقظتك إلى وادي الأحلام : « أوه ! لست أفكر
في شيء » أو « إني أفكر في كل شيء » ومن المؤكد أنك كنت تفكر في
أشياء كثرت إلى حد أنك كنت كمن لا يفكر في أي شيء : ومرة أخرى
كنت تشعر بأمر مارسته من قبل مراراً عديدة ، فعقلنا لا يشبه حجرة ساطعة
الإضاءة منسقة على أكمل وجه ، بل إنها شديدة الشبه بمقصورة مشوشة مكدسة

بالأثاث دون ترتيب ، وقد انتشرت فيها الهوام التي ولدت وترعرعت في الأضواء الخافتة : أفكارنا ؛ وما نكاد نفتح الباب لنراها جهاراً حتى تختفي هذه الفراشات الصغيرة الداكنة .

ووقوفنا على هذه الظاهرة أمر مثبت للعزيمة دون شك ، وهذا يفسر ما نبديه عادة حين يعرض علينا درهم ثمناً لأفكارنا ، من حيرة بل وارتباك ، بل ومن رغبة في أن يتركنا السائل وشأننا وألا يزجنا بسؤاله أيضاً، فنحن نشبه الجرو الذي يقدم على النباح على خياله بالمرأة مرة ، — ويهجم عليها من الخلف فافرا فاه ، ولكنه بعد المحاولة الثانية ، ينصرف عنها في امتعاض وضجر ، ومع ذلك فبقليل من حب الاستطلاع وبعض المران ، قد لا يستحيل على المرء أن يحصل على لمحة عابرة من ذهنه ، وينبغي ألا نحاول هذا حين نكون مذهولين تماماً عما حولنا ، أو بتعبير آخر حين يفقد وعينا كل سلطان له على ذاته ، ولكن هناك سوانح مواتية: ونحن نطالع الصحف عندما تبدأ الموضوعات سريعة التعبير في إرهابنا دون أن تصل بنا إلى حد الإعياء التام؛ وحين تدفع حركة القطار أو العربة بأفكارنا إلى إيقاع معين قد يتحول إلى ذهول عما حولنا أو إلى ميل للنوم فلا يتعدى أن يكون خمولا في عمليات العقل فحسب؛ وحين تكون المحاضرة التي نسمعها ليست جيدة جداً فتشد انتباهنا إليها ، أو رديئة إلى حد يضايقنا ويثير أعصابنا ؛ عندئذ ، وكما استمتعنا بهدأة فكرية ، تتاح الفرصة لنا كي نحصل على لمحة من عقلنا كما يشتغل على حقيقته وكما يكشف عن طبيعتنا في أغوارها ؛ فعن طريق تجمد مفاجئ لوعينا ، وتطلع مستكشف سريع في أغوارنا ، نستطيع ، كأمر واقع ، أن نجمد قسماً من مجرى النشاط العقلي الذي سيظل خلال ثلاث أو أربع ثوان معداً لفحصنا ، وإذا نجح المرء في أن

يقوم بهذا مرة ، فمن المؤكد أنه سيشعر بمقدرته على القيام به مرة أخرى ،
فليس ثمة اختبار للوعي بالغ الروعة في إفادته مثل هذا ، وكلما ازداد تعدده وتردده
ازداد يسراً ، وفي القليل خلال فترات معينة ، سيصبح أيضاً كذلك .

لماذا لا تفعل ذلك الآن ؟ درهم ثمن لأفكارك ! فيما تفكر ؟

إنك تتطلع وقد أخذتك الدهشة لما تعتبره عرضاً لذوق سقيم من كاتب .

« أفكر ! عجباً ، إنى أفكر في كتابك ؛ ولعلك لم تجد في كتابته مثل
المتعة التي أجدها الآن في قراءته ، فأنا شغوف بهذا الموضوع » .

« أجل ، لقد رأيتك ملتفتاً في عكوف يدعو إلى الإعجاب ، وهذا ما دعاني
للتطفل عليك ، أما لو كنت مشتت الذهن ، لذهب المسعى أدراج الرياح !
وإذن فأنت شغوف بهذا الموضوع » .

« أنا كذلك دون شك ، وبودي أن يستمر ، فالكتب ينبغي ألا تكلم »

« حين تقول إنك شغوف بهذا الموضوع ، تعنى أنه يمتعك ، وأنه يثير في
أعماقك شيئاً ما ، وبالاختصار أنه يجعلك تفكر » .

« بالضبط »

« يقيناً أن هذه الأفكار التي تساورك وأنت تطالع تخصصك وحدك ، وهي
ليست مجرد انعكاسات لما أقوله أنا ، وهذا هو السبب الرئيسي الذي من أجله

تستمع بها حين تنبعث من وراء عباراتي أليس كذلك ؟ » .

« محتمل جداً ياسيدي ، لقد بدأ هذا الحديث يستولى على لبي » .

« نعم ، فهو يدور حولك ، وقد عرفت أنك ستهواه ، وإذن فهذه الأفكار التي تخصك ولا تخصني خارجة عن هذا الكتاب ، ألا تظن أنه من الممكن أن نسميها ضرباً من الانشغال ! »

« ليس هذا من الإنصاف ياسيدي ، فأؤكد لك أنني أتابعك في إصغاء تام ، ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنني لا أحاول استذكار ما تقول ، فهذا من شأنه أن يقضي على كل البهجة التي أجدها في هذا ، بل إنني لراغب في الاعتراف بأن بهجتني هي ملكي ومن ثمة يصح تسميتها كما تقول ، ضرباً من الانشغال أو الانصراف الذهني ، فالواقع أنني كنت أفكر »

« آه ! هنا بيت القصيد ! كنت تفكر »

« بلي ، كنت أفكر في ضيعة ، في الين Maine كان بها مقصورة كالتى تحدثت عنها وفي فصل الصيف ، حين وجودنا هناك ، كانت رائحة ثمار التفاح الشتوى مائزاًل تفوح منها ، وكنت أحبها وكنت أجلس فيها ، وأنا صبي ، ساعات وساعات : أفكر ، وهكذا فما أنت ذا ترى أنني كنت أفكر في التفكير ، وواقع الأمر أنني كلما شاهدت الصورة التي تضيفني على أعماق انطباعات التفكير السعيد — صورة أرازمس وهو يكتب — فكرت في المقصورة القديمة ، ولست أشك في أنني فكرت في أرازمس منذ بضع دقائق ، إذ تضايقت حقاً لحظة حين تذكرت رجلاً وقف مرة أمام تلك الصورة وسألني قائلاً : « من هذا الطاعن في السن الذي يتطلع عبر أنفه الطويل ؟ ياللاً بله الذي أبفضه ! لقد جعلتني ذكرى هذا الشخص قلقاً غير مستقر في مقعدى ، وكان على أن أقوم بجهد لأفكر في شيء آخر . »

«ها أنت ذاترى أنى لم أمعن فى الخطأ ، فقد كنت تفكر فى عدد من الأشياء
التي لم ترد بهذا الكتاب .»

« بلى ولكن هذه الأشياء وردت لذهنى عن طريق الكتاب ، ولن
تساورنى الدهشة إذا ما فكرت فى كتابك ، وتذكرت فقرات برمتها ،
أعنى ، غداً خلال قيامى بمهام عملى فى مكنتى .
« أشكر لك ، أ كنت تفكر فى ذلك أيضاً؟ » .

« عبتاً ! من العسير ألا أفعل ذلك ، إن ما سأوقع عليه فى الغد يدور
حول مبلغ قد أقضى خمس سنوات فى ادخاره ، على أية حال أكاد أثق أن كل
شئ سيم على ما يرام ، وأننى أستطيع أن أشتري لجيم المسكين النصيب الذى
يريده من الشركة » .

« حالياً خذ هذا الدرهم الذى أنا مدين لك به ، فقد بدأت أن أقف
جيداً على أفكارك ، وبدهى أنها برمتها تدور حولك ، وذلك كما ينبغى أن
يكون ، ومن المؤكد أن ثمة أفكاراً تختبئ فى أغوار عقلك ، حتى لتعجز عن
الكشف عنها مهما أنفقت من الجهد فى الحفر وإزالة الركام عنها ، ولكن ما من
شك فى أنها ستكون أكثر قرباً لنفسك من تلك التى اكتشفتها خلال محادثتنا ،
وأحياناً نشعر ، دون أى ترقب ، بشرائيننا تنبض فى رعوسنا ، بل حتى نشعر
بأننا أحياء ، وهذا الشعور المدرك لا جدوى منه لنا على الإطلاق ، اللهم إلا إذا
ساهم ، بصورة ما ، فى حفظنا أحياء ، ولكننا نسرف حين تكون « ذاتنا »
هدفاً لرهان أو عرضة لخطر ، لا تظن أننى أقرعك أو أوجه إليك اللوم . »

«إن فعلت ذلك تكون نا كراً للجميل ، وذلك لأنى قلت ، وهأنذا أكرر
أنى قلما طالعت شيئاً استحوذ على لبي مثل هذا الكتاب .»

« بالتأ كيد ، ولكن لا بد أن تسلم بأنك وأنت تضىنى اهتمامك على هذا
الكتاب كنت تهتم بشيء آخر ، وهذا ما يحدث لكل إنسان ، أسمعت قط
أنه حينما كان سير ولتر سكوت يقع على نواة لقصة جديدة تذكى خياله بطبيعتها ،
راح يطالع سفرأ أثر سفر ، دون أن يكون لهذه الأسفار علاقة بموضوعه ،
وذلك لأن المطالعة تشجذ ذهنه للعمل ؟ فتلك الكتب كانت تؤدى
لقوى الإبداع عنده ما كانت الجماهير فى لندن تؤديه لقوى ديكنز ؛ وحين
تقول إنك كنت تطالع هذا الكتاب فى عكوف وانكباب ، فأنت تعنى أن
قوتك العقلية كانت تضىنى نصيبا من وعيك — فلنقل خمسة أو فى الأكثر
ثله — على الكتاب، بيد أن قوتك العقلية ليست إلا ضربا من كاتب رفيع يؤدى
لك خدمات خارجية ، وأنت ، بنفسك ، لم تكف مع كل ذلك ، عن القيام
بعمل هذه النفس، فهى قطعا أهم لديك من أية نظرية ؛ إن ما يهيك هى المقصورة
التي اعتدت أن تقضى فيها الساعات مفكراً متأملا ، ورأحة التفاح تعبق الجو من
حولك ، وصورة أرازمس التي تحبها ، وبغضك ، الذي لا ينجبو أواره ، للرجل
الذي لم يقدر تلك الصورة ، ومستقبل ابنك والفرصة النادرة التي سنحت
لتحسينه ؛ وطوال الوقت الذي كنت تتخيل فيه أن فن التفكير كان يدفعك
للتفكير ، كنت تفكر فى جيم وأرازمس والأبله والمقصورة والعمل ، ودون
شك أيضاً، فى عشرات من أشياء أخرى لم تستطع أن نتقصى أثرها فى منطقة لوعى
عناك ؛ تلك الأفكار التي تميل لأن تسميها انشغالات هى ما تفكر فيه «ذاتك»

على الرغم من الكتاب ، ولأصدقك القول ، فالكتاب هو محط انشغالك ، بل من الممكن أن تكون الكتابة هي هذا المحط؛ أسمح لي أن أذكر لك ما يجول بخاطر « ذاتي » حين يمسك الكاتب الرفيع بقلمه؟ يجول بخاطرنا أنه كان في مقدوري أن أؤدي عملي في هناءة مترعة غير مشوبة ، لو لم أكن قد شاهدت ، منذ ساعتين قطة ضالة مسكينة ، تضرب في الطرقات ، على غير هدى ، تحت وابل من المطر ، وإلى جانبها قطيبتين مرتعبتين ؛ وبقدر ما تبغض أنت البلهاء فإني شغوف بالقطط .

والاستكناه الباطني ، كما يسمى ، وهو فحص أغوار العقل في أثناء نشاطه ، سيرفع الغطاء دائماً عن أشياء مماثلة ، ويتكلم علماء النفس عن «التيار العقلي » وهذا الاصطلاح وحده يحمل المعنى لتقدم هائل بمنطقة الفكر المتعلقة بالملاحظة الباطنية لدى مقارنتها بالتقسيم المضلل للروح إلى ملكات متفرقة ، وفي الواقع أن تتابع التغيرات في ذهننا يحمل في طياته صوراً — محفوظة في الذاكرة أو معدلة — ومشاعر ، وعزائم ، ونتائج عقلية أو نحو ذلك ، في ارتباك مبهم أو مضطرب ، وهذه العملية لا تتعطل أبداً حتى ونحن نيام ، أكثر مما يتعطل نهر عن الجريان ، ولكن التيار العقلي أكثر شبيهاً بنهر جبلي ، لا تكف الصخور عن اعتراض مجراه ، ولا تكف مياهه عن التلاطم وهي تجري ، وحين ننظر إلى الباطن نشعر بالحركة الدائمة ، أما إذا لم تقتصر على مجرد لحظة خاطفة ننصرف في أعقابها بأبصارنا بعيداً ، فسرعان ما نلاحظ خروج مجموعات أو مواكب كاملة عن مألوف سيرها وعودتها للظهور في نهج دائري .

وهذه المواكب تنشأ عادة عن طريق صورة ذهنية ما تأتي الأولى في أعقابها ،

فهذا السيد الذي دار الآن هذا الحديث المثير بينه وبينى يزدحم عقله بصور شتى -
أفكار قليلة الأهمية ، خاطفة وغير متماسكة أيضاً ، ويستحيل الإمساك بها .
كتموجات الماء في نهر صغير - ولكنه كان يشعر تمام الشعور أو بعضه
بالقليل منها فقط ، وما ذا كانت ؟ حجرة في منزل ريفي - صورة أرقام
للمصور هولبين - أبله - جيم ؛ ولتغيير التشبيه الذي استخدمناه - كلما
زدنا منه اقتربنا من الحقيقة المتغيرة اللانهائية - نقول : إن هذه الصور
الذهنية كانت مثل أكبر القطع وأشدّها لمعاناً داخل منظر التشكيلات
الزجاجية (Koldoseope) وبين الفينة والفينة من لحظات قصار يكر ذهن
السيد عائداً إلى هذه الصور .

ولا يكاد الأمر يستلزم القول بأن هذه الصور الذهنية أثرت عليه كما تؤثر
عائنا جميع الصور فبعضها يستهويننا والبعض الآخر ينفرننا ، وقد كانت حجرة
التفاح القديمة مرضية للغاية ، وكذلك كان أرازهس ، لولا ذلك الرجل الأبله ،
وحتى هذا الأخير كان ، في وقت ما ، محتملاً ، ذلك لأنه أثار ، إلى جانب
شعور الضيق والغيب شعوراً ، لطيفاً بالرفعة ، أما فيما يتعلق بجيم فكان مبهجاً أن
ترى وجهه غير الوسيم وقد غمره السرور حين سمع والده يقول : « حسنا ، أيها
الرجل المسن ، كل شيء على مايرام » ولكن عكس هذا كان حرياً أن يحدث
لو تخيله ، بعد عام من الآن ، يحاول اللحاق بنفس القطار المبكر كي يؤدي
نفس عمله الحقير ، ومن المحتمل أنه حينما تخيل السيد أنه يشم رائحة ثمار التفاح
المتفرض ، كان جيم السعيد خائف الباب ، أما حينما سمعت كلمات الأبله الست
ينطلقها بصوت ناعم يرم عن الرضى ، فقد تراءت عن كذب محطة بلهام يتدفق
إليها الأرقاء الصامتون وبينهم جيم المسكين ، أقول من المحتمل ، فمن يدري ؟

ومن الممكن جداً أن ينشد المرء الخلاص من صورة بغيضة بالالتجاء إلى صورة أكثر لطفاً، فالتيار يجرى سريعاً عميقاً بين حافتين وعرتين حتى ليستحيل رؤية أى شيء فيه بوضوح .

كل ما تستطيع قوله هو : (١) إن معظم عملياتنا العقلية غير منفصلة عن الصور الذهنية أو ناشئة عنها ، ونحن لا نختلف في هذا عن الحيوانات العزيزة التي بجانبنا (إذا كان أى إنسان لا يدرك أن دماغ الكلب يسجل موسوعة من الصور والأصوات والروائح تضاهي معجماً لغويا في ضخامته ومحفوظة في الذاكرة بطريقة أفضل جداً ، فإن سلوك الكلب يصبح مغلقاً على الفهم تماماً) .

(٢) إن تلك الصور الذهنية تتسق تماماً مع رغبات أو منفرات ، مع أشياء نرغبها أو لا نرغبها ، حتى إن هذه الرغبة أو عدمها تبدو الدافع الرئيسى في توجيه حياتنا العقلية ، مع احتمال أن يكون لهذا صلة بالحالات البدائية في وجودنا . (٣) إنه لا مناص من أن يكشف الناس ، في أفكارهم وأحاديثهم ، في نظرتهم للحياة وفي ضروب حياتهم دائماً ، نوع الصور التي تملأ عقولهم ، وإن فحص هذه الصور الذهنية وتقويمها ، مع فحص صنوف ما نحب وما نبغض وتقويمها ، ليبين لنا قيمتنا من الناحية الأخلاقية بدقة تفوق حتى أعمالنا . لأنها جذور العمل ، ولكننا سنعود إلى هذا فيما بعد .

ومن المؤكد ، على حد قولك ، أن ما وصفته إلى هذا المدى ليس فكراً ، ولزام أن يخلو ذهننا أحياناً من الصور ومن صنوف الهوى والكراهية ، ومن المشتبهات والمنفرات ، ولا بد أن يكون هناك نوع رفيع من العمليات العقلية ، شيء غير مادي تنتج عنه أشكال مجردة ، فكيف تطورت الأنظمة الرياضية والفلسفية ؟ وما هو المنطق ؟ .

أجل ، فهناك لغات تختزل بلايين الاختبارات والتجارب ، وهناك مصطلحات علمية تملأ مكتبات بأكلمها ، ولقد كان عبقرى ذلك الفرد من أسلافنا غير المتحضرين الذى اخترع لأول مرة الفعل المستقبل بمزجه لفظ « الغد » أو « شروق الشمس » أو « الشوق إلى الصباح » مع « اسم فعل » ساذج ، بينما كان يخوض صراعاً مع الألفاظ الصوتية وقد كاد أن يملأه القنوط إذ وجد أنه لا يستطيع التعبير عن بصيص من المعنى ؛ وقد أنتج العمل العقلى مكتبات ، وهذه بدورها توفر العكوف الذهني لأنبيل العقول ، وهذا كله يؤدي إلى التجرد ، ولكن دراستها تتعلق بعلم الفكر ، بينما أنه لا يهمننا هنا سوى فن الفكر ، ومع ذلك فمن المجدى ، حتى للغرض الذى نشده ، أن نقول كلمة عن هذا الوجه غير العملى من الموضوع .

ونحن نظن أن الفكر — كما نظن خطأ عن حبات الماس — يمكن وجوده فى حالة نقاء ويمكن إنتاجه بدون صور ، وثق أنه ليس من النادر أن ندرك النتائج الذهنية عملية كانت أو نظرية دون عون من الصور الذهنية .

آه . . ما هى ؟ ولكن ، قبل كل شىء ، هل هناك أية صورة ؟ وكيف نستطيع التأكد بأنه فعلاً هناك ؟ فى كل مرة ننجح حقاً فى ملاحظة عمليتنا العقلية نكتشف وجود الصور ، وإنك لتقول « أفكار » « أفكار مجردة » وإنك لتتوهم أنك تقول هذا دون أية صورة مرافقة ، ولكن هل أنت مصيب أم مخطئ ؟ فحين تقول « فكر » أمممكن أو غير ممكن أن تكون مشاهداً لرأس رجل أو جبهته أو باطن رأسه مصوراً ، لا كدماع هلامي مفرع ، بل ربما ، كشبكة سلكية معقدة إلى حد كبير أو قليل مجهزة لتصنيف وحفظ النتائج الواردة فى مكانها ، أو كآلة ساعة تامة الأناقة والإتقان ؟ .

ولم تكن أسماء العمليات العقلية في الأصل مجردة كما هي الآن ، فالرؤية
والمعرفة في اللغة اليونانية لها لفظ واحد ، ولفظ « يعتبر » « Ponder » الذي
يطن في الأذن كفعل عقلي ، يعني بوضوح يزن أو يقيس ، أما لفظ « يفكر »
فهو الخلف الشبيه بالشبح للفظ أكثر خشونة جداً ومعناه « يتراءى » ؛
أما « منطق » و « كلام » فهما ذات اللفظ ، وأخيراً — وكضرب من الاحتجاج
ضد الإغراق في الكبرياء العقلي — فإن كلمة « الفكرة » و « الصورة »
الذهنية لها نفس المعنى .

ويمكن أن تكون الصورة الذهنية غائصة بالعقل الباطن أو منطقة اللاوعي
من العقل ، وأصعب في التقصي مما يتوهم أولئك الذين لم يحاولوا ذلك ، ونستطيع
أن نشاهد بإحساسنا الباطن : في جهاز السينما الذي بأغوارنا ، شريطاً للأفلام
يدور ليكشف عن نفسه — مع اعتراضات مخبولة كثيرة — ولا نشاهد في
جلاء باطنى صورة ثابتة أخرى ، مرئية ، ولكن دون يسر ، في ثنايا الفيلم ،
وليس ثمة شيء أكثر حدوثاً من هذا الوضع المزدوج المتداخل لمجموعتين من
الصور الذهنية تخطر بسرعتين مختلفتين ، وهذا يفسر النتائج غير المرتقبة التي
نصل إليها حينما تبدو مركزين انتباهنا على أمور مختلفة تماماً ، ولعل سيداً
احتشد عقله في أثناء مطالعته بالصور الفوتوغرافية الدقيقة التي التقطتها ذاكرته
يوماً ما لمنزل في مين ، يسمع بغتة صوتاً صادراً من أغواره يقول له في وضوح :
« من خطل الرأي جداً أن تطالع دون احتياج لذلك » ، وقد يفلق الكتاب
على الفور ، فلماذا؟ إن عملية التجميد السابق ذكرها حرية بأن تكشف تحت
فيلم مين الصورة الذهنية لدكتور ويلمر ، التي لم تكد تغييب ، منذ الزيارة

الأخيرة ، لحظة واحدة عن منطقة اللاوعي ، وثمة طبقات ثلاث من الصور
الذهنية (وربما أكثر من ذلك) ستكون مرئية باطنياً في اللاوعي ذاته وهي :

كتاب في فن التفكير .

منزل في مدينة مين .

طبيب للعيون .

وأحياناً نشعر بسلسلة من الصور الذهنية ترد متتابعة ، في الواقع مقربة-
إحداها الأخرى ، كما لو كان بمنظار للأبعاد ، صوب نتيجة ذهنية مصاغة بسرعة
غير عادية، و اعل نفس السيد الذي يؤسفى أن جعلته الآن محلا للثناء (ولكنه لن
يصبح أعمى قط) وصل إلى هذه النتيجة الذهنية غير المرتقبة :

« أنا سأشترى ذلك المنزل في نيو جيرسى ! » غير معقول ! لا يمكن أبداً ،
وسلسلة الصور الذهنية مقربة من بعيد يمكن رؤيتها في وضوح على النحو التالي :
(أ) منزل في مين + قطارات بطيئة + مواصلتان + فصول شتاء
باردة + صبيان متعبون عن كذب = غير مرغوب فيه .

(ب) منزل في ليكوود (يزكيه عميل) + قطارات سريعة = قريب +
انعدام الناموس = نوم ؛ نوم + قرب + أشجار صنوبر + تربة رملية =
رائع = ابتسام = أشتري .

وجميع هذه الصور الذهنية قد تتعاقب واحدة تلو الأخرى في سرعة البرق ،
وإذ نزن عادة أن السرعة هي صفة للفكر ، لذلك نسعى تسلسل الأشياء فكراً ،
ولكنها في الواقع مجرد تتابع لصور ذهنية كالمعتاد .

وكثيرا ما نشعر بكلمات فرادى متقطعة تبرز في غموض حينما يكون ذهننا منشغلا على هذا النحو ، وهي مثل البطاقات التي توضح أصناف الحرير بحقيبة التطريز لإحدى السيدات ، وأندر من هذا حدوثا أن نسمع أو نشاهد مجموعة متصلة من ثمانى أو عشر كلمات ، كما وقع للسيد ، فيغريتنا هذا بأن نتخيل أننا نفكر فى كلمات ، وفى هذا تفوق على التفكير فى صور ذهنية ولسكننا لانفعل . ذلك ، فالكلمات ومجموعاتها موجودة هناك بحكم العادة التى تدفع معظمنا إلى الهمس أحيانا بصوت مسموع : « زائد خمسة وسبعون » حين عدنا للنقود أو « يلزم ألا يحدث هذا مرة ثانية » حين نسدى النصيح لأنفسنا ، فهذه الكلمات الآتية من الأغوار هى مجرد ترقب لما سيأتى فى الأعقاب .

وهكذا فنحن نواجه صوراً ذهنية ، ومزيداً من الصور الذهنية ، وهكذا دواليك ، ولما كانت المعانى المجردة نتاج الصور الذهنية ، فلا مناص من أن تستعيدنا الذاكرة ، وأنه لمن المتعذر أن يفكر المرء فى التاريخ دون أن يستحضر إلى ذهنه صور عظماء الرجال أو حقبة تاريخية هامة ، وإلى لأشك فى استطاعتنا أن نذكر العلم دون أن نتذكر تجاربه الشهيرة ، ومن المؤكد أن كلمات قابلة هى التى تتسم بالروحانية مثل كلمة « حق » ولكن حين نسمعها منطوقة ، فإننا نقرنها إما بنموذج من التقديس للحق ، وإما ببحث معين يجعلنا ندرك جمال الحق ، ومرة أخرى تعود للظهور أحداث طارئة محددة ، ولسنا فى حاجة إلى أن نبين مدى الصلة الوثيقة التى تربط بين الصلة وعلم الهندسة ؛ أما فيما يتعلق بعلم المنطق فهو لا يعنى شيئاً إذا لم يكن قائماً أصلاً على اتساق الفكر أو تناقضه ، فلم لا يكون الاتساق أو التناقض قائماً بين صورتين فى الذهن أو مجموعتين

من الصور مصحوبين بعبارة مجردة؟ الواقع أننا نشعر دائماً أن الأمر يتم على هذا المنهج .

وقد يثار سؤال : أليس ثمة شيء في عقلنا هو طبيعته بالذات ، وبدونه لن يكون هناك عقل على الإطلاق ؟ .

أفهم ما تقول ، فأنت قد سمعت عن نظرية « الإدراك » المجرد ؛ حسناً طالع ما كتبه الفلاسفة ، وأخبرني ما إذا كنت قد ازددت انفعالا أو استنارة أو انسياقاً صوب الفكر ، حين أخبروك أنك عندما ترى كرة بليارد وتدفع بأخرى بحركة سرعاً ، فإن «عقلك» يسجل أنه ما من شيء يحدث بدون علة أو بدن سبب كذا ؛ وأن ما يسوقه «كانت» ، أو حتى أحد علماء ما وراء الطبيعة ذوي البول الملية مثل سير وايم هماتون ، عن طبيعة قوى العقل ، قد يمثل بمجهوداً عقلياً تويماً ، والكن النتائج لا تتناسب معه ، ونستطيع أن نحصل على لمحة خاطفة من عمل عقاننا ، غامضة ولا تزيد في جودتها على ما كانت عليه لوحة أشعة إكس منذ عشرين عاماً ، والكن يرجح أن تظل طبيعتها سرّاً ضمن أسرار كثيرة ؛ وهذه الفكرة ، مضافة إلى الواقع وهو أننا نعالج فناً عملياً ، لا فلسفة مجردة ، سحرية بأن تجعلنا نفض الطرف عن جهالتنا .

الفصل الثاني

كيف يقوم الفكر

قد يبدو من العسير الكشف عن طبيعة تفكير إنسان ما بسبب الطبقات المختلفة التي عادة ما يكون الفكر الحقيقي مختفياً تحتها ، بيد أننا إذا استخدمنا الاستكناه الباطني زالت كل صعوبة ظاهرة ، وستوضح تجربة أو اثنتان أن مقاييس التقويم لفكر إنسان هي أولاً الصور الذهنية التي تمرن عليها نفسها ؛ وثانياً ضروب الحب والبغض المتعلقة بهذه الصور ؛ وأخيراً الطاقة العقلية التي تجعل في استطاعتنا أن نصل القرائن العقلية بنجاح أكثر أو أقل .

وواضح أن الشخص المغم عقله بصور ذهنية للمتعة التافهة ، والراحة ، والطعام الجيد ، والملابس الفاخرة ، والرقص ، والأسفار ، والصحبة المسلية ، وبالاختصار للهناءة المادية ، أبعد جداً عما ندعوه بالفكر من الشخص الذي ستستحوذ على لبه وخياله المناظر الرائعة — مثل مناظر إيطاليا الطبيعية — ذات العناصر النبيلة ، وغرابة الأثريات وعراقها ، والكنائس ، والمتاحف المليئة بنماذج الجمال ، وذكريات ضروب الحياة الفنية في كل مكان ؛ وليس ثمة نزاع

تفوق الفنان على رجل المجتمع وسيدته اللذين لا يتميزان بأى شيء آخر ، وهذا ناتج عن علة واحدة فقط هي تفوق صنف من الصور الذهنية على الآخر ؛ وأيضاً حينما يصبح عقل إنسان مثل رسكن أو وليم موريس مأهولاً ليس فقط بصور ذهنية للجمال الحسى ، بل برؤى عن جنس بشرى أسعد وأفضل ، فإننا نوقر الصور الذهنية التي تزيد في نبها على تلك التي تبهج مجرد الفنان ، وليس من العسير ارتقاء سلم القيم الأخلاقية المتصلة بالصور الذهنية ذات الجاذبية ، عن طريق الاستعادة للذاكرة في تتابع تلك الصور المميزة للشخص المحب لوطنه ، وللمصلح الاجتماعى ، وللمصلح الأخلاقى ، وللقديس أو المفسر الدينى العظيم ، وتزداد هذه الصور الذهنية تسامياً أكثر فأكثر ، ولكنها واضحة مليئة بالحياة للصوفى كما هي للفنان ؛ ترى أية رؤى تتسرب في عقولنا خلال استراحتها ، وأية مناظر ترد من أغوار ذواتنا إلى مخيلاتنا ! ينبغى أن نعرف ذلك لأنه لا مناص من أن تأتى تجربة في أعقاب مجرد الوصف للاستكناه الباطنى ، ومن ثمة نستطيع أن نكون قبضة لأنفسنا ؛ فالفكر ليس بالشىء الذى يستهان به .

ومن المؤكد أن ضروب حبنا وبغضنا تتماثل من حيث الوضع مع الصور الذهنية المتصلة بها وسيكون من المرهق مواصلة الموضوع إلى أى مدى ؛ ومن الواضح أن أية صور ذهنية لا تهيب لنا من الحق ما يبرر افتخارنا بها ، لن يكتر ترددها على عقولنا إذا قوبلت بمنطوق الحكم ؛ غير مرغوب فيها ، غير مستحبة .

ومن الناحية الأخرى ينبغى أن نلاحظ أن معظم الناس أكثر إحساساً

بما ينفهم مما يتفق مع رغائبهم ، فالثانية ضعيفة بينما تتسم ضروب النقص بالقوة ؛ فإنه لمن معالم الطبيعة البشرية المذلة أننا نشعر بالمرارة إزاء توافه قليلة تصادفنا فتضايقنا أكثر مما نقدر العديد من الأمور التي ينبغي أن تملأنا بالشكر وعرافان الجميل ؛ وفي الاستطاعة تعديل وجهة نظر مسافر ما على أساس بعيد تماما عن الإنصاف لأنه ، خلال الأيام القليلة الأخيرة من سفرته ، أوقعه سوء الطالع بين خليط من الأجلاف الأوغاد والبلهاء ، ولكن أحيانا يؤثر لقاءهم ، لأنه يجد متعة في المظالم ، وتوافقا مع أسباب الإثارة والتغيظ ؛ وأى ناقد أدبي يشعر بالرغبة في تقرّظ كتاب ما سيهجووه وهو مبهج إذا كان آخر فصوله معاديا لفكرة أثيرة إلى نفسه ؛ ولا يكاد يكون ثمة خلاف في شعور التفاؤل الذي يملأ قلوب كل من تسامت أخلاقهم من الرجال والنساء الذين وهبوا طبائع طيبة دافئة ، حتى حين يتحققون من تفاهة العالم وعفونته ، ولكن ما أقل عددهم ! ومن الرائع أن نذكر أن أنطوان - البلجيكي المعالج بالإيمان - ذاع صيته في أوروبا بدعوته إلى محبة الأعداء ، وهو مبدأ تقليدي (نظريا) بين المسيحيين ؛ ومن حسن الحظ أن آلافا من الناس أخذوا هذا المبدأ على أنه دعوة جديدة وتحمسوا لها تبعا لذلك .

وثمة عارض آخر أو علة أخرى لنزعة التشاؤم تبدو فيما يوجد بعقلنا الواعي أو الباطن من العادات الفعلية الكئيبة التي يسميها أتباع فرويد بالعقد ، وسنخرج عليها في الباب الثاني من هذا الكتاب ، ولكن علينا أن نلاحظها هنا في الحال ، إذ من غير المستطاع أن نغض الطرف عن أثارها في تقويم لطبيعة تفكيرنا .

ومن المستطاع الإضافة إلى الاستكناه الباطني وضبطه عن طريق مصدرين.
من المعلومات لانكاد نستطيع تقييدها بالريبة والتظنن هما : وسائلنا الخاصة ،
وأهم منها حديثنا ، وكلاهما متفتحان لكامل ضوء الوعي المتيقظ ، ولا يعوزها
التقصي من خلال عمية أكثر توغلا في علم النفس ؛ ماذا نسمع أنفسنا تقول ؟
أنحن راضون وقانعون بمجرد التعبير اللفظي عن الصور الباطنة أو الظاهرة ؟
(« هذه العربة مسرفة في سرعتها » . . . « كنت أود الحصول على عربة من
طراز ستودبيكر » . . . « أحس أني مستعد تماما لتناول الشاي ») بالطريقة
ذاتها ، أليست رسائلنا مفعمة بالأخاديت التافهة والتفاصيل الرخيصة ، وهي
لا تختلف عن رسائل الطاهي إلا بمزيد من قواعد اللغة وصحة التهجي ؟ ثم أليس
إقبالنا على النقد بسرور أوفر من سرورنا بالتقريظ يبرز في كثير من العبارات
التي نستعملها بكلمة « أكره » . . « أمقت » « أحتقر » « لشد ما أنفر من »
. . . وهكذا ؟ إذا كان الأمر كذلك فلن نستطيع الإفلات من الحكم الذي
صدره على أنفسنا : عاديون .

والعنصر الثالث الذي يلزم أخذه بعين الاعتبار إذا أردنا أن تكون
قائمنا التفصيلية كاملة هو استعادة خواصنا العقلية لطبيعتها دون تغيير، ويستطيع
المرء أن يخادع قوة الملاحظة في مبدأ الأمر ، ولكن لا لأمد طويل، عن طريقة
نعومة اللفظ ، والثقة ، مع ذاكرة حافظة تمكن صاحبها من الإفشاء ، في يسر
بمعرفة سهلة المنال ، بل وأحيانا مسروقة دون تورع أو حياء ، وكقاعدة
نستطيع أن نوازن بين رجاين ونعرف أيهما أوفر نشاطا من الناحية الفكرية،
كما نستطيع أن نحكم ، في حوض للسباحة ، على أسرع السباحين ؟ ، وفيما يتعاق
بتقويمنا لمرونتنا العقلية ، فهي مسألة أمانة مجردة ، لا يعوزها سوى أبسط

ضروب التقصى ، فإذا كان عقلنا أفضل قليلا من مجموعة الصور المذكورة آنفاً ، فلن نفكر أكثر مما تفكر فيه إحدى المرايا ؛ إذا كنا نسأم أى موضوع أعلى من تلك التى تغذى ضروب كراهيتنا الحقيرة ؛ أو حتى ضروب محبتنا التى هى أحقر منها ، فإننا لانفكر ، وإذا كنا حالما يثير كتاب أو صحيفة سؤالاً يتطلب مزيداً من المعلومات أو التدبر ، نشاءب ، ولا يقر لنا قرار ، ثم ننصرف عاجلاً إلى شىء آخر ، فإننا نمقت التفكير ؛ وإذا كنا حالما نحاول إمعان الفكر ، نشعر فى الحال بتعب أو برغبة فى النعاس أو ميل لتكرار الألفاظ فقط ، فإننا لانعرف ماهية الفكر ، وإذا كنا نعرف ماهيته فعلاً ، ولكننا على حد قول مونتيني « Montaigne » مسرفون فى الكسل إلى حد العجز عن معالجة مسألة ما بأكثر من « شحنة ذهنية أو شحنتين » — فنحن مفكرون مهزولون ؛ إذن فما نحن حقاً ؟ .

قطط مهجنة ، عبيد أذلاء يقلدون سادتهم ، فحينما يزور مسافر الولايات المتحدة لأول مرة لايسعه إلا أن يشاهد ظاهرة غريبة ، فعلية « الأمركة » ، أو أخذ الطابع الأمريكى — تحويل عدم التجانس الأجنبى إلى تجانس أمريكى — لاتهم ، كما تنوهم مراكز الأمركة ، عن طريق الاستعاضة بمجموعة من الآراء الجديدة عن أخرى قديمة ، فالأمر يتم بقدر أوفر من البساطة واليسر ، فقبل أن يبدأ المهاجر الجديد فى تحصيل اللغة التى يسميها الأمريكية بزمن طويل ، بل قبل أن يغير اسمه من سلفيو إلى سليفان ، فإنه يحاول أن يكون أمريكياً على قدر ما تسمح له به موارده البسيطة ؛ فيزيل شاربه ويقص شعر رأسه على أدق طراز عسكري ؛ ويتردد على الملاعب وسرعان ما يتعلم صبيحة تشجيع اللاعبين ؛ وكذلك يشرع عاجلاً فى كبت ما هو معروف عن قومه من سرف

عاطفي ، فلا يبدو له أثر على وجهه ، ويستعيز عنه بتثاقل مرموق ، وإنك لتراه تسع مرات من عشرة ، يحاكي الأمريكي في تردده قبل أن يتكلم ، مع حركة صامتة بالشفوتين كثيرة الانتشار بين الأمريكيين من طبقتهم ؛ ولا يجد صعوبة في الاعتياد على التحية باليد ؛ التي يحتمل أن تكون أمريكا قد استعارتها من أسلافه الرومان، وكان البعض قد ذكروا له قبل قيامه من نابولي، أن الشطر الأكبر من الأمريكي المحترم يتكون من الملابس الفاخرة ، ولذلك يضع فيها أول مبلغ يصل إلى يده ، ولا يساوره أى شك في أن بلاداً يحصل فيها صبي في الثامنة عشرة من عمره ، على مائة وخمسين ليرة في اليوم الواحد ؛ لا يمكن إلا أن تكون بلاد الله الخاصة، وهذه الفكرة تجعله يتقزز من روائح إيطاليا ، وحينما تحمل الساعة التي يستطيع فيها أن يكتب لأهله بالوطن بأنه يتكلم « الأمريكية » الآن ، يصبح مستعداً لكي يؤمن العالم ، بأى ثمن ، بالديمقراطية والمرأة الأمريكية ، ثم يضيف قائلاً: إنه ينبغي أن تعطى له أوراقه دون تعطيل مدة أسبوع آخر ؛ وقد جاءت العملية برمتها من الخارج ؛ ولعل عنصرها الأساسي كان تحرك الشفاه الصامت ؛ وهو علامة على ضرب رفيع من الاستيحاء الذهني .

ماذا يفعل معظم الناس الذين ليسوا مهاجرين مساكين بل مجرد «ناس»؟
ألا يتكفون من ملابس ؛ وصنوف طراز ؛ وأنواع سلوك ، واصطلاحات لفظية ، (أنصت لما تسمعه في الأوبرا أو في معارض الفن)؟ أليست مواقفهم من الحياة بل حتى قبل الحياة نسخاً من نماذج متفق على تعميم مستواها ؟ أليست حيواتهم جميعاً متماثلة ؟ .

إن معظم هذا الاستجواب من النوافل ، فنحن نعرف أن تسعة عشر رجلاً من عشرين، لا يفكرون ولكنهم يعيشون كما يعيش الإنسان الآلي ؛ وقد أنبت مرة ، مستر أرنولد بنيت ، إذ وضع لأحد كتبه عنوان : « كيف تواصل الحياة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم؟ » فواضح أن هذا العنوان يوحى بكتاب لقوم محومين ذهنياً ، ومن ثمة يبحثون عن وسيلة يحشرون بها ثمانى وأربعين ساعة في أربع وعشرين ؛ ولكن الكتاب ، على النقيض ، وضعه مؤلفه للمتبطلين من الناس ، بغية دفعهم لأن يعيشوا أربعاً وعشرين ساعة في اليوم ، ومن ثمة كان ينبغي أن يكون العنوان الصحيح : « كيف تعيش أربعاً وعشرين ساعة » أو « ساعة » أو « عشر دقائق » في اليوم ؟ ؛ ذلك لأن معظم الناس لا يعيشون حتى هذه الفترة في اليوم ، وكان سفر مستر بنيت جديراً بأن يكتب .

الفصل الثالث

الفكر الصحيح

يدخل مفكر ٠٠٠٠٠ وجميعنا شاهدناه منتصباً وسط لفيف من غير المفكرين الذين كثيراً ما يتسمون بالبلاهة ، وقد غمرتهم الدهشة وران عليهم الشك وعدم التصديق ؛ وأحياناً يكون رجلاً ممعناً في بساطته، ميكانيكياً يخرج متريثاً من حظيرة السيارات التي يديرها ؛ وحول السيارات رجلان أو ثلاثة رجال ، ما زالوا مستغرقين في الكلام بانفعال ظاهر ، وقد راحوا يتكهنون بالعطب دون جدوى، حين برز إليهم الرجل المقتصد في كلامه ، وكانوا قد قضوا ساعة كاملة يتكلمون ويجادلون ثم أخفقوا ، فيكفون عن الكلام وما من أحد بعد ذلك ينبس ببنت شفة ، ويروح الصانع الفنى ، بعينيه المتوقدتين الذكيتين ، ويديه الماهرتين غير المتخاذلتين ، يفحص أجزاء الآلة ، وفي غضون ذلك نطقن إلى أن ذهنه يستعرض عشرات الافتراضات التي تبدو لنا مجرد أغاز أو أحاجٍ ، وسرعان ما يستكشف العطب ، وأحياناً يداعب الابتسام شفتى الرجل ، علام ؟ وممن ؟ هذا ما يثير حيرتى دائماً ، ولكننا شعرنا ، على أية حال ، بوجود عقل مفكر .

هاك فراش يلتف حوله نحو عشرين طالبا من طلبة كلية الطب ، وقد قام
بفحص المريض ثلاثة أو أربعة منهم ، ويقوم الآن بهذا الفحص طبيب امتياز ،
وذلك لأن حالة المرض معمئة في طرافها وأهميتها ، وقد تُدرَج بالمراجع الطبية،
وبين الفينة والفينة يتفوه الطبيب اليافع بكلمات قليلة، سرعان ما يسجلها العشرون
بأقلامهم ، ولكن هزة تسرى في أوصال الحشد الصغير ، فقد أقبل أستاذهم
النابغة وهو بينهم الآن ، لسماعه عن هذه الحالة ورغبته في أن يراها بنفسه، وفي
لحظات قليلة ينحني الرأس الرائع نحو المريض ، ويبدأ منظر لا ينسأه أولئك
الذين شاهدوه مرة ، ويخيم الصمت حتى لكان الطير على رؤوس الأشهاد ،
ويستقر الآن ذكاء الطبيب الذائع الصيت في أذنه ؛ وراح النابغة ينصت وقد
أغلق عينيه ، وارتسمت على محياه علامة الاستيحاء الذهني ، وفي فترات قصيرة
يبدو عليه تألق مستبشر يبين أن الفحص يسير في الطريق السوي : وكل صوت
مهما دق ، وكل انقطاع في الصوت ، لا يمر دون تريث وتمحيص : فالطالبة
يدركون أنه حتى الطية في تجويف الصدر (Pleura) تصبح مرئية لهذا
النابغة حين إنصاته متسمعا، ويمر نصف ساعة دون أن يمل هذا المنظر أى شاب.
من هؤلاء ، على الرغم من صمت الطبيب الكبير واستغراقه في التفكير :
الذي يعتدل أخيرا ويعود من رحلته الفكرية الطويلة : لقد تكشف المرض كما
لو كانت جميع الأعضاء على منضدة التشريح — كما سيحدث لها ، مع الأسف
بعد أيام قليلة — وفي كلمات قليلة يشخص المرض : إن العقل الذي لا يقهر قد
اخترق حواجز الصدر الصلبة ، متغلغلا إلى أغواره ، متما عمله المأمم .

أتعرف صورة سيزان التي رسمها لنفسه ، فهي أعجوبة تمت بوسائل بسيطة
ميسرة قد يحصل عليها المصور من جزيرة قاحلة ؟ ولو أنك تطلعت إليها عشر

ثوان فقط ، فلن تنسى العينين قط، فهما صافيتان ، جامدتان ، جافيتان ؛ باردتان ، قاطعتان كالصلب ؛ فالفنانون عادة لهم تلك العيون التي فطرت على ألا تحب الحقيقة، على حد قول الناس ، بقدر ما تؤثر التغافل إلى أغوارها ؛ وكانت عينا «ديجا» من هذا الصنف تماما ، وقد رأيت تلك العينين ، منذ زمن غير بعيد ، في رأس مصور يافع ، كئيب ، أنيق الملبس ، فاسترعى اهتمامي ، وتبادلنا نظرات حادة كالسيوف الصوارم ، قصية فوق منطقة الجمالة الخالصة ؛ وهذه العيون ترى حيث لا ترى عيون غيرها ؛ وما هي قوة نابليون أو حتى موسوليني ؟ ليست مجرد « قوة » بل جاذبية ، والجاذبية أقرب إلى الذكاء منها إلى العنفوان ؛ ورجال كهذين « يرون » ضرورات حقبة ما ، والويل للناس الذين لن يرونها مثلهم، فاحتقار النسر لأصغر المخلوقات الزاحفة فوق الثرى أقل من احتقارهم لهم.

وإني لأذكر مرة أخذت «أنجلييه Angellier⁽¹⁾» على حين غرة، إلى حجرة استقبال كانت عليية القوم تماؤها باللفظ الناعم الصادر من العدم الأنيق فجلس وأرهف أذنيه للسمع ؛ وكان له رأس لا تلمحها عين ، مهما كان احتشامها دون أن يستوقفها ، فهو رأس يستقر في اعتدال ، فوق كتفين رياضيتين ، توهمان الناس بأنه فارغ العود ولكنه لم يكن كذلك ، ولكنه كان يتمتع ، فوق كل شيء ، بقدرة على الانتباه ، مرئية في عينيهِ الغائرتين العميقتين ، حتى بدت كما لو كانت تاقى بالفعل شبا كما حول العالم الخارجي ؛ ولم يتيسر التفاضى عن ملاحظة عدم التوافق بين ما بدا كما لو كان أنجلييه يتوقعه ؛ وما لقيه من معاملة في أصيل ذلك اليوم ، ومع ذلك فبعد دقائق قليلة أصبح الحديث أكثر

(1) أوجست أنجلييه ، أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة ليل وباريس ، ناقد أدبي وشاعر ، وقد مهد له طريق الشهرة كتاباه عن روبرت بيرنز ، ومقطوعاته الشعرية الغنائية « Sonnets » بعنوان : (إلى الصديقة المفقودة) ؛ وكان نفوذ الشخصى يفوق المعتاد .

أصالة ، كل لفظ منه موجه إلى هذا الرجل المجهول ذى الوجه المترقب ، ولذلك سرعان ما جاء الجزاء الحسن ، فقد ركب أنجلييه شيطانه وراح يفيض علينا من بدائعه : سلسلة من العبارات المتألفة التى سربلتها استعاراته الشكسبيرية فى وهج سحرى ؛ وكان منظرأ فريداً أعاد إلى الذاكرة وصف أنجلييه لروبرت بيرنز فى غرف الاستقبال بمدينة أدنبرة .

وعظاء الرجال ، على حد قولك ، هم جميعا ممن أحرزوا الشهرة بقسط كبير أو ضئيل ، وهذا حق ، ولكن هل ثمة كائن بشرى واحد لا يعرف ، بين جيرانه الأقربين ، رجلا أو امرأة موهوبا بقدرة على الرؤية العقلية ، تعلو فوق المستوى إلى حد رائع مرموق ؟ أهناك قرية لم تقم فيها نجمة قروية بالدور الذى مثلته برتويل برونتى فى هاروث ؟ وهل هناك أسرة واحدة ، أو حلقة اجتماعية صغيرة ، بدون مفتيها ، الذى يقال عنه ، كلما برزت مشكلة أو استعصى الرد على سؤال عسير ، أوه ! سيلم بكافة أطراف الموضوع ويهتدى لحله ؟ وقليلة تلك الأحاديث التى تمر دون أن تصدر عنا هذه البادرة العقلية : لم أفكر فى ذلك ؛ وهذا يعنى أن شخصا ما ، ولعل هذا بمحض الصدفة ، كان من زمرة المفكرين ، وبعده الثورة الروسية ، عام ١٩١٧ ، بوقت قصير ، راح لقيف من ستة أشخاص ، بأحد أندية باريس ، يزجون الوقت بالتحدث فى موضوع الساعة آنذاك ، وهو عقد مقارنة بين قيصر روسيا ولويس السادس عشر ، وبين القيصرة ومارى أنطوانيت ، وبين كيرفسكى والجيرونديين الفرنسيين ، وغير هذا من موضوعات ، حتى يتيسر تقصى مستقبل روسيا فى يسر من تاريخ الثورة الفرنسية ؛ ورفع شخص عقيرته قائلا : « أوه ! تظنون أن الأزمة قد انتهت ، أليس كذلك ؟ ولكن ما هذا المجلس الذى ينعقد من جنود وعمال

بمحطة فنلندة؟ انتظروا ، فسترون ماذا يسفر عنه ذلك» . وكان حدسا ملهما متألقا لم تمر بضعة أسابيع حتى بدأت الوقائع تثبت صحته .

هذه الاختبارات مألوفة لنا جميعا ، وغالبا ما تترك خلفها أثرا عميقا ؛ ونحن نحن إلى أن نرى الفكر حين ينشط للعمل ، ذلك لأن شخصيته ، مقترنة بعدم توقع تصرفاته، تذهب في تأثيرها علينا حداً يفوق حتى الفكرة الملهمة التي يمدنا بها ، وما من أحد ينكر أن الفكر ، كالخطابة ، يزكو باستقائه من النبع ؛ ولم يقدر الملكيون شيئا في بسكال مثل تقديرهم لما أطلقوا عليه اسم « فصاحته » : ولم يكن اللفظ ليحمل إليهم من المعنى مثل ما يحملة لنا ، وهو البلاغة الساحرة ، بل قدرة الإفصاح ، الحاضر غير المتكلم ، عن أفكار يتعذر صياغتها من ألقاظ ؛ ومن المحتمل أن يكون اهتمامهم بالمذكرات التي يكاد يستحيل قراءتها ، والتي خلفها الفيلسوف من بعده ، ينحصر في الأمل بأن هذه القصصات من الورق تعيد للحياة طابع إبداعه ، ولا يشك قراء بوزويل في أن جونسون كان متحدثا بارعا من طراز غير مألوف ، ولكن ما أقل عدد طلاب الأدب الإنجليزي الذين لديهم فكرة واضحة عن أنه كان في الاستطاعة تسمية حقبة عشر سنوات من القرن الثامن أو حقتين بعصر جونسون لو أن الأمر كان مقتصرًا على المرجع اللغوي الذي وضعه ، وراسلاس وحيوات الشعراء ، فعبقرية جونسون كانت في حديثه لا في كتبه ، ويقول ليون دوديه ، مشايخا لمارسيل براوست ، بأننا نهوى حديثنا «مليثا بالزهور والنجوم» فالنجوم هي الأفكار النادرة والزهور هي الصورة الساحرة للتعبير عنها .

ومع ذلك فإننا ، من حين لآخر ، نجد أن انتشار آراء مفكر ما يتم دون

تدخل منه ، إما لأن المفكر لم يكن فصيحاً ، وإما لأن أفكاره كان من العسير فهمها ، وإما لأن الرجل نفسه ظل غامضاً مغلقاً على معاصريه ، هذه الظاهرة لا يسعها إلا أن تعطينا صورة رائعة عن عظمة الفكر ؛ ضع في الميزان ديكارت ، اللاجيء إلى هولندا ، أو تلميذه سبينوزا ، الصانع الفني ، أو كانط ، ذلك الطراز الإقليمي للأستاذ الجامعي ، أو كارل ماركس ، بأن توازن بين شخصياتهم ونفوذهم ، فالتناقض بين ضروب حياتهم المتواضعة والوهج العقلي الذي خلفوه من تقدمهم لما يثير العجب العجيب ؛ وإن إشراقاً واحدة تسطع داخل عقل بشري ، وعلى الرغم من انعدام النفوذ البشري تماماً ، وعلى الرغم من طبيعة المبادئ المعمورة ، على الرغم من اختفاء الموهبة الأدبية ، فإن تيار البشرية العقلي برمته سيتغير طوال بضعة أجيال ، وتصبح العملية أكثر تألقاً وإثارة للدهشة والإعجاب حين تكون شخصية الرجل قوية كنفوذه (يوليوس قيصر و نابليون) ولكن هذا ليس بالأمر الذي يفوق المؤلف ، وفي الاستطاعة القول بأن الفكر هبة إلهية لأنه مبدع خلاق .

* * *

أية سمات تميز الفكر ؟ ، واضح أن أولى هذه السمات هي الرؤية : الكلمة التي تقوم أساساً على كل سطر من الأوصاف الأنفة الذكر ، فالمفكر قبل كل شيء رجل يرى حيث لا يرى الآخرون ، ذلك لأن جدة الأشياء التي يقولها ، وطبيعتها كضرب من الإشراق الملهم ، والسحر المقترب بها ، كل هذا يصدر من الحقيقة القائمة وهي أنه يرى ، وهو يبدو كما لو كان يعاود فوق الجماهير برأسه وكتفيه ، أو أنه يغذ السير في طريق مرتفع ، بينما غيره يسير في تناقل أسفل الطريق ، والاستقلال هو اللفظ الذي يصف الظاهرة الأخلاقية لهذه.

المقدرة على الرؤية ، فليس ثمة ما يثير الدهشة أكثر من انعدام الاستقلال .
العقلى عند معظم الكائنات البشرية : هم يماثلون فى الرأى ، كما يماثلون
فى السلوك ، وهم راضون تماما بأساليب الجمالة المعادة المتكررة ، وهم إذ
يفعلون هذا ، يتطلع المفكر حواليه ، مطلقا العنان لحرته الفكرية ، وقد يرضى
بالإجماع المعروف بالرأى العام ، ولكن هذا الرضا لن يكون مبعثه عمومية
الفكرة ، بل إن هذا الشئ الذى تحميه هالة من القداسة ، المسمى « الذوق
السليم المشترك » لا يكفى سببا لجملة على المشاكلة مع نمطية الجماهير ، وأى شئ
كان فى الاستطاعة أن يبدو أكثر صلة بالجنون ، فى القرن السادس عشر
من إنكار حقيقة — لأنها كانت حقيقة — أن الشمس تدور حول الأرض ؟
ومع ذلك فلم يكثر جاليليو : وينبغى أن نقف مبهورين أمام شجاعته الأدبية
أكثر مما قد تبهرنا شجاعته البدنية ، ولكن بعد ذلك بثلاثمائة عام ، لم يكن
الموقف بأقل صعوبة على هنرى بوانكاريه أن يقرر أن الفكرة القديمة كانت
تحمل من الحقيقة العلمية قدر ما تحمله نظرية جاليليو ؛ وإسكار أينشتين لنظرية
استحالة تلاقى المتوازيين ، إنما هو دليل باهر آخر على الاستقلال العقلى .

كم من الناس — فى أغسطس عام ١٩١٤ — هزوا رؤوسهم إزاء يقين العالم
بأن الحرب لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور؟ ، قليلون جدا ،
ومئات من الناس ، فى أوروبا ، يحاولون حماية المشاة من سائقي العربات ،
ولكنى لا أعرف سوى واحد فقط هو الذى فكر فى الإجراء الأصيل العملى
الذى من شأنه وحده أن يرغم السائق على الإبطاء وتخفيف السرعة : وهو أخذ
آلة التنبيه منه ! وكل إنسان يسخر من الخطب الرنانة الجوفاء التى تردد
قاعات المجالس النيابية أصداءها ، والمهياة دون شك للتأثير على بعض دوائر

انتخابية قصية ، وثمة طريقة سهلة لتقليل هذا الشر إلى حد كبير ، وذلك بإرغام الخطباء على الكلام وهم جلوس ، ولكن من ذا الذى يفكر فيها ؟ ، وكم عدد الأمريكيين الذين يدركون أن بلادهم ليست ديمقراطية ، ولكن تديرها أقلية من رجال الحكم الأقوياء ، وأنها مدينة لهذه الحقيقة بالنصيب الأكبر مما تتمتع به من استقرار وثبات ؟ ، وكم عدد الفرنسيين الذين يرون — إذ يمكن رؤيته — التناقض بين طراز مبانيهم الحديثة ، والآثار النادرة أو البالغة حد الروعة ، المبعثرة في شتى أنحاء بلادهم ؟ ، ومن المؤكد أن العالم يعيش على الكلمات التي لا يكف عن ترديدها حتى ينبرى مفكر ، أو خبيرة متكررة (خبيرة تحطم الغباء) فيصنع ثغرة في حائط التماثل الصلب البليد .

ويبدو أولئك الذين يفكرون لأنفسهم بمظهر المتعالمين الراضين عن ذواتهم ، لأنه يتعذر عليهم أن يكونوا غير راضين أو أن يكونوا من الضالين العابثين ، لأنهم يحطمون الأصنام ، ولا يسعهم إلا أن يستمتعوا بهذه الرياضة ؛ والرجال الذين من طراز مستر برنارد شو العقلي سيأسفون حقاً لو أصبح جميع البلهاء من الناس بغتة عاقلين مثاهم ، والازورار عن الضعف الخلقى والتلاعب به دون إشفاق ، هما ضرب من المران الصحى للمواهب العقلية : ويعج الكتاب المقدس بالأمثلة على هذا ؛ ويحتمل أيضاً أن يتشبث المفكرون بأفكارهم وفرضها على الآخرين إلى حد العنت والاستبداد ، وعلّة ذلك أنهم إذ يرون الحق — الذى يطلق عليه اسم آخر وهو الخلاص — ويعلمون أن غيرهم من الناس لن يروه ، فإنهم يعاملونهم كما ينبغى أن يعامل الراشدون الأطفال ، ومرة أخرى يمكن استخدام موسوليني كمثال فى هذا الشأن ؛ ولكن المفكرين ، فى أغوار طبائعهم ، معلمون من الطراز الأول ، وإنه ان الصالح لهم أن يكرسوا حياتهم للدعوة إلى الحق الذى

يروونه ، وبعضهم يفعل هذا في خطب أو كتب رائعة ، وآخرون في لغة الفنان النابضة بالحياة ، ولكن مهما كانت وسيلة التعبير ، فإن التعلق بالحق يظل مرثياً واضحاً ، ويتراءى بعض رجال الأدب كمتكرين بسبب طبيعة تعبيرهم المعنوية في غرابتها ، ولكن أقل جهد في سبيل اختزال أروع صفحة من إنتاجهم لاستخلاص ما فيها من إصلاح الفكر المجرد سيبين أنه ليس لديهم ما يقولونه سوى القليل : فاعدم استطاعتهم أن ينبروا كعلمين ، ولا مناص من أن يقنعوا بتقليد « البهلوان » الذي يلقي خطاباً وهو واقف على رأسه ، مؤكداً كلامه بحركات من ساقيه بدلا من يديه ورأسه ، رجال كهؤلاء سيجدون مقلدين لا أتباعا ومريدين ، في حين أن المفكر — سواء شاء أو لم يشأ — قائد وزعيم .

الفصل الرابع

استطاعة إيجاد فن للتفكير

أى رد فعل يصدر عنا فى حضرة مفكر ما ؟ هو بالذات ما يصدر عنا فى حضرة إحدى الحسنات : فالدهشة تغمرنا فى مبدأ الأمر ، وفى أعقابها يأتى الإعجاب ، بيد أن الإعجاب عند بعض الناس يصحبه خمود المهمة ، بينما هو عند البعض الآخر يغمرها ويزكيها ، وصفوة رجال الأدب الذين يسرفون فى التفكير فى بواعث الإعجاب يخطف بصرهم بريقه فلا يتحركون ، وهذا على نقيض ما يفعله القوم العاديون ، أما الذين يتسمون بمزيد من الثقة فتفكيرهم لا يكاد يعتوره أى تغيير : «عار على ألا أتكلم مثل ذلك لعلى كنت أفل هذا لو أنى فقط أحرزت الفرص التى أتيت لهذا الرجل وتعليمه ، وخبرته فى الأسفار ، وعلاقته بالناس التى عودته على أسلوب رفيع فى الحديث ، أو حتى على موسوعة لفظية طيبة ، إذن لما كنت الشخص الأبهى المتبلد الذى يترامى للناس قطعاً فى إهابى » وهم يظنون فى أعماق قلوبهم أن التمييز موجود غير مكتسب ، ويعودون باللائمة على القدر ، وآخرون تأخذهم الريبة بأن وراء هذا كله «وصفة» لا يعرفونها ولكن من اليسور أن يتعلموها ؛ ثم يبدو عليهم أنهم

يقولون : « أخبرونا كيف ! » ولا يساورهم أى شك فى أنهم لو حصلوا على «الوصفة» لجاءت النتائج فوراً فى الأعقاب ، وإذا صرفنا النظر عن بلهاء السامعين الذين ينظرون إلى متحدث بارع كما ينظر فرنسى بخيل طاعن فى السن إلى أمريكى سخى ، أعنى أن يعتبره أعجوبة غير سوية التكوين ، فإن الناس يشعرون بصلة قرابة تربطهم بنماذج البشرية الموهوبة ، والفارق الوحيد الذى يرونه بين هؤلاء وبين أنفسهم هو عارض يعود للصدفة الجردة ، ويحتمل أن يزول فى لحظة : وبعبارة أخرى فإنهم يؤمنون بفن التفكير .

ولماذا يفعلون ؟ فى بساطة ، لأن معظم العاديين منا يذكرون لحظات ، يلمحون خلالها ذات مناطق العقل التى يعكسها الحديث البارع ، وأى شخص متصل بالريفين ويألفهم ، حتى أقلهم تثقيفاً ، يعرف أنهم ممن يستهويهم جمال فطرى ، منظر طبيعى ، آخر بسمة يفتر عنها ثغر الخريف لغابة ما ، غروب الشمس ، مروق طائر برى ، كما يستهوى فناناً أصيلاً أو شاعراً محترفاً ، وكل ما يعوزهم هو الألفاظ ، أو فى الأرجح ، هو الثقة ، ويؤثر الكثيرون منهم عدم التحدث عما يضطرم فى أعماقهم من ضروب الحب كما يؤثرون عدم تغيير لهجات حديثهم .

ويكف البلاداء من الناس عن بلادتهم ، حين يسمعون خطاباً رائعاً ، أو يطالعون كتاباً من الصنف المحتمل أن يستثير إمكانياتهم النائمة المعطلة ، ولعل واحداً فى الألف من البشر لا يستهويه سحر الموسيقى على الإطلاق : أما الباقون فلا يستطيعون ، مهما كانوا أجلافاً ، سماع نشيد عسكري ، أو أغنية عاطفية ، أو موسيقى منفردة ، دون أن تعرفهم نشوة لا تختلف إلا فى درجتها ،

عن الحالة العقلية التي أنتج فيها شلى قصيدته « الهزار »، وغير خفي على الرجال والنساء ذلك الفيض العجاج من الانطباعات العقلية النادرة ، مع إحساس بدفء غير مألوف حول القلب ، وكلنا ندخر ذكرى مثل هذه اللحظات ، ولا يحدث قط أن تتكلس أو تتبدل ذواتنا نتيجة الحياة وتأثيرها الصلد ، ومن ثم نتمنى عودتها .

كذلك ما من أحد إلا ويشعر بفترات ساحرة يكون عقله خلالها في أحسن حالاته ، ويعمل بسرعة وبغير خطأ ، وينتج الأرق ، قبل أن يصل إلى حد الإعياء ، صفاء ذهنياً ، لا يعوضه أى قدر من التأمل العادى ، ولفظة رجال الأدب تثبت هذه الحقيقة ، وعلى النمط ذاته تؤثر العزلة الطويلة مصحوبة بالصوم الخفيف ، وهذه الحالة أيضاً معروفة لرجال الأدب جميعاً ، وقد اعتاد ديكنز أن يسير طويلاً مخترقاً شوارع لندن خلال الساعات المتأخرة من الليل ، حين لا يستطيع أن يقابل سوى رجال الشرطة الذين يغالبون النعاس ، أو القلط الضالة ، ويعلم معظم الكتاب أن مؤلفاتهم مسطورة فقط ، ولا تنبض بالحياة ، حين لا يستطيعون أن يفصلوا أنفسهم من أسرهم ، وينشدون الهدوء ببلدة قديمة أو بفندق ريفى بعيد حيث لا يخاطبهم أى مخلوق ، وإذا حاول إنسان ما تجربة اجتياز المحيط على ظهر سفينة هادئة دون أن يتخذ لنفسه رفيقاً من المسافرين ، فسيجد بعد ثلاثة أو أربعة أيام أنه قد أحرز نمطاً فى التفكير غير النمط القديم ، فمثل هذه التجربة تسفر عادة عن عشرة أيام ، أو حتى ثلاثين يوماً ، من العكوف الصامت على مزاوله الصلاة وبعض الطقوس الدينية .

وفى استطاعتنا جميعاً ، حتى بدون أن تتكرر عودة اللحظات المليئة بالنشوة التي تقطع حبل حياتنا التقليدية غير المتغيرة ، أن ندرك ما يجول بذهن المفكر

بأن نستعيد للذاكرة عهد طفولتنا ! فجميع الأطفال ، تحت سن التاسعة أو العاشرة ، شعراء وفلاسفة ، وهم يدعون أنهم يعيشون معنا ، ونحن نتوهم أننا نطويهم تحت سلطاننا حتى تصبح حياتهم ليست إلا انعكاساً لحياتنا ، ولكن الواقع أنهم منطوون على ذواتهم مثل القبط، وأنهم دائموا الاستغراق في غمرة النشوة السحرية التي تحتويهم إزاء ما يرونه في أغوار نفوسهم ؛ وثروتهم العقلية تفوق المؤلف . ولا يستطيع أن يعطينا بعض الفكرة عن هذه الثروة إلا عطاء الفنانين والشعراء ، الذين يماثلون الأطفال دون شك ؛ وقد يكون طفل صغير ذهبي الشعر ، وهو يلعب بالحديقة منهمكاً يؤلف منزلاً صغيراً من قطعه الخشبية ، شاعراً طوال الوقت بغروب الشمس ، في حين يدعى أنه لا يتطلع إليها؛ . . . وقالت الحاضنة يوماً وهي تخاطب (فليسينيه دي لامينيه) وهي طفلة في الثامنة من عمرها : « هيا بنا ! لقد تطلعت طويلاً إلى تلك الأمواج والجميع آخذون في الانصراف » فكان الرد : « إنهم يتطلعون إلى ما أتطلع إليه ، ولكنهم لا يرون ما أرى » وهو رد لم يقصد به التفاخر بل مجرد رجاء للبقاء . ومن يستطيع التكهن بما شاهده أربعة أطفال بروتي الصغار أو لم يشاهدوه ببراري بريطانيا التي كانوا يذرعونها ، يوماً بعد يوم ، وأيديهم متشابكة ؟ وأنت ألا تستطيع أن تتذكر بحثك عن تهاويل خيالية في مجرد بقعة حمراء بصفحة من الورق أو بصندوق ألوانك الصغير ؟ إن معظم الأطفال الأذكياء ، كما كان الحال مع نيومان ، تساورهم شكوك الفلاسفة عن وجود العالم ، فأنت تراهم ينظرون إلى حجر وقد غمرتهم الدهشة وحب الاستطلاع ؛ فتتصور أن «الأطفال هم هكذا مضحكون» وهم طوال الوقت يريدون أن يعرفوا ما إذا كان الحجر خالداً وما هو معنى الخلود ؛ وإن أنسى لا أنسى طفلة صغيرة في التاسعة من عمرها سمعتها تقاطع حديثاً لأساتذة جامعيين كانوا يتحدثون عن

لا شيء ، كى توجه هذا السؤال الربك الحير : « أمى ، ما هو الجمال ؟
وما الذى يصنعه ؟ » .

ويظل تفوق العقل هذا يلح حتى تبدأ نزعة التقليد عند الطفل تعمل من
الخارج للباطن ؛ وحين يبدأ الطفل جاك فى محاكاة طريقة والده فى تحريك رأسه
أو هز كتفيه ، تبدأ روحه الصغيرة المسكينة أيضاً فى الرضا بطرد الأسئلة ؛
وسرعان ما ينحسر ذلك المد الرائع من الاهتمام الذى يملأ روح الطفل ليتركها
جافة قاحلة ، وقد يصدف أن تتكرر عودة هذا المد ؛ وحين يقوم صبيان
المدارس بتحرير موضوع إنشائى ، ترد على خواطهم أفكار يدركون أنها
ما يسمى بالأدب ، ولكنهم لا يجسرون على تدوينها . والإلهام الذى تساء
معاملته ، بدوره ، لا يجسر على العودة ، وصوب هذه اللحظات من الإلهام نعود
بأبصارنا فى يأس ، نحن الذين اتخذوا الأدب مهنة لهم ، متسائلين عما أحضر
حصاداً من الأفكار الفجة المعادة لتحل مكان إلهام مبرز اعتاد أن ينساب بالفطرة
دون عناء ؛ وليس بمتعذر أن يدرك المرء طريق العبور من الطفل إلى الفنان
اللامع أمثال بليك أو هويتان فى إنتاجهما .

وينسى الناس طفولتهم ، دون شك ، وهذه خسارة لا يمكن تعويضها أو
تلافيا ، مهما حاولوا تصغير شأنها ، ولكنهم يظلون يتذكرونها زمناً طويلاً ،
ويحاولون تخفيفها عن وعى قل أو كثر ، ولا مساءً أنه لا يجول بخاطر واحد
فى الألف بأنه كان أكثر ذكاء وهو فى الثامنة منه الآن وهو فى الخمسين من
عمره ، ولكن لا يقل صدقاً القول بأن العلاقة التى نحسها بين أنفسنا وبين الرجل
الذى يهرنا مؤسسة على ذكريات ساعات عظيمة أو على ذكريات الطفولة ؛

وقد يفكر الفرد منا فلا يحافيه الصواب ، ويروح يقول لنفسه : « لقد تخلفت
وقل شأني » أو « إني ضحية ، فلقد جافاني حسن الطالع » وكثيراً أيضاً ما نسمع ،
عقب هذا الاعتراف الآتي من الأغوار شعوراً أكثر استبشاراً بنعم قائلاً :
« إن أسلوب حياتي يصعب تغييره ، أعلم ذلك ، بيد أنني إذا حاولت القيام
بأى جهد ، كأن أتقدم خطوة واحدة وأقول لنفسي : « منذ الآن فصاعداً لن
يكون حديثي ضرباً من الهراء قط ، ففي لحظة أستطيع أن أخرج من قطيع غير
المفكرين لأصبح واحداً من القلائل الذين يقودون هذا القطيع » وقد تكفى
أنفه الأشياء ، كطنين ذبابة أو اصطفاق باب ، لتشويش هذه الحالة الذهنية
وإعادة الأفكار العادية بكامل قوتها ، ولكن لا يقل عن هذا في صدقه
القول بأننا ، خلال دقائق قليلة ، انفصلنا من حياة عقلية رفيعة
برؤية أدركنا أنها كانت في متناول يدينا ، وبجهد لم يبذل أنه مصدر
للإرهاق .

كل هذا يرقى بنا للقول إن لدينا اعتقاداً فطرياً بوجود فن للتفكير
وبعض الناس حائزون عليه والبعض الآخر غير حائزين ، ولكن على هؤلاء
الأخيرين ألا يلوموا سوى أنفسهم .

أهذا حدس حقيقي ؟ وهل علينا حقاً أن نعتقد أن فورة الفكر والشعور
الدائمة في الجسم الفقير من الأرواح تذهب أدراج الرياح كما تذهب أمواج البحار ؟
وهل كان جرای على حق في تفكيره :

كم من جوهرة تمخطف الأبصار بأصفي الأشعة وأبهاها ،
مستكنة في أغوار المحيط المظلمة التي ليس لها قرار ؛

وكم من زهرة استقامت على عودها لتفتتح في الخفاء ،

مضيعة شذاها العطري مع سافيات البیداء .

* * *

ومن يستطيع الشك في هذا؟ ألم يتخلص روبرت بيرنز من الأمية بالصدفة
المجردة؟ ومن ذا الذي لا يتبين عنصر الحظ في حياة شكسبير؟ ألا تشير حياة
ريمبو إلى أنه في استطاعة رجل أن يكون رجلين؟ فالقوم الذين عرفوا مسيو
ريمبو، فقط كرجل للأعمال بأفريقيا الشرقية، لا بد أن تكون الدهشة قد
عقدت ألسنتهم حين علموا أن هذا هو ريمبو، ريمبو العبقرى، ريمبو الذي
كتب شعراً خالداً قبل أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره، ولكنه انصرف عن
الأدب في ازدياد بعد ذلك؛ ماذا حدث لبزالك؟ هنا كان رجل، ظل ما بين
العشرين والتاسعة والعشرين من عمره، يكتب التفاهات دون انقطاع، وبعد
ذلك لم ينتج سوى روائع الأدب. أليس جلياً حتى لمن يدرس تطوره دراسة
عابرة أن عمل عقله السليم عاق في مبدأ الأمر محاكاته لكتاب القصة الإنجليز،
الذين لا تجمعهم به إلا أقل روابط الفكر، ولم يشرع في العمل بحرية إلا حين
معالجته للواقع والقرائن في مجال خبرانه الخاصة؟ كيف يستطيع مؤرخ الفن
أو الأدب تعليل النمو العجيب لحقب تاريخية مثل عصر بركليس أو القرن
الثالث عشر بدون ظروف محمودة استثنائية تمنع تبديد الموهبة وضياعها هباء؟
مثل هذه العهود تقوم شهادة على وجود، لا القدرات الفائقة حدود البشر في
مئات قليلة من الأفراد، بل على توافر المناخ السعيد الذي يساعد على نمو الكثيرين؛
والأعمال المجهولة المؤلف في القرون الوسطى تقوم دليلاً آخر على انتشار المواهب

في تلك العهود المحدودة الحظ ، ويظن أن للروسيين قدرات نادرة على تحصيل اللغات . ألا يكون من الأفضل القول بأن معظم الشعوب ينظرون إلى تحصيل اللغات بفزع يشل إمكانيات الفرد ؟ لقد رأيت على الأقل اثنين من الفرنسيين ، المولودين بروسيا ، يبديان مخايل هذه النجاة الروسية المزعومة في تحصيل اللغات ، ولن تغمر الدهشة أي إنجليزي ، لم يوفق قط في تحصيل أكثر من مائة كلمة باللغة الهندوستانية، حين يرى أطفاله يلتقطون ثلاث أو أربع لهجات هندوسية في أسواق رانجون. هي ظروفًا موالية معينة ، وأنت حري عندئذ أن تنتج فن التفكير . والمشكلة هي كيف نهي تلك الظروف المواتية، ولكنها ليست بأي حال مشكلة تثبط العزيمة .

الباب الثاني

معتقدات الفكر

عجالة تمهيدية

واضح أن المعوق الرئيسي للتفكير هو البلاهة ، أو بتعبير آخر ، عجز خلقى عن التفكير منذ الولادة ؛ ومهما كانت الأحوال فلن نعالج في الصفحات التالية أية حالة مرضية شاذة ، ومعظم الناس الذين يلجئون للتحليل النفسى ، فى إيمان واطمئنان كامل مؤملين بتحسين أنفسهم ، ينفرون من الواقع وهو أن جميع أفراد مدرسة فرويد لا يبدوون فعلاً أى اهتمام إلا بالحالات الطبية ، والرجل الذى ليس لديه ما يبرر الشك بأنه سوى ، ولكنه يشعر ، ككل واحد منا ، بتلك المخاوف الوهمية التى جرى العرف الآن بتسميتها عقد النقص ، ويريد التخلص منها ، ينصرف متفرزاً عن الإيضاحات الطبية المليئة بخبرة المستشفى ، وهذا الكتاب موضوع للعقل ، ذى المستوى العادى ، البعيد عن العبقرية التى لا تعرف المعوقات ، وعن البلاهة التى تعتبر كل شىء من المعوقات ، وهو يفترض مسبقاً أن ضروب الحياة السوية تتهيأ لها الفرص العادية ، ولا تلاقى إلا الصعاب العادية .

وعلى هذا النمط ، فلن يوجه أى اهتمام إلى العلة الرئيسية فى الأخطاء البشرية ، وهى : « السوء العاطفية » وبدول أول وهلة أنه من غير المنطقى

أن نضع جانباً حب الذات والتعامل والضروب العديدة من الحب والبغض
التي تمنعنا من رؤية حتى الحقائق كما هي ، أو أن نستنتج منها نتائجها الطبيعية،
بيد أن موضوع هذا الكتاب هو إنتاج الفكر وليس إرشاده . وكل
فصل من هذا الكتاب يفترض أصلاً أننا أمناء في رغبتنا لإنتاج تفكير خالص
من كل الشوائب .

الفصل الخامس

الانحصار الفكري أو عقد النقص

إننا جميعاً نعرفها ، فكلمنا نشعر بحالة مزدوجة في العقل ، نرى خلالها ، خلف شيء ساحر ، شبحاً مهدداً أو مثبطاً للعزم ، يعمل جاهداً للقضاء على الأثر الصحي الحميد الذي نتمنى ألا نفقده ، فعلى سبيل المثال قد نجد شخصاً نعرفه منهمكاً في حديث بالفرنسية مع أجنبي ، ما أروع الفرنسية الواضحة الجيدة التنغيم ! وما أشد الانسياب الذي يغدقه على اللغة ذلك السلطان غير المقيد لحرف (E) الصامت ، وذلك التلطف غير المكترث لأصوات حرف (N) عجباً ، تلك الفتاة تتحدث كما لو كانت فرنسية ! ما كنت أعرف عنها ذلك ، فليس ثمة أثر لعناء أو جهد يبدو من جانبها ، وهذا الفرنسي لا يبدو عليه أنه شاعر بأنه يتحدث إلى أجنبية ؛ حقاً إن هذا عجيب ؛ يالشد حماقتي إذ انصرفت عن اللغة الفرنسية ! ما زلت أطلعها دون كثير من العناء حين أضطر لذلك ، ولكن ليس في كثير من الأحيان ، وإني لأعلم أنني إذا انسقت للحديث فسأكون مبعثاً للسخرية ؛ حقاً لا بد أن أفعل شيئاً ، وسأبدأ هذا المساء بالذات ، وقد اعتادت مدرستنا الفرنسية القول بأننا لو حفظنا عشر كلمات كل يوم ، وهذا ليس جدياً ، لقارب

محولنا من اللغة أربعة آلاف كلمة في العام ، وهذا يبدو كبيراً ، لم لا أفعل هذا؟
بالتأكيد سأفعل ؛ وبعد عام ونصف سأذهب إلى تور أو جرينوبل لأتمرن على
استخدام أربعة أو خمسة آلاف الكلمات التي حصلتها مع الفرنسيين المنسجمين؛
وهذا حقاً حري بأن يزاوله المرء بدلا من مشاهدة المسرحيات السخيفة .

وفي العاشرة مساء ، تزدهم على المنضدة مراجع لغوية فرنسية ، وموسوعات
رهيبة المنظر وهي مجلدات تبدو كثيبة خالية من السحر الذي سبق أن أغدقته
تلك المحادثة الشيقة ؛ وهذه المراجع تبدو بعيدة عن كل ألوان الفتنة ، ولكن
لا مناص من دراسة قواعد اللغة وازدرادها بأفعالها ومشتقاتها جميعاً ؛ ها هي
ذى التصريفات الأربعة للأفعال، لم تنقص واحدة منها عن آخر مرة فتح فيها
الكتاب ، وما زالت كما كانت مجردة من الرحمة (تدخل أشباح كثيبة كأشباح
الموتى) لا شك أن ذوى الذاكرة القوية الحادة يستطيعون حفظ هذه الأفعال ،
أما أنا فذا كرتى ضعيفة ؛ عشر كلمات كل يوم ليست شيئاً ، هذا ما اعتادت
المدرسة قوله ؛ فلماذا إذن لم تحفظها أية فتاة آنذاك ، أو أخذت في حفظها بعد
ذلك ؟ لقد خيل إلى الجميع أنها ستفعل ولكن الواقع أنه ما من أحد فعل ذلك ؛
لست من المثابرين ؛ لست كفلان وفلان ؛ تعوزنى المثابرة ؛ لذلك لا جدوى
من المحاولة ، وأيضاً أمن الضرورى أن أعرف الفرنسية ؟ كل شيء تتم ترجمته ،
وعند مقدم الفرنسيين سوريل وجويتري تستطيع دائماً الحدس قليلا وادعاء
المعرفة قليلا ، ومادام الجميع يفعلون هذا وما دمت أفعله ، وإن عرفت الفرنسية ، فلن
يصدق أحد أننى أعرفها ، فالأمر إذن سيات ، وبعد كل هذا فهناك أشياء أخرى
نافعة بجانب الفرنسية ؛ فمذ أيام ذكر ذلك المحاضر بحق أننا لا نكف عن
التحدث عن شكسبير ، ولكننا نطالعه بقدر ما نطالع الكتاب المقدس ؛

فصل واحد كل مساء وأنهى منه خلال خمسة أو ستة شهور ؛ سأتم قراءة هذا الكتاب الممتع التافه ، ولكنى سأشرع ، عقب ذلك مباشرة في مطالعة « تيطس أندرونيكس » .

« ذاكرتى ضعيفة تعوزنى المثابرة ما جدوى ذلك ؟
فلان وفلان يستطيعان هذا ولكنى لا أستطيع » كل هذه الهواتف الصغيرة المثبطة للعزم هى ما اعتادت شخوص قصص الأنسة أوستن أن تسميها « هواجس الاكتئاب » وهى ليست أفكاراً سوداء بل زرقاء قائمة ، كما أنها ليست بالضبط انحصارات ، ولكنها معوقات طفيلية ، تندفع برمتها لتهاجم أى عمل إرادى ناشئ محاولة تحطيمه والقضاء عليه ؛ فإذا انبرى للقتال متثاقلاً لرغبته فى أن يصبح عزماً وطيداً كرت الأشباح المعادية راجعة وقد ازداد عددها سبعة أضعاف وراحت تجدد هجماتها حتى ترسخ دعامة عقدة النقص :
« لا أستطيع أن أفعله ، لا يمكن فعله ! » .

وإذا انسقنا قليلاً فى غمرة من الاستكناه الذاتى وجدنا عقاننا مأهولاً بانحصارات فارغة تزيد فى عددها على الأفكار ، وأن وجودها هو ، إلى حد كبير ، العلة فى عجزنا .

وليست عقد النقص دائماً غراس وجود أشباح كتلك التى ذكرتها الآن ؛ ويكفى أن يبرز غرض أو رغبة ، غريبة عن الفكر أو احتمال لفكر نتبعه ، حتى تتعطل عملية التفكير المثمر ؛ وكثيرون من الناس يعيشون حياتهم اليومية متفهمين شخصيات غير شخصياتهم ولذلك فإن عمل عقولهم يفسده الجهد الدائم ويبعده عن الطريق السوى ؛ وقليلون جداً هم الإنجليز الذين ، بعد تشذيب

لحاهم في هيئة إدوارد السابع وجورج الخامس، لم يعودوا بعد ذلك قط لما كانوا عليه، فأفكارهم وألفاظهم وأفعالهم أرخت عليهم صورة الممثلين؛ وقد اعتدت وأنا في باريس أن أقابل رجلاً يشبه ألفريد دي ميسيه شها عجبياً، ولكنه لم يكن للأسف الشديد ألفريد دي ميسيه، وإذا كان قد أقنع نفسه بأنه لم يعد ديبو أو ديرا فقد فئت شخصيته تماماً؛ وكثيراً ما يعمد السياسيون إلى القيام بأدوار شخصيات تاريخية، ومن ثمة تصبح عدم أمانتهم التاريخية عشرة أمثال ما كانت عليه؛ أما القوم الذين يبدعون في تحصيل اللغة متوهمين أنهم أجادوها إلى حد يكفي لاستخدامها كما يستخدمها أصحابها، فمن الممكن جداً ضبطهم متلبسين يتمثيل التدفق الإيطالي، أو المرح الفرنسي، أو الاتزان البريطاني، وقليل من الطلاب الذين ارتبطوا تماماً بلغة أجنبية هم الذين تلافوا تلك الظاهرة غير المشرفة، وهم على يقين من أنهم، طوال فترة هذه الظاهرة، لم تكن أفكارهم خالصة تماماً، بل انعكاساً لطراز متخيل إيطالي أو فرنسي أو إنجليزي؛ ولا يستطيع المرء أن يسرف فيما للغة الإنجليزية الأمريكية من تركيب في «أمركة» الأجانب.

والاتصال الاجتماعي باحتياجاته وإشباع رغباته — بنفاقه إذا أردت التسمية الصحيحة — مؤد لعدم الإخلاص المعطل للفكر؛ فكم عدد أولئك الذين يجروون على القول بأنهم لم يطالعوا الكتاب الذي راح أربعة أو خمسة أشخاص في حجرة استقبال يناقشون موضوعه في لغة سائفة غير متحيزة؟ كم عدد أولئك الذين لديهم الشجاعة الكافية فلا ينضمون لزمرة المقرظين حين يقولون «أوه! أجل، إنه كتاب رائع!» وهي عبارة لا تندع أحداً، ولكنها تقوى العادة المهلكة للروح الخاصة بقول شيء ما حين لا يكون لدى

المرء ما يقوله ؛ وثمة طريق شائن آخر يصل بين الخداع والإخلاص يتألف من شراء الكتاب حتى ولو لم يفتح قط ؛ والفحص العرضي لأرفف مكاتب البعض تضفي النور وتكشف الأمور ، فقد تجد كتباً شائعة ، من طبقة معينة ، ما زالت متصلة الأوراق لم تمس ؛ ولست أشك قط في أن نجاح أحد الكتب الفلسفية التي راجت منذ زمن بعيد ، عائد إلى أنه من الصنف الذي لم يمس .

ويقوم بتمثيل المهزلة ذاتها شبان مرد صفار يتسربلون بطيالة قائمة من ادعاء معرفة كل شيء وإتقانه ، فيعمدون إلى محاكاة لهجة التخاطب الخاصة بالعلوم والفنون التي لا يعرفون عنها شيئاً ، وما الذي يسمعه الإنسان في معارض الصور أو بعد حضوره لحفل موسيقي ؟ لا يتورع أقل الناس معرفة بالتصوير والموسيقى عن الخوض في مناقشة أصولهما دون تورع أو حياء !.

إن الرغبة في الظهور ، بدلا من الوجود حقاً ، تستطيع أن تفسد حتى عملية العقل الشرعية الأصيلة ، وفي استطاعتنا أن نفترض مثلاً ، أن رجلين استخدمتا عقليهما ، في عكوف متساو ، لمشكلة أسباب الحرب العظمى ، فإن أراد أحدهما أن يعرض ، في معالجته لهذه المشكلة ، وطنيته أو شعوبيته ، فإنه سينتج فكراً من صنف أدنى من تفكير الرجل الآخر الذي يقتصر هدفه على اكتشاف الحقائق ، وعلّة ذلك أنه في كل خطوة يخطوها إلى الأمام في أثناء بحثه للأمر ، يجد الأول نفسه مستخدماً المعلومات التي حصلها لتوه ، والرؤية ، ككل شبح دخيل ، تضعف لأنها تقسم قوة تفكيره . ومن قبيل ذلك أيضاً استمع لخطاب أو طالع شعراً بقصد حفظه واستذكاره : لاشك في أنك ستحقق قصدك أو بعضه ، بيد أن أثر الخطابة أو سحر الشعر سيتضاءل بسبب مثل هذا الشاغل الخارجي المسبق .

وإذا تجاوزت فكرتان في العقل جنباً إلى جنب ، فإنهما يعطلانه دائماً ،
وإنك لن ترى صورة على حقيقتها إذا كان البعض قد أخبرك من قبل أنها نسخة
منقولة مع أنها في الواقع أصلية ، وفي اللحظة التي تسمع أنها ليست منقولة ،
تعود الصورة إلى ذهنك في جدة نابضة كانت تعوزها منذ لحظات قليلة ، والمقارنة
الوحيدة التي تبدو مناسبة لهذا المقام توضحها دهشتك حين تستكشف أن
ما توهمته شرخاً في زجاج النافذة هو في الواقع حداة كبيرة في الجو : وفعلاً
ترى النقيطة الدقيقة قد كبرت عشرة أمثال عما كانت عليه من قبل ؛ وبالضبط
تستطيع نفس الظاهرة أن تحل في عقولنا ، ويحدث أن نعرف أن أحد الناس
أكبر منا سناً ، وتظل هذه المعرفة سنين كثيرة دون ، تحقيقها ، أو بعبارة
أخرى دون رؤية وجه هذا الشخص ، وفي يوم ما نرى هذا الوجه بغتة ، فنصدم
إذ نجد متفضناً مسناً .

إننا نعيش على الأفكار التي نكونها لأنفسنا ونحيا بها ، رأيت رجلاً
ذكياً ، بل متألّق الفكر أحياناً ، يذبل ويذوى لأنه اعتاد في مبدأ الأمر أن
يدخر كل فكرة بارعة تساوره ، لفرصة أفضل ، وبالتدرّج أصبح يرضن حتى
يأتاج مثل هذه الأفكار ، كما قد يرضن السمك الرعاش Torpedo fish
عن تفريغ شحنته الكهربية مقتنعاً بأنها لا بد ستصيبه بالإعياء ، وكان تسجيله
لكل عملية عقلية يشعر بها ، تدخلاً في سيرتها جميعاً ، حتى حل وقت أصبح
فيه مجرد حطام ، ومن المعروف جيداً أن الإسراف في السير على
نهج واحد منظم يسفر عن آثار متماثلة لأنها تصبح شراً ملازماً للإنسان
كظله . .

* * *

وقد يبدو أنه ينبغي على الكتاب المدربين مهنيا ملاحظة طريقة
سبر عقولهم ، والذين يجد المرء حتما في مخطوطاتهم مادة خصبة لإنشاء فن
للتفكير ، ينبغي عليهم أن يكونوا أكثر الجنس البشري تحمرا من تلك
الأشباح المروعة ؛ ولكن الأمر ليس كذلك ، فمعظم الكتاب ذوي المواهب
الأدبية الحقيقية ، لا يسيطرون على أعصابهم ، أو في كل الأحوال ، ذوو
حساسية فائضة ، تؤثر على أختيهم كل الانطباعات دون قيد ، وكثيراً
ما تكون في قسوة ؛ وكان الخياليون من رجال الأدب والفن يفاخرون بهذه
الحساسية ، ويرهفوننا بإسرافهم في الإشارة إليها ، ولكنها موجودة بذات
الصورة ، حتى في العقول الواضحة العنقوان ؛ والواقع أنها من سمات المهنة
الأدبية وهي قاصرة على الميدان المهني ، وثمة لفيف من رجال الأدب يجدون
راحة لأعصابهم في الرسم ويفعلون هذا دون شعور بمعوقاتهم العادية ؛ ومن
الناحية الأخرى فإن الحرية الطليقة بل الجسورة التي يتميز بها كثيرون من
الفنانين ، حين يلجئون للكتابة ، كثيرا ما تثير حسد إخوانهم ذوي اليول
الأدبية الخالصة .

والكاتب رجل وطلد العزم على أن يعرض حياته الباطنية للفحص العام :
وما لم يشعر بالقوة الكافية لأن يجتاز هذه المحنة فهو عرضة لأن يفكر في إدراك
لهذا التعريض الحتمي لنفسه ، وهذا الإدراك شبح يأتي معه بالضعف والخور ؛
وليس هناك من يعرف جيداً مثل ما يعرف الكاتب بأنه ينبغي عليه ألا يفكر
في شيئين في وقت واحد ، ولكن ليس ثمة من هو أشد ميلا منه لفعل هذا ؛
حتى لقد لاحظ هذه الحقيقة ذلك الجماع المثالي للحقائق المجردة ، بل ذلك
الإهاب المتجسد لفيض المعرفة المسكين « فارو العجوز » وهو يقول فعلا ، بلغة

لا تبنية ناضجة : إن الرجل الذي يحصل لنفسه على المعلومات كي يعيد روايتها على الآخرين ، هو ضحية ، حين يفعل هذا ، لعقدة نقص .

والكاتب محاط بالأشباح على الدوام ؛ وكان « تين » فريسة لرغبة ملحاحة في أن يقع على معادلة أو وصفة تعكس له صور العالم ، حتى شفته دراسة التاريخ من هذا النزوع المتلف ، باستبداله بتلخيص مبسط لما يعلمنا التاريخ من أن المؤلف كان ، في مبدأ الأمر ، مستنكفاً منه ، وثمة شبح ذو قرني هو الخوف من أن يرى المرء وجهاً واحداً من الموضوع الذي يدرسه ؛ وقد اعترف كارليل بأنه عرف هذا الخوف الوهمي وألزم نفسه بأن يقوم بجهد يأس للتغلب عليه ؛ ولا يخاف الكاتب من مجرد نقاط الأدب — فهم ينتسبون إلى مهنته الخاصة وهو متأهب لأن يقاتلهم بكل الأسلحة المهنية بما في ذلك الاحتقار — ولكنه يهرب بسمة القراء الوهميين ، رجالاً أو نساء ، الذين لم يقابلهم قط ويحتمل ألا يكون لهم وجود ، ولكنه يراهم ، بعين عقله ، كتتحقيق لكل ما يتمنى أن يكون من إقتاف موضوعه ، كما لو كانوا من العمالقة ؛ ويزداد الخوف الوهمي سوءاً حين يعرف أن القارئ الصعب المراس له وجود حقيقي ؛ وقد أصبح معظم تلاميذ أنجلييه من الكتاب ، ولست أعرف أحداً منهم لا تفزعه ضروب النقد الأدبي المشر غير الأناني ، الذي يوجهه أستاذهم ، إذ يشعرون بقسوة هذا النقد لأنه يبين في وضوح أمانة قصور نظرة التلميذ الخارجية ، ومع ذلك فأنجلييه نفسه لم يكن عملاقاً كما كان يبدو : ففي اللحظة التي كان يفكر خلالها في مؤلفاته كان يكثر من إظهار القلق بل والاكتئاب محاولاً التعرف إلى أي مدى ارتفع به إلهامه فعلاً ، كان يفكر بغموض وضجر ، لا في كل ما هو بالغ القوة والعظمة فحسب ، بل أيضاً في أقسل الأشياء ذات

الفوارق الطفيفة المبهمة في المعنى وغير المعنى ، خشية أن يتخلف في المرتبة عما شعر أنه قد وصل إليه في أول إنتاج عظيم له « الصديقة المفقودة » غير واثق مما إذا كانت الموضوعات التي جذبته إليها عاجلها وهو في أحسن حالاته ، وخلال سنوات عديدة — إلى أن استرد شطرا من عقيدة والدته الدينية — أودع كل أمله في الخلود على دعامة هزيلة من بقاء بعض قصائده الشعرية في ذاكرة الأجيال المقبلة غير المضمونة .

ولا يستطيع أحد أن يذكر كم من المهن الأدبية الأصيلة قد تعرض للخراب نتيجة للأخذ بفكرة أنه لا جدوى من تكرار ما لا بد أنه قد قيل مرات كثيرة في الماضي ؛ والحق أن رجلا مثل إميل ، أو من قبله ! مثل جوير ودودان ، لم يفلتوا من هذا الشبح إلا بكتابة أشياء خيل إليهم أنها لن يطالها أحد قط سواهم ، وفي المرات القليلة التي كتبوا خلالها للجمهور تجلى الأثر المعرقل فوراً للعيان .

ويمكن ألا تكون ثمة نهاية لقائمة تلك المؤثرات التي تعرقل تفكير رجل موهوب ، بل لا يسعني إلا أن أضيف أن رجلا ، مثل جول ليميتز ، رغم تحرره عن وعى من كل المعوقات يسلم بأن أية محاولة لاستعادة صور الماضي يمكن أن تصبح وهما متسلطاً ، وضحية هذا الوهم يسير مخترقاً باريس القديمة ، بعراقها البهيجة غير المألوفة ، ولكنه لا يرى شيئاً منها ؛ وفي تأثر من هذا الوهم المتسلط ، سيرى جنبا إلى صورة العمال المشتغلين حالياً بتغليف الكتب ولن يرتشفوا نبيذهم الأبيض بعد ظهر يوم دافئ ، صورة العمال الثائرين في « الآلهة ظمأى » وكل من الصورتين تبطل أثر الأخرى فتمتلاشيان من الذاكرة ؛

وكم من فرنسي لم يعد في استطاعته تظ أن يسترد أول أثر خلاب لباريس، عليه
بعد مطالعته أوافات المركبزدى روشجيد Marquis de Rochegude استبدل
هذا بعادة رينان أو سنيو فييرو العقلية في رؤيتهما للماضى كما لو كان هو
الحاضر، ومن تحدثهما عن أسواق المال الرومانية القديمة بمصطلحات وول
ستريت « Wall Street » سوق أمريكا المالى حالياً، وكل شيء سيتكشف
جلىاً في لحظة، وان كنت عندئذ يحنفى ذلك الشيء الذى يبين الفرق بين رجل
المال الرومانى القديم وضريبه فى العصر الحديث، التعويذة المتصلة بالماضى
السحيق .

وعلى الكتابة نفسه منتج للأشباح وذو خطاسر على الإنتاج الشرعى
للذكر؛ وينبغى ألا يكتب أى إنسان مالم يستمتع بالكتابة؛ بيد أن لقيفاً
من الكتاب المحترفين يزيد شعورهم بالجهد على شعورهم بالمتعة؛ ومع ذلك
فالإفصاح عن الذات مهبج لكل إنسان، وكثيراً ما اتضح أنه ضرب فريد من
التخفيف عن النفس وإراحتها، أما العلة فى أنه ليس دائماً كذلك قد يكون عدم
إتقانه للغة المستعملة أو قلة اهتمام بالموضوع المعالج، أو أى من الأسباب المتعددة
التي جاءت بالصفحات السابقة، ولكنها فى الأصل شبح نشأ فى أيام الدراسة،
هو عادة التفكير فى الأوراق الخالية من الكتابة الرابضة تحت الصفحة التي
نقوم بتحريرها، مع نفورنا من عرضها وطولها، وتاهفنا لمعرفة الوسيلة التي
يمكن بها كتابتها برهتها .

ويتوهم بعض الناس أن عليهم أن يضعوا كتاباً، كما كان عليهم، وهم فى
الخامسة عشرة، أف يد بجوا مقالا، سواء صادف هذا هوى من نفوسهم أم

لا ، وطوال الوقت الذي يحررون فيه فصلا من الكتاب ، يذنبى أن يستحوذ على كل انتباههم ، فإنه يساورهم قلق فيما يتعلق بالفصول المقبلة التي لم تحدد معالمها بل ولم ترد على الخاطر بعد ، ومن ثمة يقع ظل القلق على الصفحة الجارى تحريرها ، وما دام المؤلف لا يأخذ بعادة « وضع كتابه إلا بعد إتمامه فى عقله » على حد قول جوهر ، أو أنه لا يستطيع أن يقول بأمانة مثل راسين : « لقد تمت مأساتى ، وما على الآن إلا أن أكتب أبيات الشعر » فسيكون فريسة لغلطة تلميذ المدرسة ، وليس ثمة شيء مثير مثل محاولة تصيد الأفكار والوقائع بقصد توضيح مسألة نطن أنها حيوية لنا ، وأن بهجة الكتابة حين تسفر محاولتنا عن النجاح هى مكافأة فريدة لأمانتنا العقلية ! تخلى فقط عن الحاجة الملحة أو الرغبة البراقة فى وضع كتاب وكل المتعة تذهب مع الريح .

وبعض الناس ، الذين يفكرون فى حرية وبطريقة جذابة عندما يتحدثون ، يبدون وكأنما قد وضعوا عقولهم فى قفص خانق ، حين يشرعون فى الكتابة وقد اعتاد أذكى رجل عرفته فى حياتى وأسرعهم بديهية أن ينتج خطابات فجة مملّة ، يعكف على كتابتها ساعات وساعات ، وثمة زميل سابق لى اقتصرت دراسته وميوله على الأدب فقط ، أبدى على الرغم من ذلك ، اهتماما بالفلسفة ، ودون أن يقرأ لأى فليدسوف راح يتحدث بإفاضة فى المشكلات الأساسية ، بأصالة تثير الدهشة ، وقد اعتاد زميل آخر أن يدعو « روبنصن كروزو الفلسفة » ، وكل مرة كان يضطر فيها هذا العبقرى للكتابة ، تضاعل وتهاوى عائداً إلى حالة العقل التى اعتاد أن يكون بها ، قبل ذلك بأعوام ، حين كان يتقدم لتأدية الامتحانات بالسربون ؛ فأصالته فى الفكر أو التعبير أفرعته ، ونتائج

جهوده ، أو ينبغي أن أقول لعلها عذاباته ، كانت صفحات باردة معقدة ، تعيد إلى الأذهان مقدمات المراجع اللغوية للطلبة .

ومعظم الكتاب عبید لنماذج معينة من التعبير ، ويمكن أن نحذف من ملابين الجمل العبارة الأخيرة المبتدئة بواو العطف، التي قد تكون غير ضرورية : إذ كثيراً ما تكون مجرد تكرار أو تلخيص أضيف فقط لتحسين خاتمة الجملة ويكاد يشبه هذا في الانتشار عادة استعمال ثلاثة أفعال أو ثلاث صفات ، حيث يصح أن يكفي فعل واحد أو صفة واحدة ؛ والكاتب العادي لا يرشده بل يسوقه مرغماً توقيع رخيص متصل به اتصال لاعب النادى بالخطيب قبل القرون الوسطى وهذه الجهود المتعسة من شأنها أن تعوق تفكير المرء .

ولا يستطيع الكتاب الحائزون على قدر أكبر من الموهبة الفنية أن يتخلصوا من الفكرة بأن اللغة التي يستخدمونها أدنى — إلى حد الضياع — عن الأسلوب الأدبي الرفيع للأجيال القديمة ، وتبعاً لذلك فإن ما ينتجونه حري بأن يبدو صورة للانحلال ، غير ذاكرين ملاحظة جوته المدعمة الوجهية بأن « الإنسان الذي يتم عن زمنه هو في الحقيقة تعبير عن كل الأزمان » وهذه الفكرة قيمة بأن تفتح باب القفص لهم ، ولكنهم يواصلون نطح القضبان برءوسهم .

والكتاب الذين تعوقهم أشد ما يكون التفوق من شواغل الذهن العارضة ، وتفسد عليهم حتى مخايل الإخلاص في بدايتها هم نقاد الفن ، وازن بين كتاب « المحاضرات » مؤلفه رينولد ، أو كتاب راسكين « المصورون المعاصرون » أو كتاب « الموجز الأمين » باللغة الفرنسية مؤلفه دي ميل وبين المقالات عن الفن ، التي

تظهر في معظم الصحف فسرعان ماستحس أن هؤلاء النقاد المزعومين يتظاهرون بأنهم يعرفون ما يكتبون عنه ، ويكتبون عن هذا القدر السلبي في أسلوب تام التكلف ؛ ويشير دهشتي دائماً أن أرى كاتب قصص خيالية أصيل يستعمل في معالجته للصور ، أسلوباً رتيباً ثابتاً لو استعمله كاتب آخر لأثار ازدراءه ، لركا كته وتكلفه ، والسبب هو أن الكاتب القصصي المتحول إلى ناقد للفن لم لم يعد هو نفسه بعد ذلك وإنما أصبح رجلاً آخر ، والوعى المزدوج يشبه محاولة رجل يريد أن يرى شيئين في وقت واحد .

إذن فعقلنا مثل عيننا ، لا بد أن يكون منفرداً ، فالأطفال ، والبسطاء من الناس ، والقوم القديسون ، والفنانون ، وجميع من يستحوذ عليهم هدف متحكم لا يدع مجالاً لشواغل ذهنية دنية ، والمصلحون والرسول ، والزعماء أو الأرسقراطيون من كافة الأنواع ، يخلبون ألبابنا بصراط رؤياهم العقلية المستقيم . وعلى النقيض من ذلك أولئك القوم المتهيبون ، المتخاذلون ، الضعفاء والقوم الذين فطروا على الاسترشاد لا الإرشاد ، والقوم ذوو الحساسية المهتمون بأثر تصرفاتهم على الآخرين المتشككون في عمل قواهم العقلية ولا يكفون عن محاولة التأكد منها ، جميع هؤلاء لهم مقدرة قاصمة على إقحام أفكار دخيلة أو طفيليات عقلية ، تسد في مبدأ الأمر طريقها ولكنها تتحول بالتدريج إلى خوف وهمي ، يعطل رؤياهم ، وفي النهاية يخلف فيهم ذلك الإحساس المزمع بالنقص ، الذي يصفه المصطلح « عقد النقص » بوضوح في كل الأحوال ، للجيل الحاضر ؛ ولو كان فرويد وأدلر لم يفعلوا شيئاً سوى الكشف عن وجود مثل هذه العقد ، وتعميم الاعتقاد بأن في استطاعة المعالجة السالمة حلها ، فإن أثرها ينبغي اعتباره حميداً .

كيف تنشأ الطفيليات العقلية

(١) العاكة والمعاشره

قلت فى الباب الأول من هذا الكتاب إن جمىع الأطفال يتمتعون بضع سنين برؤية مباشرة وانطباعات فورية تظل أشد اللحظات حدة فى حياتهم المقبلة متصلة بها ، ويمكن مقارنة هذا المدخل السحرى للحياة بسحر الفجر فى المدينة الكبيرة، نخلال فترة حاملة قصيرة يتراءى كل شىء نضرا كما لو كان قد برز للوجود لتوه ، ولكن سرعان ما تفسد ثرثرة وصبغ مجرى الحياة المعتادة الرتبية هذه الصورة الأولية الرائعة وتطويها الرتابة المملة ثانية .

والأطفال الصغار يفهمون الرجال والأشياء دون أى وسيط ، ويكون أول انطباعاتهم عنهم قويا إلى حد لا يحتاجون معه للعودة إلى مصدر الانطباع الرئيسى ، ولهذا يقع كثير من الآباء فى الخطأ إذ يرفضون التسليم بما للطفولة من قوة الملاحظة ؛ وحوالى السنة العاشره تصبح الأشياء مختلفة ، فيتعرف الأطفال على المتقدمين عنهم فى السن ويحاكونهم ؛ وفى شهور قليلة ، وأحيانا فى بضعة أسابيع ، تستطيع ملاحظة التغيير : رجل صغير ، امرأة صغيرة ، حركات مسنين ، ضروب سلوكية معينة فى النطق أو التعبير اللفظى ، ظهور اهتمام مزيف بأشياء معينة أو عدم اكتراث متمعد نحو الآخرين ، وقد لا يبدو

التصنع على تعبير الوجه ، ولكنه يكف عن أن يبدو طبيعياً بريئاً ، والغلمان أكثر ميلاً للظهور بمظهر الخشونة والاستهانة بكل شيء - وأحياناً يكونون أسوأ من هذا إذا تصادف وجودهم في بيئة حوشية - أما البنات ، فعلى النقيض من هذا ، فهن يستعدن للذاكرة عروس الثالثة عشرة التي اعتاد القرن السابع عشر على التسليم دون اعتراض بمحيطهن السابق لأعمارهن ورسائلهن البادية التكلفة ؛ وفي حالات كثيرة يعجز الناظر عن أن يلاحظ أى جهد واع من جانب براعم هذا الشباب المتفتح للأمل ، ولكن لا يسعه إلا أن يشعر بانخفاض ملحوظ في الفتنة وعدم التكلفة ؛ فالأفكار المفصح عنها ، والموقف إزاء الحياة بل حتى إزاء الحزن ، خالية من المتعة ، بل خالية من السرور ؛ ومرونة الروح وقدرتها على استرداد سماتها أو فيما اعتادت أن تكون عليه ، فإنك ستجد غلماناً في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهم يقومون ، دون تأثر عاطفي ، بتجربتهم الأولى في المحيط أو في غابات كندا أو في روما أو في مصر ، فهذه الكائنات الصغيرة الفضة برمتها التي كانت حتى عهد حديث جداً مثل سحب الصيف الوليدة الخفيفة ، التي تشعر بكل نسيم وتعكس كل صورة ، أصبحت الآن سلبية تماماً ، وبمرور الأعوام ، ما لم يساعدهم شعور نبيل على الصعود إلى قمة الجبل ثانية ، فإنهم سيزدادون شبهاً بالجاهير أكثر فأكثر ، فيستعيرون من الملايين ، في كسل ، أفكارهم وتصرفاتهم ولغتهم .

ماذا ينبغي عمله ؟ هذه هي المشكلة برمتها ، ذلك لأن أى شيء يستطيع أن ينقذ الطفل من المشاكلة من شأنه أن يجعل كلامنا قادراً على أن ينتج أفكاراً خاصة به ؛ ويلزم تعليم الأطفال ، ولكن بجانب هذا يلزم تركهم ليقوموا بتعليم أنفسهم ؛ وفي أمريكا من العيب أن يميل الآباء بالساقطة ، وأن تزداد المدارس

اتجاهاً ، لمنح الأطفال كل الحرية العقلية التي يستطيعون استخدامها ، فالسلوك الجماعي متأصل تماماً حتى ليستحيل أن يفلت منه إلا العبقرى ، وفي فرنسا بل وفي كل أقطار العالم القديم يطرون المحاكاة مع قدر معين من النفاق : « انظر إلى والدك — تصرف مثل الوالد — فكر في الآخرين لا في نفسك — دعهم يتحدثون ؛ سيحبونك إن فعلت — لا تصرح دائماً بكل ما تفكر فيه ؛ ستؤذى المشاعر ولن يحبك أحد» ولا شك في أن النموذج المقترح للمحاكاة ليس هو السيد لست ولكنه السيد فلنت ؛ ومن المؤكد أن فلنت ليس غيبياً ، فثمة ، لحظة من السخرية ، مخبأة فيه تعود فقط إلى تقدير سليم للبشرية . ولكن من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن لست يرى حقائق من صنف أسمى ؟ .

ولا حاجة للقول بأن معظم الأطفال ، بإعطائهم العالم على ما هو ، قد أشقاهم الحظ في البيئة المحيطة بهم أكثر مما أسعدهم ؛ فحين يكونون فقراء ، ويشعرون برثاءة ملابسهم ، وسوء تنشئتهم ، وبصفة عامة أدنى شأناً من غيرهم ، فإنهم حريون بأن يخضعوا صاغرين للسلوك الجماعي ، دون اعتبار لما قد تكون عقولهم متسمة به من تفوق ؛ وحين يكون لهم آباء أغبياء فأسئلتهم ، إن كشفت عن أية أصالة ، سيساء فهمها وتقابل بالسخرية ؛ كذلك ليس من غير المؤلف أن نسمع أن الدين ، وهو المنبع الأصيل الذي يسمو به الإنسان فوق ذاته ، يستخدمه الكبار كوسيلة لتحطيم الأطفال وإخضاعهم للسلوك الجماعي ، وإذا فطنوا إلى الواقع ، وهو أن المسيح والقديسين لم تتطابق تصرفاتهم تماماً فسرعان ما يساقون لإدراك أن المسيح والقديسين في عالم منفصل ، وأنه ينبغي على الأطفال الصغار الطيبين أن يقتنعوا بتنفيذ ما يطلب منهم عمله ؛ وهكذا فأتحد

ميل الإنسان الفطرية للمحاكاة ، بكراهية الجماهير للتفوق والبروز ، يعمل حتماً على طحن الفكر واستئصاله مخلفاً وراءه جهاز الحاكى البشرى فحسب .

* * *

والمعاشرة غريزة تكاد تكون صنوا للمحاكاة مع ميل لإذكائها ، وهذا لا يبدو جلياً مثل ما يبدو بالولايات المتحدة ؛ ولعل مرجع هذا أن الرواد الأوائل أتوا معهم بسجية التعاون الفطرية عند الجنس الأنجلوسكسونى ولكنهم عجزوا مدة طويلة عن استخدامها بسبب اضطرارهم للحياة فى وحدة نسبية ، ونتيجة لهذا فقدوا الميل مسبقاً لممارستها على أكمل وجه حالما أتت لهم الفرصة ، ومع ذلك فحلفاؤهم أكثر الناس ميلاً للحياة الاجتماعية على وجه الأرض ؛ ويتقابل الفرنسيون فى المدن كما يتقابلون فى القرى ، أيام الآحاد « عقب الانتهاء من صلاة القداس الإلهى » — مصطلح اجتماعى مميز — ولكن بعد تخصيصهم عشر دقائق للأستلة المتممة لفحص العظة الشامل يمدون لمعالجة شئونهم الخاصة ؛ ولا يزهده الأمريكيون قط أحدهم الآخر ؛ فالنادى لا يكفى ولا بد من وجبات منتصف اليوم كملحق له ؛ بالإضافة إلى اجتماعات من كل نوع ؛ كتغيير موظفين أو تدشين هيئات ؛ أو استقبال هذا أو حفل تذكارى لذلك ، أو حفلات دجاج أو ظباء ، ولاداعى لذكر حفلات الموسيقى والمسرح وهى مجرد تكأة لا أكثر ، وإذا لم يتهياً لصديقتك الأمريكية الاجتماعى ما هو أفضل استخدم على أكمل وجه قاعة الانتظار أو « حجرة التدخين » بفندق ، وأكون ناكراً للجميل إذا أنا ازدرت هذه الأخيرة التى أدين لها جزئياً بمعرفة القليل من أخطاء الأمريكى والعديد من سجاياه ، وكلمة « موصل »

Joiner التي لا تشير في إنجلترا إلا إلى النجار ، تعني في أمريكا شيئاً أمريكياً صرفاً كمنطقها الذي يوحى بالتعاطف والتفكك معاً .

ومعروف جيداً أن الديمقراطيات تنتج التماثل الموحد ، وكذلك الحال مع المصغرات الاجتماعية للديمقراطيات ، والإسراف في الفردية يصل في التقدير إلى حد عدم تأدية المهمة ؛ وحين يكون الناس جمعية لحماية المصالح العامة أو رعاية الأذواق السائدة فمن المؤكد أن نرقب تشجيعها للأشياء المتماثلة وترقيتها ، فتبتدع التصرفات ، وتؤكد المواقف ، وتوزع الشعارات التي تضع طابعاً موحداً على الناس الذين لولا هذا لاختلّفوا ، واختلاف الرأي حيث يوجد الكثير مما يمكن ترقيته بالاتحاد فقط يصبح أسوأ من الهرطقة ويستحيل إنجازه عملياً ، ولا تكاد المقاومة العقلية تقل عن ذلك ، والأمواج التي تطغى على الهيئات في أوقات الانفعال الشديد أو الكوارث المدممة تهيئها جميعاً وتطمس بصرها إلا ما كان منها بالغ القوة ، بيد أن التأثير المتواصل غير المرئي للوعي الجماعي يسفر عن النتائج ذاتها ، ولقد استرعى نظري بضع مرات في أمريكا أن وجدت المستوطنين من بنى جلدي يظهرن ضد الزنوج نفس التحامل الذي يملأ الأفق من حولهم والذي لم يكن لديهم أية فكرة عنه قبل هجرتهم ؛ وليس هنا تكلف أو ادعاء ، فالعاشرة في كل درجاتها تجعل التفكير الفردي ، أي التفكير الحقيقي الوحيد ، عقبة كأداء .

وفي الاستطاعة إثبات هذا بتقديم مئات من الأمثلة ، وليس ثمة شاهد على سلطان العاشرة أكثر روعة من الثفاننا لتقسيمات الزمن ، والتقويم الزمني والساعة لها السلطان الأعلى ، فإذا اختفيا انهارت المدنية كما نعرفها ،

ولكنهما وإن كانا يمكناننا من اللحاق بالقطار وتحصيل قيمة قسائم الأسهم والسندات المالية فإننا أيضاً ضحاياهما ؛ وليست فقط الثواني الضئيلة النشطة ، على حد تعبير موباسان ، تفرض كالفأر حياتنا ، ولكن في كل عام ، يقع علينا عيد ميلاد آخر ، كجمود صخر ، بينما تكون فكرة السن ، كتنقيض للشباب ، شبحاً عملاقاً ؛ ويقول أوسكار ويلد إن مأساة السنين من الناس هي في إحساسهم بأنهم شباب ، أعنى أنهم يشعرون حقاً كما قد يشعر الشباب إذا قدر أن جعلتهم تعويذة سحرية يتخيلون أنهم من الشيب ، ولا توجد هنا تعويذة شريرة ، بل فقط ساعات وتقويم زمنية وأعوام ميلادية على كل مستند بشري نمسه ؛ وإذا تيسر محو هذه ، أمكن تغيير الأشياء في الحال ؛ فكر في بسمة زنجية ماريلند العجوز المشرقة التي تسألها بسخف عن سنها ، فهي لاسن لها ؛ ولكن الأمر يكلف رجلاً أبيض جهداً يصل إلى العبقرية للتفكير بمنأى عن سخافات الأعياد السنوية .

وتنتج السخافات كل يوم عن الجهل أو المعرفة الناقصة، وسرعان ما تنشرها الصحافة ؛ ووجودها توازن إيجابي ، فهي تجعل التفكير مستحيلاً حتى تشير الوقائع إلى أن الفكرة المرضية في ظاهرها كانت نتيجة معلومات ناقصة ؛ ويقول الناس إنه لا مناص من نشوب الحروب حين تأسيس عصابة للأمم ، كذلك يقولون إن السلام لا يمكن تعكيره بعد الآن حتى يدفعهم إخفاق مؤتمر لعدم التسلح إلى اتخاذ سياسة أخرى ، فعبارة قصيرة حاسمة من شأنها أن يعتمد لتكرارها قوم يتلهفون لبعض التصنيف في الوقائع التي يشاهدونها ، وفي بضعة أيام قد تحول الصحافة هذه العبارة إلى شعار لفظي يقف وراءه صف كامل من

النتائج العملية ؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يذكر عدد حالات الطلاق التى سببها ذكر عبارة « اقتفاء أثر السعادة » كحق أولى فى كل كتاب مرشد للطفل الأمريكى إلى التاريخ القومى ؟ .

(ب) التربية والتعليم

أليس من المفارقة ، إلى حد فساد الذوق ، أن يتحدث المرء عن التربية والتعليم كمعوق للتفكير بدل أن يكونا عوناً له ؟ ثم أليس الواقع أننا نستطيع التمييز بين رجل متعلم وغيره ، ليس فقط عن طريق سلوكه ولفته ، ولا حتى عن طريق معلوماته ، بل أصلاً عن طريق قدرته على مقاومة فكر رجل آخر ودفاعه عن آرائه الخاصة ؟ أليس صدقاً أننا لا نعجب قط حين نلقى شاباً متألقاً ، ونسمع أنه تلقى تعليمه بإحدى المدارس الإنجليزية العامة العظيمة ، أو إحدى مدارس الليسيه بباريس ، أو بإحدى مدارس (الجننازيم) الألمانية أو البولندية الشهيرة ؟ والواقع أن كل الفلاسفة من أفلاطون إلى هيربرت سبنسر ، تضم فلسفاتهم فداً للتفكير مع بحث فى التربية والتعليم ، وبهذا يتبين أن ثمة ما يجعل أحدهما متعلقاً بالآخر ؛ وقد أنتج هوراس مان وتشانتج فى الولايات المتحدة سلالة هائلة من الناس مقتنعة بأنها تستطيع فقط رفع ديمقراطية بلادها إلى الوعى الصحيح عن طريق التربية والتعليم ، وكلما فكر الإنسان أكثر ازداد تقبله للتفكير ، ولا جدوى من التربية إذا لم تكن هى الإبداع النهجى لعادة التفكير .

وعلى وجه التحديد، فالتربية من الوجهة النظرية هى تدريب عقلى يستهدف

مزيداً من المرونة الذهنية ، بيد أن المشكلة هي ما إذا كانت التربية من شأنها ألا تنهك العقل بدلا من أن تدربه ، وهل الناس بوجه عام راضون عن التربية التي تلقوها هم أنفسهم أو يرونها تعطي لأطفالهم ؟ ألا يشتكون منها طوال الوقت ؟ إنه لما استرعى النظر أن رابليه ومونتاني ولوك وفيلون وروسو ، وكذلك معظم رجال التربية الذين ظهروا في القرن التاسع عشر يقفون ضد المعلمين ، ولعل هذا راجع إلى أن معظم هؤلاء النظريين لم يحصلوا على أية خبرة قط عن هذا الشيء الصلد غير الأليف ، وهو الفصل ، وأنهم يتصورون أن ما هم عليه الآن كانوا عليه فعلا وهم في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، ولكن هذا عائد أصلا إلى أن تفوقهم العقلي يعزو ما يحسونه من ضروب العجز إلى الوسائل الرديئة التي كانوا ضحية لها في طفولتهم ، والمعلمون الذين يسفهون — ولهم كل الحق — المصالحين الذين تستحوذ عليهم فكرة سخيفة بأن الفصل شيء آخر عدا الشخص غير المختبر الذي لم يساس قياده يوافقون ، على الرغم من هذا ، على أن وسائل التعليم القائمة غير جيدة ، وأن محاولاتهم واختباراتهم وإحصاءاتهم التي يستخدمونها لإثبات وجهات نظرهم تملأ مكاتب برمتها ، ومادامت هذه هي الحقيقة فمن الصعب دحض النتيجة بأن التربية ليست هي فن التفكير كما ينبغي أن يكون .

ومع ذلك فالرأي عندنا أنها قد تكون أسوأ من ذلك ، ففي سن المرء حين تكون الانطباعات غائرة كما هي خفية مؤذية ، يمكن أن تنتج التربية غير المربية طفيليات عقلية ، وهذه حرية بأن تسفر بعد حين عن عقد نقص أو — أسوأ من ذلك — تستطيع أن تشوه نظرتنا برمتها إلى الحياة : وللتربية في كل قطر أخطاؤها التي قد تملأ البحوث التي تثيرها مكاتب بأكملها ؛

ولزام علينا أن نضع حدوداً لأنفسنا ؛ ولكن الأمر لا يستلزم وقتاً طويلاً لإظهار أن التربية بالولايات المتحدة مسرفة في إصرارها على أن تكون عمالية لا نظرية ، وأنها تخلف في ذهن التلميذ فكرة بغيضة بأن الثقافة إنما هي ضرب من النفع أو لون من التسلية للقلة من الناس ؛ في حين أن التربية في فرنسا هي نقيض ذلك وهي ترقى بالثقافة فوق العمل إلى ارتفاع تبدو معه متع العقل الجردة أكثر أهمية ، إلى حد بالغ ، من الواجبات العملية للحياة ، وفي الحالين تشتت القدرة على التفكير السليم ، وقد يصبح من الضروري قضاء عمره بأكمله لتصحيح هذا الخطأ الأولي .

وما زالت التربية في أمريكا على نطاق واسع ضرباً من تربية الرواد أو أبناء الرواد ، وقد يثير هذا التأكيد دهشة من يعيشون بمدن أمريكا العملاقة ولكن ، حتى هناك ، لا يزال في الإمكان العثور على آثار لطرق الرواد أو آراء الرواد ، فالطريقة العشوائية التي تستخدم للتعريف بأسماء الشوارع أو أرقام المنازل أحياناً باستخدام عارضة خشبية أنقذت من حطام سفينة ما ، دليل واضح على بقاء هذه الروح ، ومن هذا القبيل أيضاً صناديق البريد الفريدة القائمة فوق أعواد بأعظم الأقسام رقيقاً في لونغ أيلند المسرفة في مدينتها ، ونيس لدى أي شك بأن الفكرة المنتشرة في الولايات المتحدة ، والتي تعجب بالنتائج ، عن ندوة النساء ، إنما هي من مخلفات تلك الأيام الخوالي حين كانت النساء نادرات حقاً وحين كان المهاجر الذي يحصل على زوجة تنتفخ أوداجه مفاخراً كشاب من قدامى الرومانيين عائداً إلى الوطن ومعه فتاة من شعب السابين .

وغالباً ما تكون المدارس الأمريكية في الريف ، لأن الحياة الأمريكية

البداية كانت حياة ريفية وكان المهاجرون الأوائل قد رأوا المدارس في الوطن
مقامة في مدن صغيرة أو في أقسام بالضواحي الطائفة مثل وستمنستر ، وهي
مدارس قصد منها أقصى التفوق في تنشئة القوة البدنية ، وصنوها الروحي ،
قوة الإرادة ، وحيث اعتاد الأسلاف قطع الأشجار بالأماكن القريبة من
الهنود الخطرين ، وعين كل منهم على بندقية الصيد المعدة دائماً للانطلاق ،
يقوم الآن غلمان جروتون والقديس مرقس والقديس بولس بتنشئة أبدان
رائعة ، وقدرة على الدفاع عن أنفسهم ، ونزوع لحياة المعسكرات الطائفة ،
وروح مستقلة تذكها غريزة التعاون دون أن تقلل من شأنها ، وما زالت
الألعاب الرياضية ، وستظل كذلك صراحة ، القسم الأساسي من الحياة
المدرسية ، وإن أنس لن أنسى أنني حين تقديمي لأول مرة إلى إحدى المؤسسات
الآنفة الذكر ، سرعان ما أخذوني إلى قطر حيث تستقر في داخله كرات
« بيسبول » فخمة فوق حلقات من الفضة وجعلوني أؤدى في احترام شعائر
ولأني الجاهل لهذه الأصنام المعبودة : وأنباء المدارس في أمريكا هي أنباء
الرياضة ، ومن المؤكد أن « نوتردام » كلية كاثوليكية ، ولكنها معقل
لكرة القدم أكثر مما هي كذلك .

ومن المؤكد أن اللياقة البدنية هي ، بقدر ما ، فن من الفنون ؛ وكثيرا
ما تزيد النساء قيمة هذا الفن برشاقتهن ، وحين يفعلن هذا فإنهن يحصلن على
نتيجة فنية حتى ولو كن جاهلات مثل أميرات القرن السابع عشر
السكسونيات ؛ ولكن لياقة الأبدان ليست ثقافة ، والشكايات التي نسمعها
دائما في أمريكا عن التربية والتعليم تبرز من استحالة التوفيق بين السرف في
اللياقة البدنية وبين الثقافة ، وكثيرا ما يوجه إلى الناس هذا السؤال : « لماذا

يبدو على شبابكم أنه متقدم كثيرا في المعرفة عن شبابنا ، وأن استخدامه لهذه المعرفة في حديثه أشد أثراً وأوفر جدوى ؟ » وتغمرني الدهشة دائماً حين أراهم يحملون استغراباً وأنا أجيبهم قائلاً : « لأن الحياة المدرسية في فرنسا معناها النهوض من الفراش في الخامسة صباحاً والدراسة حتى الثامنة مساءً مع ساعتين في غضون ذلك للاستجمام والراحة ، لأن كلمة « شغل » في الفرنسية Travailler معناها « دراسة » في حين أن كلمة « شغل » في الإنجليزية To Work تستخدم للدلالة على الشغل بلعب كرة القدم أو على صفحة النهر ، فغلماننا لهم جباه عريضة ولكن صدورهم هزيلة ، أما غلمانكم فلهم مناكب عريضة ولكن أحاديثهم صبيانية » — « أليس هناك حل وسط للعمل ؟ » — « أجل ، ستجده وستجد الوفير منه ، في مميث ، أو فاسار ، أو برين مور ، أو بمعهد تيليم العالی في برنستون » — « آه ! إنك ترفع من شأننا حين تقول إن غلمانكم لهم صدور مهزولة . آه ! » — « بلى ، حتى يخدمون عاماً أو عامين بفرقة عسكرية ، إننا نحب أن نراهم هناك ، ليس فقط لأنهم يحافظون على الروح العسكرية القومية والتعطش للدماء بل أيضاً لأن الجيش يتيح لهم فرصة تعريض مناكبهم » .

وإن سيادة الرياضة البدنية وعلتها في المدارس والحياة العامة والصحافة لا تؤدي فحسب إلى استبعاد ما هو أهم أو ما ينبغي أن يكون كذلك ، ولكنه يخاق جوا تبدو فيه هذه الأشياء الهامة تافهة ، أو حتى توصف بلغة سوقية بالغة التحقير ؛ أما ما يبدو هاماً فهو حياة المهرج والمرج ، مع نشوة تشديد الهجوم على الآخرين أو عكس ذلك ، وقهر أحد أو شيء خلال هذا الهجوم ، وكل هذا ، داخل حدوده ؛ طريقة بارعة للنظر إلى الحياة ، ولكنه ليس ثقافة ،

ومرة سأل أنجلييه طالبا عن المآسى المسرحية التي يفضلها : أهي تلك التي كتبها راسين أو التي كتبها فكتور هيجو ؟ فكان الرد : « مآسى هيجو ، فهي تعج بحياة أوفر » فراح أنجلييه يفكر في نفسه متمتما « بل تعج بصراع أوفر » — وإمعان الفكر ، وهو أرفع أشكال الحياة ، لا يتفق مع الصراع إلا في معنى بيولوجي عميق يبلغ من التعقيد حدا لا يتناوله هذا الكتاب العلمي ، والحقيقة العارية هي أن الصبي الذي يظهر أكبر قدر من النشاط والأصالة بميدان اللعب ليس هو دائما بأى حال من الأحوال الشخص الذي يوجه أذكي الأسئلة ، وهو في الغالب لا يوجه أسئلة على الإطلاق ، وموقفه هو : « قل لنا » وهو الموقف الذي اعتادت مدام دي منتنو أن تسنده في احتقار لفتيات سان سير والذي أخبرني بعض أساتذة الكليات الأمريكية أنه من المحتمل إعادة ترجمته ، في لغة إنجليزية قاصرة على الكليات الأمريكية ، إلى هذه العبارة العادية : « مهمتك أن تقول لنا » .

والمدرسة مكان عليك اجتيازه قبل دخولك الحياة ولكن التعليم فيها لا يؤهلك للحياة ، وما نسميه بالثقافة عرضة لأن ننظر إليه ، في مثل هذه البيئة على أنه ضرب من التخصص وليس من مستلزمات الحياة التي لا غنى عنها بأى حال من الأحوال ، وقد تكون المعرفة المتحصلة لونا من الرياضيات ، وهذا ما يعال الواقع وهو أن الأمريكيين بصفة عامة ، وهم لا يطبقون تفوق الأجانب عليهم في أى شيء آخر ، لا يهتمون قط بهزيمتهم في ميدان الفكر أو الفنون فمن ذا الذي يقلقه أن يكون جاره أفضل منه في وزنه للكواكب ؟ ويمكن قياس المدى الذي يصل إليه عدم الاكتراث هذا مما هو حادث في الصحف الأمريكية فايس ثمة واحدة منها على الإطلاق تنبئ قراءها عما إذا كانت

الخطابة التي تسوقها غثة أو سمينة ، ففن الخطابة حقيقة منفردة والملايين لا تهتم إلا بالحقائق ، وعلى الرغم من هذا فالأمريكيون يحبون الفصاحة .

لطالما سلّيت نفسي بأن تخيلت ظهور شيشيرون فجأة في أمريكا، وتحدثه في فندق بلتيمور ، مع اثنين من الصحفيين ، أحدهما فرنسي أو بريطاني ، تغمره ذكرياته المدرسية وتستبد به نشوة الانفعال ، لمجرد تفكيره في رؤية «الخطيب المصقع» ، والآخر أمريكي ، راح يعد أسئلة تتعلق بمنع المسكرات وتحضير الأرواح ، وتحيّره حقاً فكرة ما إذا كان نهر «الإله أخيلوس» يمكن الآن أن تجتازه القوارب البخارية ، وما إذا كانت حقول «إليزيا» الأسطورية مسجّاة جيداً بقضبان حديدية متقاطعة .

والخلاصة أن فكرة الثقافة في العقل الأمريكي كثيراً ما يطمسها شبح انعدام الفائدة . والتفكير مع مثل هذه العقبة المعوقة ، صعب دون شك .

أهكذا هو الحال دائماً؟ أهذا جزء من أسلوب السلوك الأمريكي الخاص الذي لا يمكن تعديله؟ إن أي شخص رجع إلى ملفات الصحف والمجلات الأمريكية الأولى لا يتردد في الإجابة عن هذا السؤال بالنفي ، والناس لا تكف عن القول بأن أمريكا شعب حديث السن أو شعب من الشباب ، وقد اعتدت أن أكون على حذر إزاء هذه العبارة التقليدية فقد لا تكون ، على ما أظن ، سوى غطاء يمكن بسطه ليغطي جميع الصناديق ، وشيئاً فشيئاً انتهيت إلى الرأي بأنها صحيحة إلى حد كبير ، ولكنها صحيحة فقط فيما يتعلق بأمريكا الحديثة ، أما أمريكا الأولى فلم تكن حديثة السن بل

تامة النضوج ، ولم يكن أى رجل ممن رفعوا إعلان الاستقلال ليدخل فى روع
أى عضو من أعضاء البرلمان الإنجليزى بأنه لم يبلغ من السن أرشده ، فالعكس
كان هو الواقع المحتمل ، ولكن لا يسع أى واحد من أولئك الرجال أن
يظهر فى ساحة أية مدرسة لخلفائهم فى بنسلفانيا أو فرجينيا أو ماريلند دون أن
يهز كتفيه إزاء الجد الذى يظهرونه الآن نحو اللعب الجرد ، وقد عادت أمريكا
شابة خلال الشطر الأخير من مجرى حياتها ، ولكن هذه «الأمريكا» الشابة شىء
مختلف عن الولايات المتحدة ذات التاريخ المجيد، والخاصة الأمريكين يدركون
هذا ويمحز الأسى فى نفوسهم . وإن الجهود الخارق فى سبيل نشر التعليم الذى
يراه المرء فى أمريكا حينما أقبل أو أدبر ، إنما هو رد الفعل الحيوى لمجتمع يشعر
بأنه مهدد فى عناصر وجوده؛ ولكن مقاومة الجماهير غير الحصيفة بالغة السرف
ومطالب هذه الجماهير ما زالت تشكل وسائل التربية والتعليم بدلا من أن
تكون هذه الوسائل سبباً فى تشكيل الجماهير ؛ وليس ثمة أى قدر من الاختبار
أو المحاولة أو وضع النظريات يستطيع أن يغير هذا الوضع المجاف تماماً للفكر
السليم ؛ فالجماهير تريد وسائل ميسرة ، وهكذا باتت الوسائل ميسرة ، وهى
تريد نتائج عملية فورية ، والاتجاه العملى أول ما يؤخذ بعين الاعتبار .

وتبدو الوسائل الميسرة كما لو كانت عقيدة لا تحتل الجدل عند المتأمركين؛
فالميسرة أو السهلة هى الكلمة التى يسمعونها المرء كل حين فيما له علاقة بفن
التعليم ؛ ولقد وضعت ، منذ سنوات قليلة ، كتاباً مدرسياً نشر فى نيويورك
بعنوان « جعل قواعد اللغة الفرنسية واضحة » وقد سمعت هذا العنوان ينطق
خطأ ، عشرات المرات ، على أنه : « جعل قواعد اللغة الفرنسية سهلة » .

وليس في الاستطاعة جعل قواعد اللغة الفرنسية سهلة ، ولا قواعد اللغة اللاتينية ؛ إنما في الاستطاعة ، بل ومن الواجب ، جعل قواعد كل منهما واضحة وممتعة ، ولكن ليس ثمة محاولة ما لتوضيحها بأى ضرب من الصور تستطيع أن تزيل بطريقة سحرية أواخر الكلمات أو تصاريف الأفعال ؛ وأفضل توجيه نفسى هو إقناع التلميذ بأن المثات والآلاف من الناس غير المفردى الذكاء قبله قد قهروا تلك البدايات الجافة بالمثابرة فحسب ، والواقع أن صغار القرويين الذين يقوم بتدريبهم للوظائف الكهنوتية قساوسة ريفيون بسطاء ، لا يحملون قط أن يسموا أنفسهم دارسين ، يتقنون دائماً دراسة تراكيب اللاتينية في ثلاثة أو أربعة شهور ؛ وقد شاهدت ، أكثر من مرة القسيس المجاور يأتى صدفة خلال الدرس ، ويروح يتلاعب بدارس اللاتينية الصغير كما يتلاعب ساحر التويلرى بطيور الخطاف ؛ وقلما تفوت الشاب المحمر الوجه كسرة واحدة من حالات الصفة أو أزمنة الفعل التى يقذف بها فى خبث ؛ ولم تغرس فيه أية عقدة نقص فيما يتعلق بالألفاظ المجردة ، فهو لا يفكر فى المقاطع التى تصادف أواخر الألفاظ كشيء صعب أو كشيء سهل ، بل كشيء على كل إنسان أن يتعلمه وهو فعلاً يتعلمه .

ومن ناحية أخرى طالع الإرشادات التى أصدرها مجلس التربية والتعليم بنيويورك فيما يتعلق بتعليم مبادئ اللغة اللاتينية ، فالشخص الذى وضعها واضح تماماً أنه أسير الفكرة بأن كل شخص ملزم بأن يسوى فى تفكيره بين التراكيب اللاتينية والحروف الأشورية القديمة من حيث انعدام التشويق ، وأن كل ما يمكن عمله هو أن يأخذ الموضوع ميسراً ، بمعنى أن يأخذه على دفعات صغيرة جداً ، فيفترضون أن بضعة شهور تلزم لأن يتقن الطالب المقاطع الثلاثة

الأولى التي تضاف لأواخر الألفاظ ، ثم يمنح الطالب فترة راحة طويلة كما لو كان يعد لجولة ذهنية أخرى أشد سوءا ، وبعد ذلك يعالج الطالب المقطعين الأخيرين ، أو بعبارة أدق ، يلهو الطالب بهما .

فما هي الدعامة الأولية النفسية التي يحتمل أن تخلقها هذه الوسيلة التي يعوزها النشاط والتشويق ؟ جلي أنها ستسفر عن فكرة أن مقاطع أواخر الكلمات اللاتينية إنما هي ضرب من الجثام ولكن المقطعين الأخيرين أشد هولاً من المقاطع الثلاثة الأخرى ؛ أما الذي حدث معي فهو أن معلمنا ، الذي لم يكن لديه فكرة ما عن أية إرشادات لكنه كان ذا خبرة وفطرة سليمة ، قال لنا في ثقة مطمئنة تامة : « إذا كان المقطعان الأخيران هما البساطة بعينها ، فإنكم ستدرسون في المرة التالية هذين الاثنين معاً بدلا من واحد فقط » وكانت النتيجة أنه لم يعد أحد ، حتى ولا بطيئو الفهم من التلاميذ ، يتهيب من دراسة مقاطع اللغة اللاتينية ؛ سل معظم الأولاد والبنات الذين درسوا منهاجا في اللغات القديمة ، وستجد أن تراكيب اللاتينية غامضة في أذهانهم مثلها مثل اللغة اليونانية في سوء تعليمها بأوربا ؛ ويذكر القوم في أمريكا أنهم درسوا كتابا أو كتابين لقيصر ، وكتابا أو كتابين لفيرجيل ، وخطبة أو خطبتين لشيشيرون ، ولكن فكرتهم عن اللاتينية كلغة أنها ترف جامعي ، كما تبدو اللغة السنسكريتية لمعظم الناس ، بمعنى أنها شيء ليس من المتوقع أن تلم به ؛ ولشد ما كانت دهشتي حين رأيت شاعراً أمريكياً ممن يبدو غير قليل من دعوى المعرفة والرسوخ في العلم ، يضع لإحدى قصائده هذا العنوان « Pueribus » وهذه هي النتائج التي يسفر عنها جعل اللغة اللاتينية سهلة .

والنتيجة الحقيقية هي أن أربع أو خمس أو ست سنوات من هذه الدراسة المزعومة لا تخلف سوى الأثر بأنه « لا أحد يعرف اللاتينية ؛ لا أحد يستطيع معرفتها » ؛ وثمة نتيجة أخرى أعمق وأشد خطورة هي أنه من السخف أن يقضى المرء أى وقت فى مثل هذه المهمة المدمومة الرجاء ، ولا شك أن فى إرغام شباب المواطنين الأمريكين على دراسة رتيبة بالية لا جدوى منها على الإطلاق أمر يدعو للسخرية والرثاء بل أمر يعوزه الخلق القويم ؛ حاول أن تلعب دور ساحر التويلرى مع واحد من صبية المدارس هؤلاء ، فسيطالعك قدر كبير من السأم أو عدم التصديق فيما يفصحون عنه ، فهناك إما أن تجد عقدة نقص رابضة تنفث سمومها ، وإما أن تكون قد ركبتها خارجا ، مع الحكمة العتيقة ، قدم بربرى شاب يرفض أن يكون أضحوكة للآخرين .

وتلحق النزعة النفعية فى التربية والتعليم بالثقافة من الأذى قدر ما تلحقه تلك الوسائل السهامة المزعومة بالدراسة ؛ وإن إثارة الفروع العلمية التى يمكن تحويلها إلى مستند مالى معجل هو بالتأكيد ظاهرة لهذه الروح النفعية ، ومثل هذا تلك الطريقة العملية المجردة لتعالم اللغات الحديثة المنتشرة بمعظم المدارس ، وكذلك انعدام كل ضروب التعليم الفاسف بالمدارس العليا .

ولكن يزيد على هذا إثارة تلك الطريقة التى تتحول بها الجهود الأدبية الواضحة التجرد إلى انتفاع خالص ؛ ولشدهما هزنى ما وقفت عليه ، خلال المرات القليلة الأولى التى أطلعونى فيها على صحيفة مدرسية ، إذ علمت أن لفيفاً من الصبيان يرأسهم محرر صبي ، يعود إليهم الفضل فيما تقدمه الصحيفة من إنتاج ممتاز نسبياً ، ولم أتحقق إلا تدريجياً — على الرغم من قصائد الشعر التى

ينتجها غلمان وبنات الأنجلوسكسون بسهولة أوفر من الطلبة الفرنسيين — بأنه لم يكن هنا تدريب أدبي بل تدريب صحفي؛ فالصحيفة المدرسية صحيفة جيدة، بيد أن هذا ثناء ملعون، ذلك لأن الصحيفة الجيدة لا تكون ذات طابع أدبي، أما الصحيفة المدرسية فينبغي أن تكون في الذروة من ذلك؛ وينبغي أن يحتفظ المحرر في ذهنه بأديسون أو كويت أو برناردشو حين يقدم على تحرير مقال ما؛ بل الواقع أنه لا يفكر فيمن يحاكون مستر منكن: فالصحيفة المحلية الصغيرة هي حد الامتياز عنده؛ ولو نسج المحرر على منوال أديسون لأسفرت المحاكاة عن نتائج يرثى لها ولكنها أدبية؛ أما والحال كما هو، فإن النتائج ليست أدباً حتى وإن بدت مقبولة.

ويمكن أن يقال نفس الشيء عن القصص القصيرة، أو المسرحيات ذات الفصل الواحد أو السيناريو، مما تنتجه مدارس القصص الدرامي أو الخيالي بكثير من الكليات الأمريكية؛ فالتعليم من الدرجة الأولى، والوسائل أكثر تأصلاً وشمولاً من تلك الوسائل المستعملة في المناهج الأدبية المحضة، والرغبة في النجاح والسعي في سبيله لا يمكن نكرانهما؛ فما هي النتائج؟ لامراء أنها أعلى، في براعة الصنعة، من «مرتفعات وذرنج» على سبيل المثال؛ وإنك لتنبهر بل وقد تتخاذل إزاء الإيجاز الحاسم والسرعة والموازنة، وفي الوقت المناسب تكتشف أن هذه الصفات هي من لوازم بل حتى من ابتداء رغبة حارة في إنتاج سلعة «رائجة» وعندئذ تدرك علة تضاول الحق المزعوم في اعتبار هذه القصص الممتازة في صنعتها ضرباً من الأدب كلما ازداد اطلاعك عليها، فالأدب ليس بارعاً بهذا المقدار، فهو يصارع الحياة، وغالباً ما يقهر، ولكن الصراع ينتزع تبجيلنا ويشعر بهذا كل من حصل على تعليم أدبي؛ أما إذا تحول التعليم

إلى العدو وراح يسوق الوسائل التجارية ويحشو بها العقول فإنها ، حتى ولو كان أصحابها من النخبة الممتازة ، ستستبد بهم طفيليات النفعية بأى ثمن، ومن ثمة تتبدد قدرة التفكير في مصطلحات الجمال .

ويغادر الغلام الأمريكي المدرسة بفكرة ، تتفاوت شدة أضعفا من حيث رسوخها ، بأن ما يدعى ثقافة إنما هو ترف ، أو بتعبير آخر، نافلة من النوافل، فهو لم يتعلم أن ينظر إلى اللغة اللاتينية كتحفة فنية من الموزايكو ، أو إلى الإنشاء الإنجليزي كجهد للتسامي فوق نفسه ، فكان أن تعرقل خياله بدلا من إذكائه ، وهو ، من الناحية الثقافية أدنى بكثير من الأمريكيين الذين عاشوا منذ ثمانين عاما.

* * *

وعلى النقيض من ذلك تماما فإن المدارس الفرنسية تخرج شبابا مقتنعا بأنه لا شيء جدير حقا بالاحترام سوى ما يحرزه العقل ، ويجد الرجال والنساء الفرنسيون المتعامون ، الذين لا تؤدى الحقائق الروحية معهم عمل الثقل المضاد، صعوبة لأن يأخذوا نظرة عملية عن الحياة بسبب شبح أو وهم نشأ خلال سنى تكوينهم : الاكتفاء الذاتى بالعقل .

ومن بين كل عشر مدارس فرنسية تقع تسع بالمدن ؛ وأشهرها فى باريس ولا يزال الكثير منها تستخدم أبنية الأديرة القديمة وهى تختلف كثيرا عن مدارس أمريكا الشبيهة بالقصور ؛ وهذه الآثار التى تعود إلى القرون الوسطى هى ، فى كثير من الأحيان ، خلف مدارس الرومان الغالية ، فثمة تقليد من الثقافة منحدر عبر قرون عديدة يتعلق بهذه الأسوار الرمادية ؛ ولكن منظر

الأفنية المزدحمة الحبيسة بين المنازل المرتفعة تكشف عن عدم اعتبار ، لا ، بل عن جهل تام ، بالاحتياجات البدنية .

وكثير من الفرنسيين الذين لا يزالون على قيد الحياة لم يمارسوا خلال حياتهم المدرسية من التمرينات البدنية سوى السير الدائري الكئيب المصرح به للمسجونين بالإصلاحات ، والمسيرة الموحشة إلى الضواحي والعودة منها مرتين في الأسبوع ؛ وإن الذكريات الأولى للكتاب أمثال : تين ، ودوديه ، وبورجيه ، تعج بالشفقة الذاتية ؛ ولكنهم يسمون بأنه بينما كانت أجسامهم عاطلة عن العمل ، كانت عقولهم لا تكف عن أدائه ، وقد حفظت حيوية هؤلاء الأولاد المساكين عن طريق انفعالات الاكتشاف في الفكر أو التعبير ، وكذلك تصادم الآراء التي تجعل الحديث الفرنسي شيئاً شبيهاً بالمغامرة .

وحالياً يذهب تلميذ الليسيه إلى الملعب يومياً ، وفي أيام الأحد أو الخميس تتاح له الفرصة فعلاً للعب كرة القدم أو التنس ؛ ولكن لا يزال عمله اليومي الرتيب يبين أنه يصرف ساعتين في اللعب مقابل إحدى عشرة ساعة في العمل ؛ ويصبح بطل الألعاب الفرنسي ، حين وجوده في الملعب مثار الإعجاب لا الإعجاب .

وليس معنى المدرسة في فرنسا : الأولاد ، إنما معناها المدرسون والكتب ؛ ولقرون سلفت كانت الكتب قاصرة على آداب اللغتين اللاتينية واليونانية اللتين تعلمان للتخاطب بهما ، أو في القليل للكتابة ، كما لو كانتا لغة الطالب الأصلية ، ووجه الانتباه إلى القليل عدا هذا ، ولكن شخصيات التاريخ القديم أصبحت مألوفاً ، وكانت الخطوط الأساسية تستنتج حتى دون اكتسابها بالتعليم .

واليوم قد أزاح الأدب من طريقته جميع منافسيه ، حتى العلم على الرغم من تأليهه ، وهذه هي الحال في المدارس كما هي في الحياة ، فالمؤلفات الأدبية في اليونانية واللاتينية والفرنسية موضوعة فوق مكاتب تلاميذ المدارس بجانب الكتب العلمية والتاريخية ، و لكن الكتاب الوحيد الذي سيعرج عليه بالفطرة ، الكتاب الذي ستلمسه يده بالفريزة في لحظات الفراغ ، إنما هو كتاب مرشد التاريخ الأولى لأي من الكتاتين لانسون أو دجرانج ؛ وقد يكون ميالا للرياضيات ويدرك أن عليه أن يواجه أعواما من الجهد الشاق قبل أن يتيسر له دخول مدرسة الهندسة ، بيد أن التاريخ الأدبي لن يكون أقل جاذبية بالنسبة له .

فما الذي يجنيه من هذه الرؤية الفسيحة للتطور الأخلاقي الذي يكاد يقتصر في أي مكان آخر على المتخصصين الراشدين ؟ يجني خليطا من الفث والتمين ، فمن المؤكد أنه سيجرز نزعة فلسفية بملاحظته لتشابك الأفكار تسلسلها ، والأنظمة أو ضروب الترجيع العاطفي التي تؤسس تاريخ الأدب : فيصبح عقله معتادا على منطق الوقائع ؛ وعاما بعد عام يزداد ابتهاجه بالوضوح الناتج من رؤيته للأسباب والنتائج ؛ ولكن قبل مرور وقت طويل من توافر الفرصة اللازمة له كي يفعل أكثر من أخذ فكرة عاجلة عن مخلفات الأدب العظيمة يكون قد نال معلومات عامة عنها ؛ فقد أحرز اللهفة الفرنسية الفظيعة لتلخيص حقائق مركبة في معادلة واحدة ، وإذا كان قوى العقل فستسعهه موسوعته اللفظية ، أما إذا لم يكن كذلك فإن الألفاظ المحفوظة وخطوط الإيضاح المتألقة في ظاهرها ستمده فقط بتعال رخيص فوق أولئك الذين لم ينالوا تدريبا

مثل تدريبه ، بل ستمده بما هو أسوأ وهو الزيف ؛ ذلك لأنه، في أعماق قلبه، يدرك أنه يسرف في الكلام مع عجزه عن تحديد أو تحقيق ما يقوله .

بل إنه لا أكثر حدوثاً أن يبتهج الصبي الفرنسي بمطالعة ما يكتب عن التطور الشخصي لكاتب ما، ولشد ما يفعمه بالسرور أولئك القصصيون الخياليون ، خاصة ، من روسو إلى لوتى ؛ وإمكانية قضاء حياة غنية بالعاطفة متسامية بالإلهام تبدو له الهدف الوحيد المنشود، وإن أردت أن تقف على مدى الدمار الذي تسببه مثل هذه العقبة الهائلة التي تبرز عند مبدأ الطريق إلى التفكير المعقول السليم ، فاقرا قصة « Dominique » مؤلفها (فرومنتان Frumentin).

ولعلك تسألني : « ألا يصحح المعلمون الفرنسيون أبدا هذا السرف والإغراق ؟ » والجواب أنه ليس من المحتمل أن يستأصل المعلم الفرنسي وعلى الأخص في باريس هذا السخف، ذلك لأنه هو نفسه ضحية له ، عدا المدرسين في المدارس الإنجليزية وبنوع خاص الأمريكية ، الذين ينشرون كتباً ، كيف يستطيعون ذلك ، مع أنهم حينما لا يكونون مع التلاميذ يعامون ؛ فإنهم يكونون معهم يلعبون ؟ ، أما المعلم الفرنسي فهو رجل قد ألف كتاباً ، أو يقوم بتأليفه ، أو راغب في تأليفه ، ومحمّل جداً أن يكون هذا الكتاب قصة أو مسرحية ، والرأى عنده أن الشهرة الأدبية هي المجد الوحيد الجدير بالسعى في سبيله ، وأن قدوته ، وكذلك وجهة نظره التي لا يسهه إلا الإفصاح عنها ، تعمل على أن تغرس في العمق من خيال تلاميذه ، الوهم بأن الأدباء ، من رجال ونساء ، هم الأبطال الحقيقيون ، وتتكرر كلمة « العبقرية » بالمدارس الفرنسية حتى

لا يستطيع التلاميذ أن يفلتوا من الاقتناع المزدوج بأنها الشيء الوحيد الجدير بالحصول عليه ، وأنهم لن يحصلوا عليه قط .

ويبحث الغلام الفرنسي في لهفة عن تجسيدات العبقرية الحية ، وعاجلاً أو آجلاً يجسد لنفسه واحداً من اكتشافه الخاص ، وفي غضون ذلك يستسلم تماماً لنفوذ معلمه ، وأحياناً للتلميذ رائد فصله ، وهذه عادة فرنسية متأصلة لا يستطيع أى تلميذ إنجليزي متعجرف أن يعطى فكرة عنها ، ولست أظن أن الألفاظ الفرنسية الساخرة التي تميز بقسوة بين رأس الفصل « Tête » وذيله « Queue » موجودة في أية لغة أخرى ، وهي تدفع الذيل التعس لأن يدعن في ذلة لمن يظن خطأ أنه أعلى منزلة وتقضى على احترامه لنفسه ، أما في البلاد الأخرى فإن التفوق الرياضي أو المغامرات ، أو بعض البوادر بأن يكون التلميذ من رجال الأعمال أو الإدارة البارزين ، تضيء على الغلمان ، المزعوم تخلفهم ، شعوراً بالقوة التي تخاصهم ، ولكن التفوق العقلي بالمدارس الفرنسية لا يقبل التحدى ، وعقدة النقص التابعة له حرة في أن تملأ النفس التي غزتها يوماً ما .

والنتائج العملية في حياة الشعب نفسه قاصرة على الإغراق في رؤيتها ؛ وإن نزعة الفرنسيين الشغوفة بالأفكار تجعلهم يتصورون أنه عند الإفصاح عن فكرة ما ، فإن خصائصها ستكون كافية لتحقيقها ، ومع التحليل السليم يصبح ميسوراً أن يتقلص هذا السخف لتبرز الفكرة بأن شخصاً عملياً سيقوم بأداء ما نتعالى نحن عن إنجازها ، ومن ثمة تأتي الرؤية الدائمة والعرض المتألق للإصلاحات مصحوبة بهجو مرير للمساويء ، الأمر الذي تقسم به الأحاديث الفرنسية ؛ وقد صحبت

مرة زائراً أجنبياً إلى منزل صديق لي، حيث كان الإصلاح الاجتماعي هو الشغل الشاغل له ولمن يترددون على منزله ويؤلفون ندوته ، ولقد بلغ التأثير بهذا الشاب الجاد كل الجذذوته ، وراح يقول : « إن عمراً بأكمله لن يكفي لتنفيذ كل المشروعات التي بدت خلال حديث هاتين الساعتين ميسورة التحقيق » وفي يوم الأحد التالي صحبته للندوة ذاتها ، فلم يهتم أحد بمجرد التنويه بأية واحدة من الإمكانيات التي بدت قبل أسبوع واحد هامة عجيبي ، وبدلاً من ذلك ابتدع الحاضرون مجموعة جديدة تماماً من المقترحات وراحوا يناقشونها متحمسين ، فاستبدت الدهشة بالشباب ، وقد أقلقني بعض الشيء كنه رد الفعل عنده ، ذلك لأن الجد لا يزدهر بجوار التآلق الفكري .

وتساور الخيرة ، بصورة متشابهة ، أولئك الأجانب الذين يقضون في فرنسا مدة تكفي لأن تجعلهم يتأثرون شخصياً بضروب النقص العديدة في حياة الشعب الرسمية فهم يتساءلون : كيف يستطيع مثل هؤلاء الناس الأذكياء أن ينسجموا مع مثل هذا الشيء ذاته ؟ ، وفي الوقت المناسب يهتدون إلى إجابة يردون بها على أنفسهم ؛ ولم أنس بعد الحكم الذي أصدره بهذا الصدد في حضوري أمريكي مشهور حين زرت الولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٠٨ إذ قال : « إن الفرنسيين شعب ألمعي ولكنه غير ذكي » وكان مما يغري المرء أن يجول بخاطره أن كلمة « ألمعي » ذات شمول عجيب في الإنجليزية الأمريكية ، ولكنني شعرت ببلدغة الحق ، فالفرنسيون لا يضيقون بالطاعن شريطة أن يتهياً لهم الضحك أو التعليق بما يعن لهم من ملاحظات ساخرة لاذاعة ؛ فحملات الصحافة ، وجهود التوعية المنظمة ، التي تقوم بها الولايات المتحدة دون كلل أو ملال ، يستحيل القيام بها في فرنسا .

وموقف الفرنسيين من رجال السياسة عندهم ، من حيث طول الأناة وإفساح الصدر ، صنوا لما سبق ، وهو يصدر من نفس الشعور بعلو الأفكار فوق مجرد الأحداث غير المتيقنة ، وهم يحتقرون رجال السياسة كما يحتقر السادة الكسالى خدمهم الأوغاد ؛ ولا ترد قط على خاطر الفرنسي العادى تلك الفكرة الإسكندنافية فى دفعهم كى يكونوا وكلاء عن المجتمع ، أو فى انتظار نتائج محسوسة من حضورهم بمجالس الإدارة القومية، والحياة ، فى ظنه ، ليست قاسية جداً ، حتى ولو لم تحاول الحكومات أن تجعلها كاملة ، فالازدراء المهذب الفعك هو الإصلاح الكافى .

وإيثار الأفكار ، خاصة الأفكار العامة التى تسمح بالرؤى المبسطة ، سجية فرنسية ، حتى ولو أسفرت عن أخطر النتائج ، والرجل الإنجليزى ، وهو عملى فى كل الحالات ، والأمريكى ، وهو عملى فى معظمها ، يدرك كل منهما متى تكون بلاده معرضة لخطر حقيقى جسيم ، ومن ثمة يكف فوراً عن مناقشة الآراء كى يهيئ الإجراءات العملية ، « والرقص فوق بركان » هى لامراء عبارة فرنسية تصف موقفاً فرنسياً ، والأفكار فى فرنسا تزيد فى الاعتبار على الوقائع ، ومادام التعليم على وفاق مع التحيز القومى فى إيثار فن الحياة على الصراع فى سبيل الحياة ، فستستمر وجهة النظر هذه ذات الجانب الواحد .

والآن دعنا نتذكر صبيينا الصغير، فى التاسعة أو العاشرة من العمر ، ملهما حتى ليحسده فطاحل الشعراء ، ومفعما بحب الاستطلاع الفاحص حتى لتعجز الفلسفة عن ملاحقة أسئلته ؛ ما الذى يؤول إليه أمره حين يفادر المدرسة ؟ فى أمريكا يصبح شاباً قوياً فارغ العود ، كله عضلات ورغبات ، أما فى فرنسا

فيصبح شاباً نحيلاً ، كله ذهن وغير معد للحياة على الإطلاق ، معرضاً للعجز عن التمييز بين الأفكار والحقائق وبين الألفاظ والأفكار ، وكل منهما قد نال تعليمه ، وكل منهما قد نال سأنحته ، وسيظل الأمريكي دائماً سيّ الإعداد ا مليئاً بالثغرات العقلية ، مذبذباً بين الثقة والتهيب دون تستر أو خفاء . أما الفرنسي فستسربله غلالة من التكاف والتصنع ما لم يخلصه دينه أو حبه لوطنه أو أي دافع نبيل آخر ، فكل من الرجلين ستستبد به أفكار بيئته دون أفكاره الخاصة ، والتعليم الذي لن يجدي فتيلاً ما لم يكن فناً تجريبيّاً للتفكير سيكون محط اللوم لهذه النتيجة .

الفصل السادس

الفكر تضعف الحياة

(١) حياة الفكر

اعتاد الناس أن يمتدحوا الحياة باعتبارها المربي الأعظم ، والواقع أنه ما من أحد يستطيع أن ينكر أن الحياة سلسلة من الدروس يدعمها جزاء معجل أو ، في الأرجح ، تأديب معجل ، لا يمكن إغفاله ؛ وتخلق فينا ضروب فشلنا ونجاحنا غريزة للأمان تزينها بنقى الخبرة أو الحكمة ؛ ومن الحقائق أيضاً أن الفعل ، حين يكون من نسيج معين ويستدعى أفضل ما عندنا من طاقات ، يؤثر فينا كما قد تؤثر أنبل خبراتنا ، ونلتفت للخلف ، في نزوع متلف ، نحو السنين أو الشهور القليلة التي استمر الجهد متأججاً خلالها ؛ وكلمة « الجبهة » تعنى ، عند بعض الناس ، المكان ذا الاسم الرفيع الغامض حيث تكون روحهم في ذروتها . . . والفعل ، في هذا المستوى الرفيع ليس فقط يستطيع مساعدة الفكر ، ولكنه ينتجه ، في استمرار يرقى به إلى حد الابتداء .

وعلى أية حال فهذه خبرات نادرة ولا يمكن إنكار أن الحياة اليومية، وهي الجهد المائل في وضوح ، المتكرر يوماً إثر يوم ، لألف ما يرون من البشر

تضيف إلى الرصيد العام قليلا من الفكر أو لا شيء منه على الإطلاق ، بل إنها ، على النقيض من هذا ، تنهك قدرة المرء على التفكير ، ويقول أفلاطون : « إن الخبرة تأخذ أكثر مما تعطى ، والشباب أقرب للأفكار من الشيب » فالقدyson الشبان غير نادرين ، على حين أن الشيخ منهم استثناء مبهج ؛ وليس في مقدورنا أن نفصل العزلة والحرية والفراغ عن مفهومنا للحياة المكرسة للفكر : فسبينوزا في حجرته الواحدة حيث قامت الرتبة المختارة بعناية لعمه اليدوي في التأثير عليه مقام حياة الدير الرتيبة في التأثير على الدارس البندكتي ؛ وديكارت في ارتحاله عن باريس إلى إحدى ضواحي لاهاي النائبة الهادئة ، وبوسيه في اعتكافه كالناسك بالكوخ الذي في أقصى حديقته ؛ وباستير أو أديسون بمعامليهما المحرمة على غيرهما ؛ والرهبان المتعلمون في أديرتهم ؛ والحكام في عزلتهم الظليلة في إحدى قرى ماسوشتس ، والفنانون في محاولاتهم الدائمة لتكوين مستعمرات مكرسة للعمل الخالص المبرأ من الغرض : جميعهم يظهرون لنا صوراً من نوع الوجود الذي يخيّل إلينا أنه ملائم للتفكير ؛ فالحياة الاجتماعية التي يزاولونها تهبط إلى الحد الأدنى ، فهي لا تزيد إلا قليلا على أن تكون قراراً موسيقيا ناعما لعمل العقل كما كان أزيز مغزل صرغريت للحم يقظتها ، فلزام أن نحس رمقا من الحياة ينبض إلى جوارنا ، بل إن رشفة يتناولها المرء ، بين الفينة والفينة ، من النشاط المسرف لى جرعة مقوية ، ولكن ينبغي ألا يكون التواصل الاجتماعي أشد ربطا مما يحدث لنا مع الحارس الذي يحمينا خلال الليل .

(ب) ضروب الحياة غير المفكرة :

على أساس مناقض لما كان يفعم حياة سبينوزا من هدوء وأمان وتركيز ،

يقوم وجود معظم من نعرفهم من الناس ، فهم يتحدثون عن أنفسهم ، الأغنياء منهم والفقراء ، كعبيد مساقين ، أرقاء « لا يستطيعون أن يزعموا ملكيتهم لأنفسهم » .

ويلاقى الملايين العنت والعسف في العمل اليدوى ، إما لزحمته ، وإما لأن راتبته قد انتزعت منه الحياة، وإما لأن تعاقب مديحه والخط من شأنه عن طريق من يدعونهم بالزعماء العماليين يبدل علاقتهم الطبيعية بمهنتهم ، بعدم الوثوق بأحيانا بالكراهية ، ومئات ألوف عديدة ممن يشعرون بالليل للتفكير الرفيع عن عملهم ويقدرون كرامته ، لا يستطيعون التماذى في ميلهم أو الاغتياب به لعدم توافر الطمأنينة في حياتهم ، وحين نلمح آثار الإرهاق المبكر على وجه إنسان ما ، ففي تسع حالات من عشر ، يمكنك التيقن أن زحمة العمل ليست هى محط اللوم والتثريب ، فالمستول عن هذا الإرهاق هو القلق لعدم وجود عمل يؤديه ، فغارت العين وتهدل النعم ، ورجال الأدب أو الفن ، ممن لهم حرفة بغير كسب ، هم المثل الصارخ على هذا ، وبعد أن يشتهروا ويميل مؤرخوهم لترديد الزعم القاسى السخيف بأنه من صالح الكتاب ورجال الفن أن يعانون من الجوع بعض العناء ، والواقع أن الثروة تؤذى الفن ، ولكن رجال الفن لا يستطيعون العيش بدون قدر معين من النجاح ، فغير معروف على الإطلاق أن الإخفاق والقلق يكشفان عن أفضل ما عند الإنسان من مواهب ، بل طالما أسفرا عن النقيض من ذلك ، إذ ينشد المرء ملاذا في كره البشر أو في التحلل الخلقى ، ولو جرب الطريق المألوف للنجاح ، وحاول أن يجعل نفسه محبوبا أو شعبيا ، فتودد للأغنياء وذوى النفوذ من الناس ، لفقد كرامته ، ولانحطت صفة التفكير عنده في الوقت ذاته .

والعبيد الأرقاء هم الأغنياء أيضا ، فالمبشرون ودعاة الأخلاق يجنحون
للقول بأن الأغنياء أقل هناء من الفقراء وأوفر هموما ، وقد سمعت مرة راهبا
ملتجيا من الفرنسي سكان يقول إن الصليبان الذهبية أثقل من الصليبان الخشبية ،
وتبدو هذه الاستعارات مقبولة تحت قباب « كاتدرائية » ولكنها تجافى
الصواب ، فلا توجد صابان من الذهب كبيرة إلى حد أن يصلب عايبها
إنسان ما ، وإن وجدت فمن الممكن بيعها بثمن باهظ بصرف في أوجه البر ،
وشواغل الأغنياء أقل من شواغل الفقراء — هذا هو الحق الصراح —
ولكنهم ينساقون بغيرهم من الرجال والنساء ، أرقاء لضياح منظم ، وعبيدا
لضروب اللهو ، وشكواهم التي لا تنقطع هي عدم وجود أى وقت لديهم على
الإطلاق ، وأنهم يبتهجون بأن يحمل المرض بهم ، بين الفينة والفينة ، كي
يختلسوا فترة قصيرة للراحة ، ولكنهم يرهبون الوحدة ، والكلمة الوحيدة
عندهم المضادة للفظ « اللهو » هي « الملل » ، وتعلمهم الأسفار طرفا عن مظهر
الدنيا الخارجى ، وتمنح الحياة الاجتماعية أفضل الموهوبين عندهم ذخرا من
الحقائق — ومع ذلك فثار الدهشة ما تلاحظه من قلة ما يعرفونه عن الطبيعة
البشرية — ولكن يعوزهم الزمن الذى يكرسونه للفكر ، أما تذوق الحديث
الجاد أو الكتب الدسمة فقلما يتوافق لهم أو سريعا ما يفقدونه ، وهم يعيشون
على الفرائز الممعنة فى بدائيتها ، ينشدون السعادة فى اللذة والجاه وصفائر
الأمر .

وهم ، فى كل ما يفعلون ، يحاولون أن يبيعوا أكثر مما يشترون ؛ غير
مدركين أن الأنانية فى حياة العاطفة ، تعطينا ظل المادة ؛ وسرعان ما يختل مقياس
القيم عندهم ، فيؤثرون التحقيق العاجل لأغراضهم على ما هو أعمق من ضروب

المسرات المجهولة ؛ ورجل المجتمع هو شخص ، على نطاق واسع ، يجافى الصواب لأن عقله منعم بصور ذهنية رخيصة وأوهام مستبدة . والمعاشرة في حياة مثل هؤلاء الناس ، هي أقوى طاغية . . ناس ، ومزبد من الناس ! فالبارزون من الرجال والنساء كثيراً ما يظهرون في قاعة الاستقبال أو على مائدة الطعام ؛ ولكن أى نفع لهم وراء الرضا الرخيص بعبارة « أوه » « إني أعرفه » ؟ من ينصت لهم ؟ من يساعد المضيئة في جهدها كي تتيح فرصة للعظيم من الأدباء ؟ من ذا الذى يرغب فى الاستفادة من عقلية نادرة ؟ لقد شاهدت الكاردينال مرسييه ، فى مناسبتين ، مضيعة لا يؤبه به ؛ ولا يستطيع الأمريكيون أن يدركوا عدد فرص التحسن العقلى التى يضيعونها بعاداتهم المتأصلة فى إثارة ست محادثات حين يكون بالحجرة اثنا عشر شخصاً .

والخلاصة هى أن الطفل يلاحظ الراشدين ويبدأ فى التفكير بأفكارهم ؛ فهو يذهب للمدرسة وكثيراً ما يفرض التعليم عليه أفكار الآخرين بدلا من أن يعاونه على العودة لتفكيره الخاص ، وحين يغادر المدرسة ينبى لجمع المال ، أو لتدعيم مركزه ، أو لإشباع نزواته ؛ فلا مجال للتفكير بعد ذلك ، اللهم إلا إذا اعتبرنا التفكير هو استخدام المرء لعقله بغية تحقيق أغراضه العملية، والحياة تؤدى العكس تماماً مما هو مفروض أن تؤديه ، فهى ترحل بعيداً عن الفكر ، والعملية تبدأ ونحن فى العاشرة من العمر .

(ج) الضياغ الهائل :

من المفروض أن تكون المطالعة عوناً للتفكير ، فالإنسان الذى يقرأ يستعير ببساطة أفكار إنسان آخر ، وهذا يعنى نزوع متعطش للتفكير ،

ومعروف أن ندرة الكتب تصل إلى حد الصوم العقلي ، ويقول بيكون إن المطالعة تصنع إنساناً مليئاً ، وبينما كان دأبجو يتناول الغذاء يوماً على مائدة الملك لويس الرابع عشر أجابه عن سؤال وجهه إليه بالرد التالي : « إن المطالعة تصنع لعقلي ما تصنعه لحوم دجاجاتك الشهية لوجنتي » .

ولكن نمة مطالعة ومطالعة ، وكلمات مثل « الذكاء » ومثل « البديهة » ظلت معمولاً بها وقتاً طويلاً ، وقد أخذ إطارها يتحول عما اعتاد أن يكون عليه ، والمطالعة ، في أولى مراحلها لم تستطع إلا أن تكون ضرباً من طقوس الكهانة القديمة أو الأفعال السحرية ، وطريقتنا في القراءة بأن ننقل العين سراعاً على صفحة من الحروف المطبوعة كانت حرة بأن تثير الدهشة في نفوس القراء بل وأن تبهرهم ؛ وقليل من الناس ، في القديم ، عرفوا كيف يقرءون ، وقليلون أحرزوا كتل القرميد أو الأحجار أو لفائف الصحف اللازمة للقراءة ، وهكذا ، مثل هيروودوت في الألعاب الأولمبية ، كان المرتقب أن يمنحوا إخوانهم ، الذين يقلون عنهم حظاً ، بعضاً من الكنز الذي في أيديهم ، ويبدو أن القراءة بصوت مرتفع كانت هي السائدة ، ولا مشاحة أنها ظلت طويلاً هي العادة القائمة حتى في القراءة الخاصة ، والريني الذي يحرك شفثيه حين يقرأ إنما يزاول عادة تقليدية متأصلة ، وخصى كندا^(١) الذي كان يطالع في سفر

(١) هوخصى وزير لكندا كه ملكة الحبشة ، وكان على جميع خزائنها ، وعند عودته من أورشليم إلى بلاده ، على الطريق المنحدرة منها إلى غزة ، أمر ملاك الرب فيلبس كي يلحقه ، فسمعه وهو يقرأ داخل عربته لأحدى النبوءات التي وردت بسفر أشعيا عن المسيح ، فبشره به ، إذ كان فيلبس من الحواريين ، وهم تلاميذ المسيح ، وقد آمن الوزير الحبشى ونشره المسيحية بالحبشة بعد عودته إليها .
(الإصحاح الثامن من أعمال الرسل)

أشعيا النبي على طريق غزة ، ما كان يسمعه فيلبس الرسول لولا أنه كان يقرأ بصوت مرتفع ؛ ويذكر لنا أيضاً كاتب لسيرة القديس أمبروز أن رئيس الأساقفة الحكيم هذا عانى في شيخوخته من تجربة قاسية إذ اضطر في شيخوخته أن ينقطع عن القراءة « لإصابة حنجرتة » وهكذا فإن الناس لا يتناولون كتاباً إلا لغرض وفي وقار مدخر الآن لقراءة الكتاب المقدس أو الوثائق ذات الصلة القريبة من القداسة ، وكانت الروح بأكملها في حالة نزوع وتطلع ، وقوتها برمتها — دون أن يقللها تشتت ذهنى أو أوهاام ما — مستخدمة في المهمة العليا ، فمن ذا الذى يستطيع التشكك في أن المطالعة ، مع مثل هذه الشروط ، لا بد أن تكون مثمرة ؟ وفي مناقشة دارت حول فقرة منسوبة للافونتين ، انتصر لا جوفيه ، وهو مجرد رجل من المجتمع ، على كوزا ، وهو فيلسوف ودارس ، وحين سأل كوزا عن السبب أجابه الرجل الآخر قائلاً : « أطالع لا فونتين دائماً بصوت مرتفع ، بينما تطالع أنت قصصه كما يفعل معظم الناس ، وإن صوتى لينبثنى عند وجود أى خطر في إفساد معنى أى سطر » ... وهكذا كانت سجية القراءة الممتازة .

وكانت المادة المقروءة جيدة ، وكانت الكتب قليلة ومرتفعة الثمن ، ولم تكن هناك فكرة عن جمعها دون تدقيق ، وحتى اختراع الطباعة لم يعدل في مبدأ الأمر إنشاء المكتبات ، وكان أساسها هو الكتب الدينية ودواوين الشعراء ومؤلفات الفلاسفة ؛ أما المطالعات الخفيفة فكانت المكتبات تستمدّها من هوميروس أو من المؤرخين ؛ وقلما زادت المجلدات التى تضمها مكتبات الملوك والأديرة الغنية عن بضعة آلاف قليلة ؛ وبدى أن مجموعات الأفراد كانت أقل عدداً ؛ وكان أسبينوزا يمتلك ستين مجلداً لدينا قائمة بها ؛ ويعد ذلك بمائة

سنة جمع كانط ثلاثمائة ، ولكن نصف هذا العدد كان من قصص الأسفار إذ كان لكانط جانب يعوزه الجدل .

واقصر الناس ، بدافع من الحاجة والاختيار التقليدي على مطالعة ما ندعوه الآن بنتاج الأدب اليوناني واللاتيني Classics ولكنه كان يسمى ببساطة ، في ذلك الحين ، كتباً جيدة ؛ وكانت في الغالب تكتب بلغات صعبة ، لم يكن ليكني أن تؤخذ ، في غير جد ، كما هو الحال مع طلبتنا في الوقت الحاضر ، ولكن كانت يتحتم إتقانها ؛ وكان من اللازم التخاطب باللاتينية ، بل حتى اليونانية كان بتافيرس لا يزال يستعملها حين دافع عن موضوع رسالته في سن الرابعة والعشرين ؛ ويعج كتاب « كنز اللغة اليونانية » Thesaurus Linguae Graecae لستيفانوس بأصداء المحادثات اليونانية التي دارت بالقسم الخلفي من حانوت الطابع ؛ وكانت مهمة الدارسين في تلك الأيام تعالج كل شيء بإصرار هو النقيض التام لعقدة النقص ؛ فإذا درست مجلداً وقفت على دراسات الدين المسيحي المقدسة ؛ وإذا طالعت كتب أكويناس الضخمة القليلة عرفت اللاهوت ؛ وإذا طالعت موسوعة القانون الروماني التي وضعت في عهد جستنيان بالقرن السادس الميلادي عرفت القانون ؛ أما الجهد الذي كان يقوم به آلاف فهؤلاء لم يفكروا فيه أكثر مما يفكر كهربائي مبتدئ معاصر في حلول الوقت المناسب لكي يتقن حرفته ، فكان لكل دقيقة قيمتها .

ولذلك فليس من المستغرب أن الكثيرين من الناس كان يظن عنهم ويظنونهم أنفسهم أنهم يمتلكون فعلاً كل معرفة عصرهم — وهو اعتقاد يبدد كل الأوهام — وليس من المستغرب أيضاً أن رجالاً آمن لا يسمعون إلا أن ندعومهم من الشباب ومن القاصرين كانوا محط احترام غير مشوب ، ونحن نتكلم الآن

عمن هم في سن الأربعين كما لو كانوا من الشباب ؛ وهذه فكرة حديثة تماماً نشأت من الواقع وهو أن الحكمة لا مناص الآن من أن تقحم علينا ؛ ولم يسخر أحد قط من رجال الثورة الفرنسية بسبب شبابهم ، كما حدث مع رجال ثورة الحكم المحلي بفرنسا « Commune » بعد ذلك بثمانين عاماً ؛ وفي قصة الصراع الرهيب بين أطباء الباطن والجراحين ، التي ساقها جاي باتن عام ١٦٦٠ ، ذكر أن الفريق الأول كان يدافع عنه السيد لنجليه ، أستاذ البلاغة في « كولج دى بليس » وعميد الجامعة ، ويردف قائلاً إن هذا الخطيب المصقع كان من مواطني بوفيه ، وكان عمره ستة وعشرين عاماً ، ولكنه لا يختص أى بيان من هذه باهتمام أكثر من الآخر ؛ فرجل في السادسة والعشرين كان رجلاً لاصبياً ، كما نتخيل بحماسة ونقول صراحة ، الأمر الذي يعوق سير القافلة بيد وهم خطير ، وكان رجل ما قبل العهود العلمية ، يحس نفسه معيلاً تمام الإعداد قبل بلوغه الخامسة والعشرين ، إذا بدأ مبكراً بما فيه الكفاية ، واشتغل بقدر كاف من الجهد ، وعمل في أحسن الظروف .

أما في وقتنا الحاضر فقد أصيبت الطباعة بالجنون وأصبح العالم في خطر من أن يفوص في خضم من الكتب ، وينشر سنوياً ، في فرنسا وحدها ، أحد عشر ألف مجلد مقابل حوالى سبعين في عهد لويس الرابع عشر ، ومن ذا الذي يستطيع أن يفكر ، دون أن يشعر بالدوار والسقم ، في ملايين الملايين من الكلمات التي تغمر المدن الأمريكية صباح كل أحد ؟ وسيقول المحررون غير الأبرياء : « اختر لنفسك بنفسك » . . . وعبارة « اعرف ما تريد ! إنه لدينا معدلك ! » — هي قولة ناصح حكيم ، دون شك ، ذلك لأنها تحوى في أحشائها فن التفكير بأكمله ، ولكن لا يستطيع اتباعها والعمل بها سوى

الرجل الذى يعرف كيف يفكر ، وملايين غير هذا وأمثاله سيرهبهم أو يبهروهم هذا الغزو الهائل الذى يشنه عليهم إنتاج المطابع ، فى مثل هذا الارتباك تتوالد الأوهام وعقد النقص كما تتوالد الجرائم فى محلول حى ، ويحتمل أن تكون أسوأها هى الفكرة بأن المرء لا يستطيع أن يكون رأياً عن كل كتاب ولكن يتحتم عليه أن يتظاهر بتكوينه ، وهذا من شأنه أن يجعل الميدان مباحاً ، وأن يوفر حشداً من أرقاء الشعارات ، فيدعى الناس قراءة ما لم يقرءوه ، ويرددون بوجه ما حكم الآخرين على ما طالعوه ؛ ومن المؤكد أنه لا شيء يستطيع أن يدمر الفكر والقدرة على التفكير مثل هذا ، وليس ثمرة رافعة تستطيع أن تنزع إنساناً من روحه مثله .

وما الذى يقرؤه الناس حين يقرءون؟ من المؤكد أنهم لا يقرءون مؤلفات أ كويناس أو موسوعة القسانون الرومانى ، ويدعى كثيرون أنهم يطالعون الكتاب المقدس ولكن ما أقل من يصدقون القول ! وثلاثة أو أربعة فى الألف يطالعون دواوين الشعراء : إنهم يثيرون نفس الدهشة — المشوبة بالريبة — التى يثيرها الشعراء أنفسهم ؛ أما الذى يتم إنتاجه على نطاق واسع ، ويقتحم دائماً على انتباهنا ، ويعلن عنه بالأبواق ، ويضخم بالنقد فهو القصص الخيالى، فالقصص الطويلة تملأ المكتبات وتكتظ بها الأرفف ، والقصص هى التى يطالعها الناس فى الريف حيث لا يوجد سوى وقت قليل لقراءتها ، وهى التى يدعى قراءتها أولئك الذين يقيمون بالمدن حيث لا يتوافر أى وقت إطلاقاً لقراءة القصص ، وهى ليست من الأدب القصصى العظيم الذى ، منذ القرن السادس عشر ، قد أضاف المزيد إلى معرفتنا للجنس

البشرى ، أو حتى خلفه المعاصر مما له نفس الشهرة التي لا نستطيع تجاهلها ،
فالقصاص المقررة اليوم هي في الواقع ، والقراء يعرفون ذلك ، سخف ما بعده
سخف ، وحتى عناوينها يطويها النسيان في أسبوع واحد ، وقد سألت مرة
صديقة إنجليزية ، وهي سيدة على خلق عظيم ومبرأة من خسيس الأفعال : « ماذا
تطالعين ؟ » فأجابت « قصة » — « من مؤلفها ؟ » — « لست أعلم »
(بعض شعور بالذنب ، ضحكة مكتومة تحمل معنى الاعتذار) .

وتقرأ القصاص لقتل الوقت — وهي أشد عبارة في اللغات الحديثة تدنيًا
لكل ما هو جليل أو مقدس — ومنذ أن أضعف القصاص الخيالي حتى الموت
الأجيال الثلاثة أو الأربعة الأخيرة من الناس ، فإن كلمة « يقرأ » لم تفقد فقط
جلالها السابق بل وغيرت معناها نفسه ؛ فهي تذكر الآن ، مع التدخين ولعب
الورق ، كوسيلة لتوفير بعض الاستجمام البدني ، وقد استبعدت فكرة أن
يكون للمرء هدف حاسم في الإقبال على المطالعة بكل نفسه ، فالغرض الحقيقي
المختفي وراء عملية القراءة الجماعية هو « عدم التفكير » .

ويتضح هذا جليًا حين يستخدم قائل الوقت الصحف ؛ ولست أعني
صحائف النقد الأولى أو حتى المجلات ، فأى امرئ وقع في الريف ، حين أعوزته
الكتب ، على مجموعة منسية من مجلة العالمين الفرنسية أو مجلة الأطلنطي الشهرية
الإنجليزية أو حتى مجلة بريد مساء السبت الإنجليزية لأدرك مقدار الغذاء القوي
المحفوظ في تلك الأشياء الموقوتة في ظاهرها ؛ أضف إلى هذا أنني سأنتهز
الفرصة في الباب الثالث من هذا المجلد كي ألفت النظر إلى قدرة الصحيفة اليومية
على تحويل نفسها إلى آلة للتفكير من الطراز الأول ؛ ولكنها تتطلب وجود

حاجة خاصة ، أو موهبة خاصة ، أو تعليم خاص لرفعها إلى ذلك المستوى ؛ وفي معظم الحالات لا يطالع المرء الصحيفة على الإطلاق أو يكتبني بأن يلقي نظرة عابرة عليها ؛ وغالبا ماتظل مطوية بعناية حتى وقت متأخر من بعد الظهر حتى تمس الخدمات أن عليهن أن يتحن لها الفرصة ، بل إن طريقة وضعها فوق الأريكة يكشف عن نوع العناية التي أغدقت عليها .

إن القياس الصحيح لإمكاناتها كضعفة للفكر يؤخذ حين نراقب شخصا عاديا وهو يطالع صحيفة في القطار، وإني لأذكر يوما شاهدت فيه رجلا يجلس مواجهها لي في الطريق بين فيلادلفيا ونيويورك ، وكان كل منا يسند صحيفة « فيلادلفيا لدجر » إلى ركبتيه ، وقد وضعت بضعة علامات بالأحمر على نسختي ثم رحت ألاحظ السيد المسافر ، فقرأ قصة بطولة السباحة التي قامت بها إحدى السيدات في نهر المهدسون ، وكانت قصة طويلة إلى حد ما فجاءت تكلمتها على الصفحة السادسة ، العمود الثالث ، ولكن السيد لم يكن صنواً لجهد تقليب ثلاث صفحات كبيرة ، وكان يطالع دون أن يجهد نفسه .

وهكذا ، إذ ترك حورية البحر المكسوة بالشحم ، انتقل إلى استجواب المرأة صاحبة الخنازير في قضية نيوجيرسي ، وإذ أذهلته قذائف الأسئلة المتتابعة غير المتصلة ، التي وصفها هذه المرأة بعبارة خالدة إذ قالت « كلام ، كلام ، ثرثرة ، ثرثرة » راح بالتتابع يتمطى ويتثائب ، ولكنه لم يسقط سطرأ واحداً ، وقرأ الرجل الصحيفة بأكملها على هذا النمط من الملل ورغبة النعاس ، مع ومضات من النشاط بين الفينة والفينة ، مصحوبة بنخشب الجزء الأعلى من جذعه ونظرة كالصقر يلقيها السيد من النافذة إلى لاشيء ، وبعد حين عادت

السباحة للظهور في ركن ، وعادت المرأة صاحبة الخنازير فملأت أعمدة متتابعة ، وكانت هناك رسالة من الرئيس إلى الكونجرس ، ومقالات من المحررين ، وأخبار عن سوق الغلال ، والسفن ، والرياضة ، وقد قرأ المسافر كل هذا على النهج نفسه ، وبعدم الاكتراث البالغ نفسه ، حتى أشرفنا على النفق ، وبعد ذلك انتزع الرجل نفسه من وهدة الخمول والتراخي ، مظهراً رد فعل عجيب ، فقد قذف بالصحيفة المتهالكة ، ووثب واقفاً ، وراح يتحسس بحثاً عن سجائره ، لقد كان يقرأ ! .

تصور النتائج ، على مدى الزمن ، لهذه العملية العقلية المزعومة ، التي تتألف من تقديمها للعقل العديد من مختلف الشئون التي لا يوجه إلى أي منها اهتماماً صادقاً ، وإذا تذكرنا أن أكثر محاولتنا جدية للتحكم فيما نقرأه تعرقنا دائماً الصور الذهنية الطارئة التي نسميها ضروباً من التشتت العقلي ، مخلفين تقريباً ثلثي وعينا الملائم لما نقرأ ، ولا يساورنا من الشك إلا أقله في أن القراءة ، كما يزاوها معظم الناس ، ليست سوى طريقة لعدم التفكير ، وإذا استمر الأمر على هذا المنوال بضع سنين ، أصبح الذهن — كما ينعت بحق — هلامياً ، وهذا ما يحدث في الوقت الحاضر ، عمراً بأكمله مع الرجال والنساء ، فهم يغادرون المدرسة في الثامنة عشرة أو الثانية والعشرين من عمرهم ، وتكون الضرورات العملية قد أرغمتهم في هذه المرحلة لمطالعة الكتب الجادة غالباً ومطالعتها بجد : وطوال فترة التعليم كانوا يسرون على النهج القويم ، وأول شيء يفعله العالم وحضارته المزعومة معهم هو إقناعهم بأن روائع المؤلفات شاقة ، والموسوعات مدعاة للملل ، بينما يسير الأدب الحقيقي مع الحرية جنباً إلى جنب ، ومن ثمة تكون المطالعة أحد القوى المدمرة المصطنعة ضدهم ، فالصحيفة ، قبل كل شيء ،

ستبهرهم بوثباتها من موضوع لآخر، أو تضعفهم بمتناقضاتها إلى حد الشك العام الهزبل، وهكذا يصبحون ألعوبة في أيدي واضعي عناوين المقالات الرئيسية بالصحف غير المسئولين .

وهنا دعني أستحضر لذهني، لحظة واحدة، الوجه الجاد لرجل منهمك في العمل، يفكر في الثقافة العقلية كفردوس مفقود، وقادر أن يكرس على الأكثر نصف ساعة يومياً للمطالعة الدينية أو الفلسفية، أو أحياناً للشاعر جدير بنعته، لشد ما يبدو هذا الوجه نبيلاً وعاطفياً! ولشد ما تنحني لتلك النتائج الباهرة دائماً التي تهيؤها الدقائق الثلاثون المفرزة للتفكير! ولكن ما أندر ما نلقى الشخص القريب من البطولة الذي سينقذ نفسه من الهلاك، بينما يلقي الملايين بأنفسهم في خضمه وهم سعداء، والرأى بأن شيئاً كالطباعة يسفر عن نتيجة كهذه يكاد يكون غير محتمل .

والمحادثة هي ضرب آخر من الضياع، وهو أمر معروف جداً، ومن سوء الحظ لا مفر منه حتى إنه لمن غير المجدى أن يتفوه المرء عنه بأكثر من كلمة، قال باكون: « يصنع تداول الحديث رجلاً مستعداً » مستعداً لأي شيء؟ ويبدو أن القدماء، مثل معظم الشرقيين الآن كانوا لا يتكلمون إلا حينما يكون لديهم شيء يقولونه، ويبدو أن معيار تقويمهم لما كان يستحق القول وما لا يستحق هو نفس معيار أفضل كتابهم، ومن ثمة جاءت قوة أحاديثهم، وحين يهتدي كاتب، حتى ولو لم يكن من الطراز الأول — ولنقل السيد جازوردي — إلى خطة يقصر فيها محاوراته على العبارتين أو العبارات الثلاث القصيرة التي سينهى بها المحادثة أشخاص متزنون، فإنه سيخلف أثراً قوياً غير مرتقب .

والآن فكر في الهراء الذي تسمعه في « حجرة التدخين » ، أو في شقشقة اللسان الصببانية الفارغة التي تسمعها في « الأندية » ، أو في الثثرة المغامرة الموشاة بلمحة من مضاء الفكر التي تسمعها في قاعات الاستقبال الفرنسية، أو في ابتهاج الأنجلو سكسون بالملح البالية غير الطريفة ! أية سخرية في أن نردد القول بأن الكلام هو آلة الفكر حين أصبح مجرد إشباع لنزوع بدني ! ولو قدر ليكون أن يعيد ، على ضوء من الوقائع الحديثة ، كتابة العبارات الشهيرة التي اقتبست منها العبارة الآنفة الذكر ، لقال إن المطالعة تنتزع الإنسان تماماً من شخصيته بعد إفساده ، وإن تداول الحديث يظهر أنه قد أضع هذه الشخصية .

ولا يمكن أن تكون لهذا الباب الثاني نهاية إلا السوداوية ؛ فالإنسان يولد خالياً من الأوهام أو عقد النقص ، وحائزاً على موهبة لملاحظة وجمع الصور الذهنية التي ترعى التفكير وتنميه ؛ والحياة بما تحويه من مثل هذه القوى المساعدة — ظاهرياً — كالتعليم والأدب تدمر هذه النزعة الفطرية ، كما يدمر صقيع أبريل براعم الأزهار ، وتحل المحاكاة والتوافق الخسيس مكان الابتكار ، إن الجنس البشري شبيه بمدينة هر كيولنيوم^(١) — تغطيه قشرة سميكة تحتمل ترض بقاء الحياة الصحيحة التي طواها النسيان — ولا يضل الشعراء والفلاسفة طريقهم قط إلى إحدى الحجرات المظورة التي عاشت فيها الطفولة يوماً ما في سعادة دون أن تفتن لها ؛ ولكن الملايين لا تعرف شيئاً سوى طبقة اللحم السميكة من العادة والتكرار ، ونفيس قليل من الناس يخبرهم بما يلزمهم أن يفكروا فيه فيفكرون فيه .

(١) مدينة طمرها بركان فيزوف مع مدينة بومي في العام السابع والتسعين قبل الميلاد بحمصه المنصهرة .

الباب الثالث

معينات الفكر

الفصل السابع

إحساس المرء بحياته

(١) العزلة الظاهرية :

كثير من الناس يخشون العزلة الظاهرية ويصمون بها بالكآبة؛ وقليلون يحبون لدواتهم أو خالدون يؤثرونها، ولكن كل شخص تقريباً يفكر فيها باهتمام، فنحن نغبط مدام دي سفنديه إذ رحلت عن البلاط وعن صديقاتها لتتقاعد في ضيعتها بيريغون ، وبوسويه أو ميريدث وحيدتين في كوخيهما المختبئين بأقصى الحديقة، وروسو في غابته ، وسلفيو بليكوف في سجنه ، وآلين جيربو على ظهر مركبه بالمحيط ، وبهرنا « ديكنز » بين أصدقائه في مجلدات فورستر ، بل لماذا يزداد انتباهنا حين نسمع عن جولاته التي لا تنتهى بين أزقة لندن في الليل ؟ فالصورة لا تظهر لنا سوى رجل يبحث في الظلام عما لا نعرف ، ومع ذلك فإنها تأخذ بألبابنا أكثر من أى شيء نستطيع فوراً أن نناله .

والواقع أنه حتى أكثر الدنيويين شغفا بالدنيا يسأمون الخواء الذى يريم على حياتهم ، ويدركون الإفراط فى التماثل الذى تعافه النفس ، وعلى الرغم من

أنهم يؤدون دورهم في الحياة ببسالة جديرة بوظيفة أفضل فإنهم يشعرون بالهزيمة أحيانا ، ويخففون عن أنفسهم بالشكوى البعيدة الغور « بأنهم لا يستطيعون أن يعتبروا أرواحهم ملكا لهم » وهم ينشدون العزلة متلهفين ، حتى ولو لبضعة أيام بباريس في الصيف ، أو بنيوبورت في الربيع ، ولكنهم لا يستطيعون دائما تهيئة ذلك ، ومن ثمة فإن نصف عزلة بحفل موسيقى ، أو بحضور صلاة في كنيسة نائية ، أو بقضاء بضع ساعات بالسيارة ، تسرى عن النفس بتخفيف الضغط الذي لا يحتمل .

ولدى كل إنسان شعور بالعداء للأشياء — سواء أكانت حادثة أم موجودة فقط — فنحن نبغض حجرة الخلفات المشوشة المزدهمة حيث تتعذر الحركة ، ونرغب في إقصاء الخلفات عن أبصارنا ، كي نقلل الأشياء إلى أقصى حد كما يفعل الراهب الكارثوزي في صومعته البيضاء التي لا يحتفظ فيها إلا بصليب أسود بسيط على الحائط ، إننا نفر من فكرة الفراغ ، ولكن لو أن قدراً كافياً منه بدا حولنا ، وفوقنا خلق فكرة ملاذ نلجأ إليه لتنفسنا في حرية وسعادة ، فنحن « نجد أنفسنا » على حد العبارة المتواترة ، أجل نفسنا المهملة المسكينة ، أعز أصدقائنا ومع ذلك فنحن نجرها وراءنا في كل مكان ككباب تساء معاملته ، فلا نكاد نتحدث إليها قط أو نلقى لها بالا ، ونذهب إلى حيث لا تجد مسرتها، حتى تظهر أخيراً بجافة كل هذا للخصائص الطبيعية، وهكذا نحيا ، بضع ساعات بدلا من أن نكون مجرد أحياء .

وفن التفكير هو فن إطلاق المرء نفسه على سجيتها ولا يستطيع الإنسان أن يتعلم هذا الفن إلا إذا اختلى بنفسه، ولا ينتج المجتمع إلا أفكارا اجتماعية،

« نداءات حربية »، أو بعبارات أخرى، ينتج كلمات، ولكنها كلمات تنسم بقوة الأمر، وتنتج العزلة إحساساً بهيجاً بالإدراك الواعي، الإدراك الواعي بأغوارنا السحيقة، على أية صورة كانت، وهي لا تعجز قط عن تحقيق هذه النتيجة، خذ قدحا، في صباح ما، من القهوة القوية، لتحتفظ بيقظتك، لا تستلق على الفراش بل تمدد على أريكة مدة ساعتين أو ثلاث ساعات، وحاول أن تبسط وتعيد تبسيط مشاكلك، أو بعبارة أخرى، في معظم الحالات، منفصاتك المصنوعة محليا، متذكراً أنك مسيحي ولست « الوثنية الحسنة » على حد ما اعتادت مدام سفنييه أن تقول، فسرعان ما تدرك علة اهتداء ديكارت إلى اكتشافاته وهو مستلق بفراشه في الصباح.

وكيف نستطيع أن نضمن العزلة وطريقنا محاط بشتى الأشياء التي لا نرغب فيها؟ وليس ثمة جواب عن هذا السؤال ما لم نشد العزلة في رغبة صادقة، أما إن فعلنا فستسعى العزلة إلينا، وليس أقوى جاذبية من رغبة المرء في أن يعيش وحيداً، ويوم أن تلاحظ، وأنت راض، أنك مسرور لتركك منتظراً، لأن هذا يهيئ لك فرصة تنفرد فيها بنفسك، عندئذ تدرك أنك تهوى العزلة حقاً، ولن تضطر بعد ذلك قط أن تبحث عنها أو أن تترضاها، فالعزلة ستتوافر لك حيثما كنت وإني لأعرف، في نيويورك التي تعج بالعمل، سيدة ذات بيت وأسرة، تدبر أمرها بحيث تقضى كل صباح خمس ساعات في الكتابة بعلية في منزلها، وأعرف أخرى أجرت حجرة خفية بالدور الأرضي من مبناها، ولم يكتشفها أحد قط للآن حتى ولا خادمتها، ولكنني أعرف أخرى هي في ظاهرها الطراز الأصيل للمرأة الاجتماعية التي لا تفارق البسمة الفاتنة شفيتها، وهي لا تبرح منزلها ولا ترد طارقاً عن بابها قط، وعلى الرغم من هذا فهي

تقرأ الأدب الجاد ، قديمه وحديثه ، كما لو كان لديها خضم من الفراغ ، والواقع أنها لا تشكو قط من عدم توافر الوقت ، فكيف يتيسر هذا ، بينما تليفونها لن يكف عن الأزيز لحظة واحدة ؟ الواقع أن الناس يتهيبون رغبة هذه السيدة في تركها وحيـدة مع كتبها الجادة ، ولذلك فهم يتحاشون أن يطلبوا رقم تليفونها .

(ب) العزلة الباطنية :

هي ما ندعوها تركيزا ؛ وإذا كانت العزلة الظاهرية هي اختزال الكائنات البشرية بل والأشياء المحيطة بنا ، فإن التركيز هو إزالة كل الصور الذهنية التي لا صلة لها بسلسلة من الفكر ، واحدة بعد الأخرى أو بجهد كاسح وحيد ، وهذه السلسلة من الفكر كثيرا ما تنبثق دون مؤثر من الخارج ، وعندئذ نسميها عكوبا . ويجمع الحديث العام بحق كل الشرائط العقلية التي من هذا النوع تحت اصطلاح « التفكير » ، وما دامت دوامات الصور الذهنية السائبة تملأ ذهننا فليس من المفروض أننا نفكر ، وحالما ترد صور ذهنية من الجنس ذاته إلى نطاق ملاحظتنا ، ندرك أننا نفكر ، ونصبح في الوقت ذاته غير شاعرين بمعظم الأشياء الخارجة عن نطاق تفكيرنا .

من ذا الذي لم يشاهد رجلا يسير وسط حشد غير مكترث لأي شيء سوى رؤياه الباطنية ؟ وكان لزاما مراقبة جورج تيريل إذا شاء إنسان أن يحفظه في حدود الدائرة المرئية التي يجلس فيها ، فإذا ترك لنفسه دقيقتين ابتعد أميالا ، وهكذا يستطيع العشاق والشعراء والفنانون أن ينفردوا بأنفسهم على الرغم من وجودهم برفقة آخرين ، فلم يرد ألفونس دوديه عن بابه طارقا قط ، إنما

كان الزائر — بصرف النظر عن منزلته — يعطى فوراً تفاصيل كاملة عن الفصل الذي يقوم الكاتب بتحريره في قصته ، إذ يبدو أن ذهن دوديه كان يزداد نشاطاً حين يستطيع التحدث بأفكاره ، وكان حضور إخوانه إليه يعاونه في ابتكار مواقف قصصه دون عرقلة أو تعويق ، ويعيش القوم الذين تستولى عليهم نزعة عظيمة — الرسل من كل الدرجات — في هدفهم المتحكم ولا يحتاجون إلى عزلة ظاهرية للتفكير ، ومن المتعذر ألا يهر المرء ذلك التضاد بين حياة القديس بولس المتنقلة المايئة بالأسفار وما في كتاباته من تركيز وعكوف ، فنحن نعلم أنه أملى رسائله في عبارات مسجوعة ، ولم يكن حضور كاتم السر أو المترجم ليقطع عليه حبل تفكيره ، لاعتياده على الصحبة الدائمة بل لا شك أنه كان ينشدها متأملاً ، وفي أثناء الحرب جلس شخص غريب المنظر يوماً ما إلى جوارى على مقعد بشرفة سنت جيرمان ، وكان عاملاً روسيا ساذجاً لا تزيد موسوعته في اللغة الفرنسية على مئات معدودة من الكلمات ، وقد أبدى هذا الرجل فصاحة على الرغم من هذا النقص ، فقد ظل أكثر من ساعة وهو يسكب نفسه دفاعاً عن مبدأ إلغاء الحروب ، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع لم يكن ملائماً فقد انتزع إعجابي ، وواضح أن وجودي لم يكن إلا علة ظاهرية أو حافزاً لانطلاقه مبشراً بفكرة تعبد لها بعد أن استحوذت على جميع حواسه .

وكثير من الناس مدربون مهنياً على التركيز ، فقد كان في استطاعة نابليون أن ينتقل من موضوع لآخر مختلف عنه تمام الاختلاف ، فمثلاً كان ينتقل من خطة حربية إلى ميثاق « الكوميدي فرانسير » كما لو كان شخصاً آخر ، وكان في عقله ما يدعوه أحياناً بالأدراج ، وأحياناً بأسفار خرائط

البلدان ، التي توفر له المادة التي يحتاج إليها ، وكثيراً ما يثير المحامون والمرشدون الروحانيون دهشتنا بالانتباه غير المشتت الذي يسبقونه على عميل مسترشد بعد الآخر ، ولكنهم يحصرون أنفسهم في القضايا التي بين أيديهم ، فهم يوفقون للعيش في عزلة باطنية يعجز الطرق الدائم على بابهم أن يخرجهم منها ، ولا شك أن هؤلاء القوم أقرب للفكر من الإنسان العادي ، كما أن أمين المكتبة أقرب إلى الكتب من بائع الفواكه أو الخضروات المتجول في الشوارع .

وليس ثمة شكوى أكثر تردداً على السمع من « لا أستطيع أن أركز ذهني » اللهم إلا تلك الآفة الأخرى « تعوزني الذاكرة » وعند الاستجواب الفاحص تجد أن القوم الذين لا يستطيعون تركيز أذهانهم يشعرون إما بثقل يلاشى كل جهد عقلي ، وإما بعدم استقرار ينفى كل شيء سوى اتصال عابر بموضوع الانتباه ، وحالما يحاولون تجميع وتركيز إدراكهم يبدو كما لو كان سرب كامل من الصور الذهنية المتجانسة قد انبعث ليسخر منهم ويربكهم ، فإذا حاربوا هذا الارتباك حل العصاب وفيرا ، وستؤثر صحبته في كل الأحوال الطراوة على الألم ؛ وهذا يعلل الحالات العديدة التي يحاول الناس فيها بجلاء أن يفعلوا أي شيء بدلا من أن يفكروا ، وقد لاحظت صبيانا قلقين وقد بدا عليهم الضجر بينما كان المدرس يقرأ على الفصل كتاباً ممتعاً ، وعلى النقيض من هذا كانوا يجلسون وقد بدا البشر على وجوههم حين يأخذ عمل كل يوم الممل المنهك مجراه العادي ، كانوا يبغضون الكتاب الذي يحوى من المتعة ما يكفي لصرفهم عن التفكير في شيء آخر ؛ ولكنهم لم يهتموا أو بالأحرى أحبوا العمل الرتيب الممل بما يكلفه من أدنى جهد وما يهيئه لخياهم من الحرية .

هل نستطيع أن نتعلم التركيز؟ إن الشك الذي يتضمنه هذا السؤال هو

في ذاته عقدة نقص مسئولة عن كثير من ضروب الفشل ، والواقع أن تسعة من كل عشرة رجال أو نساء ممن يملكون القدرة على طي أجنحتهم حول انتباههم قد حصلوا عليها بالمران في صبر ودون ملال ، وطبيعة العقل عندنا ، كما بينا في الباب الأول من هذا الكتاب ، من شأنها أن تعرض مجموعات من الصور الذهنية بعضها يعلو البعض ، وملاشاة أكثر ما يستطيع منها تقتضى جهداً لا يمكن أن تؤديه بنجاح سوى الحاجة أو الرغبة الملحة ، والانتباه عادة أكثر منه موهبة ، وينبغي أن تشجع هذه المعرفة أولئك الذين ينشدون العيش في أغوار أرواحهم .

ومن المؤكد أن العصاب عقبه كأداء في سبيل التركيز ، أما أولئك القوم الذين يتهيبون ويفعلون وهم في صحبة غيرهم ، والذين يسرفون في الشعور بسمو الآخرين عليهم في توقد القريحة أو حسن المنظر ، الذين تنفى عنهم الحيل والدعاوى العريضة راحتهم المطمئنة ، فينبغي ألا يلوموا أنفسهم لشعورهم بالعجز عن التركيز الذهني في حضور غيرهم من الناس ، والحق أن جولد سميث كتب كملك من الملائكة قائلاً : ليس ثمة من هو أكثر منطقاً من « قس ويكفيلد » على الرغم من سماحته ورقته ، وحين تكلم أوليفر كيبغاء مسكينة كان ذلك لأنه أثير إلى حد لا يطاق وكان عليه أن يقول أى شيء بدلا من معاناة الضغط ، ولم يتحدث كاللبغاء في ذلك اليوم الذي أوقف كاتبا آخر عن الاستمرار في كيل المديح بتصريحه أنه يقاسى الأمرين من سماعه ، وكان من الواجب على جولد سميث أن يتجنب الترسل في الحديث مع رجال الأدب الذين يحملون معهم أسباب المضايقة حينما حلوا ، فإذا أنت ساورك نفس الشعور بالضيق فأنشد عشرة قوم يتحلون بالرفق والبساطة بدلا ممن يتسمون بالذكاء وتوقد الذهن ، وحين يخاطبك

شخص تعرف بالتجربة أن حديثه يقلب تركيزك الذهني رأساً على عقب ، ابقسم وأفعم قلبك بمشاعر العطف وبالروح المسيحية ، ولكن لاتنبس ببنت شفة ، وتمسك بالصمت والسكون ، حتى تتلاشى جاذبية الرجل الآخر الشريرة في الكلام وتقضى على نفسها ، ومن ثمة سنشعر بالاحظة التي تتعادل القرص فيها بينك وبينه .

وينتج الاهتمام من أى نوع من أنواع التركيز الذهني بالسليقة ودون عناء ، فالأنانيون من الناس يركزون تفكيرهم على منافعهم الخاصة العاجلة ، أما المثاليون فعلى فكرتهم ، ولا نكاد نقضى خمس دقائق مع شخص ما دون أن ندرك كنه اهتمامه ومدى ما قد يكون عليه من سمو: فهو إما أن يكون ربماً أو غروراً أو لذة ، وإما أن يكون مظهرأ لرغبة تحسين العالم المتعددة الأشكال ، والتجرد من الأهواء يحمل الجزاء لنفسه ، فهو يملأ الروح أكثر من أى حدواع ، فنبل وجهة النظر أو القصد ، والانصراف عن المصالح الرخيصة ، والمحبة المسيحية الكاملة ، وانطلاق المتصوف في تأملاته ، كل هذه الأمور تبدو في نفس الوقت وقد هيأت سموا عقلياً وخلقت فردوساً للحائز عايتها .

وإذا انحدرنا إلى المستوى العقلي المجرد ، وجدنا هنا أيضاً أن الاهتمام الحقيقي لا غنى عنه للتركيز الذهني وأنه يخلقه في لحظة ، يستطيع نفس الصبي الذي يتشتت تفكيره حين يطالب بكتابة مقال أدبي أن يركز ذهنه نصف يوم على العلوم الرياضية أو على جهاز جديد للإذاعة ، كذلك نفس القوم الذين يتوهمون أنه لا يئسر لهم سوى مطالعة أخف أنواع القصص الخيالية ، يستطيعون انتزاع المتعة من ذكريات عديدة هي بلا شك أسهل في القراءة من

القصص ، وهم لا يجروون قطأف يقولوا إنهم يركزون الفكرحين يطالعون القصص لأن الناس قد يسخرون منهم ، ولكنهم لا يترددون عن التصريح بأنهم يركزونه على أخبار المحاكم ، والواقع أنهم عندئذ سيعرفون التركيز كما يعرفه معظم المؤرخين ، ويقول دودا : « سر مائة خطوة مبتعداً عن الطريق العام ، فإذا التزمت اتجاهها واحداً وجدت بقعة ندية الظل أو حتى عين ماء متفجر » ، وقد عرفت قساً فرنسياً ، قصر ولعه ، مع بالغ الدهشة ، على المسرح ، وما كان ليستطيع إشباع هذه النزعة في بلدة كنائسية وسنانة ، وإذ شرع هذا القس المراح بجمع المسرحيات المنشورة بمجلة « الستراسيون » فقد كون بالتدريج مجموعة مسرحية هائلة ، وفي مدى سنوات قلائل أصبح يعتبر حجة في المسرحية الحديثة ، وحين قطع الموت فجأة حبل مهمة كانت قد أصبحت تخصصاً دون أن تفقد لذتها ، كان مبيع هذه المجلدات ، التي جمعت لإرضاء نزوة طارئة ، حدثاً أدبياً ، والنتيجة هي أننا نركز الذهن يقيناً حالما يتوافر لدينا الاهتمام أو نجد المتعة لأن فعل ذلك ، فن التفكير هو ، إلى حد كبير ، تبين ما يضمنى على عقلنا الغبطة والرضا دون جهد أو قلق .

ولكننا لا نستطيع دائماً أن نسير في أعقاب ميلنا صوب التفكير كما نعمل في التمثيل ، فهناك مسائل جافة لا مناص لنا من معالجتها ؛ ولا يفرب عن بالنا أن ثمة واجبات عقلية ليست بأيسر على التنفيذ من الفروض الأخلاقية أو الأدبية : وقد نهوى الشعر ونبغض التاريخ ، مثل شلى ؛ ولكننا نحس أنه لزام علينا ألا نحاكى شلى في انصرافه عن علم التاريخ ، إذ إن العبقرية وحدها هي التي تستطيع عدم التقيد بقواعد الثقافة العامة ، وكيف نستطيع أن نركز انتباهنا على موضوعات ، تعوزها الجاذبية الأمر الذي يؤدي بطبيعته إلى تشتت

الفكر؟ وسيخصص فصل آخر للتمارين العقلية التي ينزع كل منها نخلق التركيز، وهذا ما توفره أيضاً مشا كل الصحف، والأسئلة والأجوبة من كل الأوصاف، والغاز الكلمات المتقاطعة إلخ. إلخ، وتصف مدام دي منتينو والتدبير، بطريقتها الأمينة المباشرة، بأنه « التفكير بإمعان بضع مرات في نفس الشيء » وهذا التعريف يهيئ إرشاداً ممتازاً حين يكون موضوع تركيزنا الذهني واحداً لا أكثر، وحين يقع موقع الاستحسان في محيط مجهرنا العقلي، ولكن كثيراً ما نتعقد الأشياء بدلاً من أن تقسم بالبساطة، أو أننا نحاول أن نستكشف—لا أن نختبر فحسب— الأفكار، وفي مثل هذه الحالات تصبح مشكلة التركيز مختلفة عن مجرد انتباه لدرس يتلقاه صبي بمدرسته .

ولیکن مفهوماً، منذ البداية، أن التركيز مستحيل إذا كنا مرهقين أو متبلدين، والتطرف في كثرة النوم أو قلته يخلق فراغاً في الذهن، وكذلك الحال مع الإفراط في الأكل أو السرف في الصوم، وأيضاً عند المبالغة في الإقبال على التمرينات أو الانصراف عنها، ولا تتصور، حين تشعر بقوة عقلية، أن الرياضة البدنية العنيفة، مثل لعبة سكووش، ستوفر لك اليقظة، فهي ستطلق كل طاقاتك الحيوانية من عقالها، ولكن الشرايين التي تعج بنبضها تسير في العادة مصحوبة بتيار خاطف من الصور الذهنية غير المنتظمة صوب العقل، كذلك لن يتيسر للقراءة المعاونة في إرشاد عقلك إلى ما تتوهم أنه الطريق السوي؛ فسكون تام أو عشر دقائق عند نافذة مفتوحة، أو أحياناً قدح من الشاي، حري بأن يقربك من نبع أفكارك الأصيل أكثر من أي شيء آخر .

و حين يرخى سكون عقلك غير العادي غلالة من الهدوء على قلبك، و حين

يطير فراش تشتت الذهن مبتعداً عنك ، فإنك ، تكون على استعداد للتركيز ،
ولكنك قد تجد نفسك ، على الرغم من ذلك ، تواجه خواء ، وكثير من
العمال العقليين يحسون أن جهودهم لإزالة التوافه يبدو أنه قضى على الأسس
الأصلية أيضاً ، ويروحون يتساءلون : « ماذا أريد أن أفكر فيه ؟ بم أهم ؟
هل أنا مهتم بأى شيء ؟ . »

وقلما يعاني الإحمال أولئك القوم ذوو الذاكرة القوية ، فعند أقل إثارة
تتفتح مغاليق أدراجهم أو صفحات أسفار خرائطهم ويشعرون بكفظة من القرائن
والوقائع ، والرزم الذى يلازم معظم أصحاب هذه الموهبة هو أن وقائعهم مكررة
معاراة من آخرين خالية من أى تحسين ، وعلى النقيض من ذلك أولئك القوم
الذين يشعرون أنهم يعملون فى مادة حية ، وانطباعات وضروب من الإلهام
أو العواطف ، راضين تماماً بعقولهم يوماً ، ونافرين منها يوماً آخر ، كما
يصح القول ، يعيشون فى انسجام زوجى مع طبيعته ، ووجودهم العقلى لون من
الدراما ، ويجعلهم عوزهم للذاكرة يشعرون بحاجتهم للاستمرار ، ويحاولون
جاهدين عودة الاتصال بأنفسهم ، ليكونوا فى سباق التغييرات المتتابة الطبيعية
لوجودهم الواعى أو الباطن ابتداء من أيام طفولتهم حتى الآن ، وليست ذاكرتهم
لوحة مسطورة ولكنها على الأرجح وعى بأنوار كاشفة قليلة: ذرى من الاهتمام
تتجمع حولها بالفطرة وقائع ثانوية ، ومن الواضح أن المؤرخين من أمثال ميشليه
وكارليل حاثرون على ذاكرات مرتبة على هذا النمط ، ولكن الأسطر الرئيسية حتى
للكتب من أمثال « الإمبراطورية الرومانية » لمؤلفها جيبون ، وكتاب « المدينة
الأثرية » لمؤلفه فستل دى كولانج ، تظهر اهتماماً طاعياً ترجح فيه كفة التفكير
المجرد وعلى الرغم من هذا فهو منتج للمادة المتبلورة الصالحة ، وعلى النقيض من

هذا كان موسم — الذى أنا مدين له بالتحدث دون توقير — حائزاً على
ذاكرة يمكن الاعتماد عليها ولكنها غير عضوية ، وينبغى أن نوجه جهدنا
لاستئناف مسيرنا من حيث أقلعنا آخر مرة كنا فيها مستكملى النشاط الحيوى ؛
ولزام علينا ألا نتناول الصحيفة اليومية دون أن نتذكر أن اهتمامنا بالسياسة ،
أو بتعبير آخر، اهتمامنا بالتاريخ المعاصر ، لا بد ألا يكون مجرد حب استطلاع ،
إننا نود أن يزداد نصيب العالم من العقل ، ويقل نصيبه من القسوة ؛ وإذ وجد
رجل أو قطر يوفر لنا آمال التحسن الذى يتكهن به أولئك المتنبئون الصالحون
من جميع الأقطار ، فإن مسار ذلك الرجل أو ذلك القطر هو الذى نصبو
أن نقتنى أثره ، واستمرارنا على هذا المنهج من الحياة تهيئه ظروف ذاكرتنا
والجارى تركيزنا .

وتهيئة دعامة خلفية مناسبة هى الطريقة المثلى لإحراز التركيز ذهنى الذى ،
لدى النظرة الأولى ، يتم الحصول عليه بالإسقاط ، إسقاط الصور الذهنية التى
لا تنسجم مع مجرى فكرنا ، وهذه الدعامة الخلفية ليست سوى مضاعفة الصور
المتناسقة ، وإذا أردت أن أركز ذهنى على عزلة أمريكا مثلاً ، بغية فهمها ، فلزام
على قبل كل شيء ، إخلاء قوة الحس عندي ، من كل مضايقة سببتها ضروب
الدفاع الغبية عن هذه العزلة ، ثم على أن أعمد سريعاً إلى خيالى فأعمره بأفكار
شائعة عن أمريكا — وأفضل ما يحقق هذا هو اتساع بحيراتها أو صحاريها ، وخلوها
من الجيران المتطفلين ، وقدرتها على الاكتفاء الذاتى ، وميلها للتماثل الموحد ،
وتحويها المثير العجيب لكلمتى « أجنبى » و « شخص أجنبى » — وإنى
لأستطيع أن أتذكر أن سائق التاكسى الرومانى ، الذى ركبت معه يوماً
وأنا فى نيويورك ، تحدث إلى عن وطنه ، الذى رحل عنه منذ أكثر من

عشرين عاماً ، كما لو كان قد استبدل المطهر بالسماء ، وقد ساعدنى على أن أفهم « مهاجرى أمريكا القدامى » وهم القوم الذى نفضوا الغبار عن أقدامهم فوق القارة القديمة — نقيض المستعمرين تماماً — وساعدنى المهاجرون بدورهم على أن أفهم الرنين ، الناثر المتحدى ، لكلمة « أمريكى » فى صحف عهد ما قبل الثورة التى كنت أعود إليها بين الفينة والفينة ، وفى هذا الكفاية . فإذا تذكرت فى النهاية أن أوربا تبدو للأمريكى القابع فى دياره كتنين جاثع متعدد الأفواه ، فقد كمل التركيز الذهنى عندنى ، ولست أفكر فى شىء سوى عزلة أمريكا ، وأتقن فهمها إلى حد أنه لولا وجود مجموعة من الصور الذهنية عن كذب لا شتركت فيها فوراً ، وإذا ضاعت هذه الصور فلن يعرف تشتت الذهن طريقه إليك .

هذه هى طريقة التفكير الأصيلة الطبيعية ، فكل أفكارنا تصدر عن مثل هذه المجموعات من الصور الذهنية ، وحين نريد أن نسترد الحياة لفكرة تجسدها الألفاظ فإننا نستعيد بالفرينة الملابس المحسوسة التى انبثقت منها ، ولا يختلف عن ذلك الخطباء الذين يفتنون اللفظ فإنهم يهينون لأنفسهم الحالة النفسية — بشقيها العقل والتصورى — التى ستفيض منها الفصاحة الأصيلة ، فجهاز الخيالة (السينما) الذى يقوم فى أعماقهم لعرض الصور التى تنفعهم ليس — كمعظم سلاسل الأفكار المجردة — تحت رحمة ضروب تشتت الفكر ، ومن العسير أن يقطع حبل هذه الصور ما يدور حول مائدة الطعام من لفظ ، أو ما يتتابع أمام نافذة العربة من مناظر طبيعية .

وئمة طريقة موفقة أخرى للتركيز الذهنى ، أو بعبارة أخرى ، تهيئة انتباه

المراء ، هي أن يمسك بيده قلمًا ويستعد لتدوين ما يمليه عقله : ففي هذه الحركة بالذات توجيه أمر يندر أن يقاومه أشد الأذهان تشتتًا ؛ وقد قالت لي يوما كاتبة ناجحة سألتها عن طرائقها في العمل : «أتناول صفحة بيضاء غير مسطورة ، وقلمًا ، وأجلس إلى منضدة خالية عارية من كل شيء ، وسرعان ما ترد قصة على خاطري فأكتبها» ، وكذلك كان الحال مع أنطون تشيكوف الذي كتب للمجلات قصصًا لم تكن من الصنف الذي تؤثره المجلات كما كانت قصص هذه السيدة ، ولكن عملية الصفحة والقلم هذه لا يتحقق نفعها إلا إذا كنا ننشد ، بنوع خاص ، الوضوح واليقين ، كي نعقد العزم فيما يتعلق باتجاه ما .

وبصرف النظر عما يستحوذ على اهتمامنا الحيوي ، من الأشياء المحسوسة بقسط قل أو كثير ، مما تتركز عليه أنانيتنا دون حافز أو معلم أو نصيحة من الخارج ، فإننا نقضى حياتنا في غموض ، ومعظم الرجال والنساء يموتون دون أن تتكشف لهم غوامض الحياة والموت والدين ، أو السجايا الخلقية والسياسة ، أو الفن ، ويخيل إلينا أن الآخرين من الناس ، يعرفون بالضبط ما يقر عليه رأيهم فيما يتعلق بتربية صغارهم ، وكنه حياتهم العملية ، أو فيما يتعلق بالطريقة التي ينبغي عليهم أن يستخدموا بها أموالهم ، وتساعدنا الفكرة على أن نتخيل أننا بالذات لا تفصلنا عن البت في هذه الاتجاهات الهامة سوى غلالة رقيقة من عدم اليقين ، بيد أن الأمر ليس كذلك فأناس آخرون ، مثلنا بالذات ، يعيشون في غموض دائم ، ويتوهمون ، في غياب مثلنا ، أنهم يفكرون في موضوع معين هام ، بينما هم لا يفكرون قط إلا في التفكير حول هذا الموضوع ، وحين يلتقي هذا السخف الرعاية بعض الوقت في عقلنا الباطن نقرر أن السؤال لا يتيح إجابة ملزمة ، ونصرف وفقًا لضغط الظروف ، أو لنصيحة عابرة ،

أو شعارات الساعة ، ومثار العجب أن القليل من الوصايا يعبر حقاً عن إرادة أصحابها ، فإذا كانوا لا يستطيعون قط أن يعرفوا حقيقة أفكارهم ، فقد أملى الوثيقة محام أو ذو رحم .

ولو أننا جلسنا وأمامنا صفحة خالية ، وكتبنا على عمودين ما يرد على خواطرنا من حجج تدعم فكرة ما وأخرى تنقضها ، فإن الحق سيتبلج لنا ؛ وأما أن تبهرنا دلالة بعض الاعتبارات أو ندرك ، في غير قليل من العجب ، حاجتنا لأن نشد النصيحة في هذه النقطة أو تلك ، نصيحة من ؟ لا تعد القهقري إلى الفكرة المضللة عن مجرد التفكير في التفكير حول الأشخاص اللائقين ؛ خذ صفحة أخرى ، ودون بها ما يعينك من قبول ورفض فيما يتعلق بالناصحين ؛ وبدهى جداً أنك ستحتفظ بالورقتين في مطروف واحد ؛ وهذا سيصبح ملفاً ، يماثل من كافة الوجوه تلك الملفات التي تبت في مصائر الإمبراطوريات .

وقد لجأ روبنصن كروزو إلى هذه الطريقة كي يستمد منها العون حين عجز عن أن يجده في أي شيء آخر ، ووصفها القديس أجناطيوس لويلا ، في إسهاب ، وجعلها الأساس للحياة الروحية في جمعيته «الجزويت» ؛ وقليل من الناس هم الذين يعلمون أن مجلدات المذكرات الخمسين التي خلفها ذلك النصيح الذي لا يبارى ، الأمير ألبرت ، تضمنت التحضير المسطور للمقترحات التي اعتاد أن يقدمها للملكة فكتوريا ، ولو جربت هذه الدورة المنظمة مرة فإنك لن تهجرها أبداً ؛ ولكن يجدر تحذيرك من أن العادة حرية بأن تصبح ذات سلطان مستبد ، وستتأس آليا قلمك ، وورقاً للكتابة ، ليس فقط حين ترغب في البت في بيع منزلك بل حين تنوي أن تحزم حقائبك للسفر أيضاً ، إن لكل شيء مساوئه وسأبين بمزيد من التفصيل بعض المساوي التي تنجم عن تحديد المرء لفكرة

بالكتابة ، بيد أن حسم الأمور بالرأى القاطع ضرورة لا مناص منها ، ومن الأفضل للمرء أن يكون في رأيه بتاراً كالسيف من أن يكون متردداً كريشة في مهب الريح .

وعلى العموم فإن التركيز الذهني حالة طبيعية يمكن تهيئتها في يسر بوسائل بسيطة ، ويتوهم بعض الناس أنها غير مألوفة لسبب واحد وهو أنهم لا يحاولون ، وفي هذا الشأن ، كما هو الحال في شئون أخرى كثيرة ، يموت الجائع والخيرات مكدسة على قاب قوسين أو أدنى منه ، ولم يقشل قط في المحاولة أولئك الذين أقدموا عليها ولكنهم خبروا الفشل في أنفسهم أحياناً . وقد يفصحون عن شكواهم قائلين « لست أجد سوى أفكار عادية » .

« أجل ، ولكنها أفكارك الخاصة ، ومن الأفضل أن تنتج أفكاراً عادية ، على ألا تنتج إطلاقاً » .

« الواقع أنتى أرى لمجات من أغوار الحق ، أو أشعر في أعماقى بومضات متألقة ، ولكنها تختفى كأضواء الجبابب الطائرة » .

« لك الطوبى والرغد فستكون متألقا ، وإن لم تصبح فصيحاً » .

ومنذ بضع سنين جلست لتناول الطعام بجوار سيدة أمريكية ، استحوذت على لبي بحصافة أحكامها ، ولكن شطحاتها كانت دائماً تخيب ضروب الترقب التي كانت تتجدد دائماً ، ومع ذلك فلا أستطيع قط أن أفتح جويير لمطالمتها دون التفكير فيها ، فهو أثر جليل لإحدى سيدات المجتمع ؛ ثم ألم يسلم موتانى ، دون اكتراث كبير ، أنه يستطيع « معالجة مشكلة ما مرة

أو مرتين بعدها لا يجد مناصاً من الاتصاف عنها « ؟ وطريقة تفادي هذا يعرفها الصبيان الذين يحاولون معرفة الوقت من ساعة على بعد ميل منهم ؛ فليس من المرتقب أن نفعل سوى أن نستخدم أقصى إمكانياتنا .

(ج) تدبير الوقت :

أحقاً يعوزك الوقت ؟ هل أنت صادق التعبير عن مشاعرك ، أو أنك تردد ما يقوله كل شخص سواك ؟ عدم توافر الوقت ! ذروة الفقر ! لعل فكرتك عن توافر الوقت ليست توفير بعض الوقت لنفسك ، بل هي توفر كل الوقت ، عدم القيام بعمل أى شيء : اختر ضميرك وأجب

بديهية . يجد القوم المزدحمون جداً بالعمل الوقت الكافي لكل شيء .

وبالمثل ، لا يجد القوم ذو الفراغ الهائل الوقت الكافي لأى شيء .

لعلك لا تعرف معنى التركيز الذهني ، فإذا كان الأمر كذلك ، بع كل ما تملك ، واترك أعز الناس وأقربهم إليك ، وبعد أن تعيد مطالعة الفصل السابق كرس ثلاثة أيام أو ربما ثلاث ساعات للتدريب على التركيز الذهني ، فسرعان ما يتضح لك ما إذا كنت تعرف كيف تركز ذهنك أم لا . وفي غضون ذلك يستحسن أن توجه إلى نفسك بضع أسئلة .

١ - بخصوص توفير الوقت :

أليس لديك وقت يمكنك استصلاحه ، لا من عمالك ، ولا من مرانك ، ولا من أسرتك أو أصدقائك إنما من متعتك التي لا تضيف عليك في الواقع كثيراً من المتعة ، ومن الحديث الأجوف في النادي ، ومن المسرحيات الرخيصة ،

ومن عطلة آخر الأسبوع التي قد تعوزها البهجة أو الرحلات غير الموفورة
النفع ؟ .

هل تعلمت كيف لاتستسلم لنوى البطالة ؟ ، أتستطيع أن تصمد ضد الغواية
لتوفير المتعة لقوم لا يحتاج كسلهم للمعونة ؟ ، هل تفرق بين الشفقة والضعف .
فلا ترفض قط إسداء يد العون ولسكنك ترفض دائما أن تكون غرا ساذجا ،
هل أنت عبد دائم لجهاز التليفون ؟ .

أتعرف كيف تجمع شظايا الوقت وأشتاته لثلا تضيع هباء ؟ ، أتقدر قيمة
الدقائق ؟ ، كان لرجل من أسرة لمواينو زوجة اعتادت أن تتركه دائما ينتظرها
بضع دقائق قبل العشاء الذي كان يقدم آنذاك في وضح النهار في الساعة الثالثة ؛
وبعد حين ساورته فكرة بأن في استطاعته أن يكتب ثمانية أو عشرة سطور
خلال هذه الفترة ، ومن ثمة أعد ورقا ومدادا لهذا الغرض في مكان مناسب .
ومع مضي الزمن — فالأعوام قصيرة ولكن الدقائق طويلة — كانت الثمرة
بضع مجلدات من التأملات الروحية . إن الجنس البشري يمكن تقسيمه إلى .
السواد الأعظم من الناس الذين يمتنون أن يتركوا منتظرين لأن الانتظار
يصيبهم بالسأم والملل ، والقلة السعيدة التي تؤثر هذا الانفراد لما يوفره لها من
وقت للتفكير ، ولا مشاحة في أن الأخيرين يقودون غيرهم جميعا .

ماذا تفعل حين تكون بقطار أو عربة أو تاكسي ؟ ، إذا كنت لا تفعل
شيئا وأنت راض تماما ، فلا لوم ولا تثريب ، أما إذا أحسست قلقا فليس
غيرك من يلام ؛ وقد كتب ترولوب ، الذي كان يشتغل « قومسيونجيا » ،
فصولا كثيرة في القطار ، وإني لأنصحك بقراءة هذه الفصول ، فهي تتحقق .

اهتمامك ، وترولوب لم يبل قشيبه . وليس في استطاعتك أن تقرأ أو تفكر دون أن تتجنب الجماعة : ولا شك أن الناس سيعلقون قائلين : إن « فلانا » يحتلى بنفسه كثيرا ، ولكن لا مناص من ذلك ، فما دمت تحاول أن تفكر فعليك أن تتوقع قليلا من الانفراد دون التعالي .

أحمل كتابا صغيرا ، كتابا صغيرا جليل الشأن في وصف الرئيس اليوت أو أنه... يا للبهجة ! سفر من كشفك ، يجيب قبيصك ؟ — « لم يتم هذا » — « أوه » ! « أرجو المذرة أقصد أنها رزمة من أوراق اللعب دون شك ، اغفر لي تشتت ذهني . »

متى تستيقظ؟ ألا يمكنك التبكير ساعة أو نصف ساعة؟ ، إذا انقطعت عن القراءة بالفراش وهي عادة ينهى عنها جميع أطباء العيون وغير قليل من الأخلاقين — استطعت ذلك ، وما من أحد قط استطاع أن يوضح لم يصف تعلم اللاتينية ذلك الشعور الغريب بالتفوق على الناس ، ولكن هذا ما يحدث فعلا، ومثل هذا اللغز تماما يجري فيما يتعلق بتوفير وقت الصباح — وقد كتب فنيون إلى سيدة يقول « نظفي خندق الصباح لأجل العمل العقلي » — وهذا يؤدي المهمة على وجه ما ، وساعة في الصباح تساوي اثنتين ، والخواء الذي لا مناص من حلوله خلال الساعات المتبلدة التي تأتي في أعقاب ذلك لن يطغى عليك خضمها .

٢ — حول تبديد الوقت هباء :

أتسمع نفسك كثيرا وأنت تقول : « لقد نسيت » أو « لم أذكر » ؟ هذه العبارات العجلى تعني أنك تضيع الوقت ، وأن عليك أن تطأ أرضاً مطروقة

بضع مرات ، بسبب خطئك ، ينبغي ألا تنسى قط ، وإن نسينا مرة آثار
الأمر عجيبنا .

وسيتعذر عليك أن تنسى ، كما أنك لن تتلمس متخبطاً عوداً على بدء ، إذا
أحرزت عادتتين يسهل الحصول عليهما : هما التبصر والنظام ، والتبصر
معناه تصور الشيء قبل وقوعه ، فمن السهل توفير ربع ساعة بعربة البولسان
إذ فطنت إلى لوازم المساء أو الصباح التي ينبغي أن تضعها في القعة من
محتويات حقيبة سفرك بدلاً من ضياع الوقت بعد ذلك في تلمسها بأصابعك
والبحث عنها وأنت عابس الوجه ، وتخيل أن الفحص الجركي معناه أن يكون
مفتاح حقيبة سفرك الضخمة بجيب واضح غير منسى ، وإذا كنت عرضة
لاستجواب موظف الجوازات والهجرة ، فلا تعتمد على جواز سفرك بمفرده ،
ولكن جهز في حيازتك خطاباً ، بعد طلبه مقدماً من مضيفتك الأمريكية ،
مشيرة فيه إلى رحلات نهاية الأسبوع بلونج أيلند أو بالأوبرا ، دون أن تشير
إلى إلقاء محاضرات ، فهذا معناه دون شك الإلحاد أو البلشفية . وإذا نسيت
أن تكتب في طلب هذا الخطاب قبل الإبحار بأربعة أسابيع فلن يصل إلا بعد
رحيلك ، وإذا نسيت في مقصورتك بالباخرة ، واضطرت أن تعود
لاستحضاره منها وسط استياء غيرك من الأجانب وسخريتهم ، فستجد أن
حقيبتك الضخمة قد نقلت خارج مقصورتك وأنها في طريقها إلى قسم
المهمات.

هذه تمرينات أولية في البصيرة التخيلية ، ويحتمل بك أن تتخيل مترقباً
احتمالات أكثر أهمية مثل الزواج ، والشيخوخة ، والمرض ، والموت أو
الجنون ، والفشل في هذا أو النجاح المبتور في تلك ، والأخطاء من جانبك

وخيانة الوطن أو الغباء من جانب الآخرين ؛ تبين ما يخبئه لك الغد ؛ لا تكن شاة تنعى أو حملاً يقفز في مرج متهوراً ؛ وكما تظهر لك مخيلتك الأشياء في الصورة المحتمل وقوعها ، دون إسراف في رداءتها ، قيدها واحتفظ بالذكريات في عناية ، فسرعان ما تجد نفسك ، وقد غمرتك الدهشة ، حائزاً على مذكرات مسطورة تنبئك في تفصيل ووضوح ، ما يلزمك فعله استعداداً للنقل أو البيع أو أى شأن آخر من الشؤون الهامة .

وقد تصيح في ضجر قائلاً : « يا للمال ! . . . لشد ما تستعبدنا الأشياء ! »
— لا ، بل قل : « يا للحرية ! يا للاستقلال والأمن ! إن كراسة مذكراتى ثروة ، ومثلها الملف الضخم المسجل فيه أخطأى للمطالعة الخاصة النافعة .

والنظام شقيق البصيرة كما تستطيع أن تقين ذلك ، وغريب أمر ذلك الإنسان الذى يرقب أن يزور زبداً من الناس ولا يضع فى جيب معطفه ، الذى سيلبسه ، الكتاب الذى استعاره من زيد منذ زمن طويل ، ومن دلائل النظام ، وإن بدا غير ذلك ، وجود منضدة بردهة المنزل وقد تناثرت عليها الأشياء المزمع إرسالها ، أو تناثر المذكرات فوق السجادة حول مكتبك ، فينبغى أن توضع الأشياء حيث يتعذر نسيانها .

* * *

« أو ائمة أنت يا سيدتى العزيزة من أنك تعرفين الفرق بين النظام والأناقة ؟
فخذك أنيق دون شك ولكن أين ذلك الخطاب الهام الذى وصل من المحامى يوم السبت ؟ » . . . آه أين هو ؟ ماذا ترى لو ألقينا نظرة عابرة تحت غطاء هذه الأدراج الجميلة ؟ يا للمجموعة الهائلة من الخطابات : بعضها داخل

مظاريفها ، وبعضها خارجها ، ومن الفواتير والدعوات وتذاكر حفلات
الموسيقى والبرامج القديمة وغيرها ! وكم مرة ستندفع الأنامل الناعمة الرقيقة
كالسهم المنطلق نحو كومة من الأوراق ، في اعتقاد راسخ أن الخطاب لا بد أن
يكون هناك ، فلا تخرج منها إلا بنفاد صبر الطائر الطنان حين يبوء بالفشل ! .

والآن فلنعالج الأمر بقليل من النظام : فلنضع الخطابات المفتوحة فوق هذا
المقعد ، والأخرى فوق هذه المنضدة ، ولنضع الفواتير فوق هذا المعجم ، وكل
ماعدا ذلك في سلة المهملات .

« على رسلك ! على أحد هذه البرامج ، أوه ! على أحد هذه البرامج
سطران لكراشو لن أتخلى عنها مهما كان الثمن ! » .

« هاها ! فآين نضعهما ؟ » .

« آه أين ؟ بمجلد تاريخ الأدب لكبيريدج قسم كراشو ؟ . . . »
« لا ، ليست هذه هي الطريقة المثلى ، هيا واستحضري مظهروفا متينا
كبيراً ، وافتحيه من أعلى واكتبي عليه كراشو ، وضعي فيه ذلك البروجرام ،
واحفظيه فوق رف بمكتبك ، فلن يمر وقت طويل حتى يتجمع من هذه
المظاريف خمسون أو أكثر وسيقول زوجك في إعجاب إن مكتبك منظم
حقاً والآن ألق نظرة على الخطابات المفتوحة ؛ مشار دهشتي أنها خالية
من أية علامة حمراء ، حسنا ، عليك إذن أن تقرئي الخطابات بأكملها
مرة ثانية كلها خطابات لا فائدة منها ! لماذا تحتفظين بها إذن ؟ مزقيها إرباً
وألق بها إلى سلة المهملات » .

« هذان الخطابان من مسرّ تشمبرز أريد أن أحتفظ بهما » .

« أحضرى مظروفاً كبيراً ، واكتبي في قمته تشمبرز ، وضعيه بجانب مظروف كراشو ، عليك بالبساطة » .

« هذان الاثنان ، هذه الأربعة ، هذه الخمسة عشر ، لامناص من الرد عليها » .

« يا للسماء ! أفهم الآن لم يشكو جميع الأجانب من عدم رد الأمريكيين على الرسائل وهم أعظم الشعوب في العالم انغمساً في العمل ، أجل إنهم لا يستطيعون غير ذلك ، ولكنك سيده ، ولزام عليك الرد على الرسائل ، وإذن نخذي خمسة عشر مظروفاً ، وضعي فيها الخمسة عشر رسالة ، وفي حمو قلبك اكتبي خمسة عشر عنواناً ، ومنذ الآن فصاعداً ، حين يصلك خطاب علمي بالقلم الأحمر على الفقار الهامة ، واسألني نفسك ما إذا كان هذا الخطاب لسلة المهملات ، أولرف تشمبرز — كراشو ، أو للحكومة التي سيرد عليها ، فإذا كان للأخيرة ، ضعي الخطاب في مظروف ، واكتبي العنوان ، وألصقي عليه طابع بريد — إذا كان الخطاب مرسلًا لباريس ، فتفضلي ، أجل تفضلي بوضع طابع بخمسة سنتات لا باثنين كما تفعلين دائماً — وكلما ازداد ارتفاع هذه الكومة من الرسائل التي لم تردى عليها ، ازداد تأنيب ضميرك لك ، وشعورك بالضيق من شأنه أن يدربك على الفضيلة .

« عجباً ! ها هي الأدراج خاوية ! وها هي سلة المهملات قد امتلأت ! وها هي بسمة سعيدة عجيبية تداعب شفقتك ! وإنك لتعرفين الآن الفرق بين الأناقة ، وهي ضرب من الرياء ، والنظام الذي يعنى مكاناً لكل شيء وكل شيء في مكانه ، سواء أكان رفاً أم مظروفاً ، أم سلة مهملات .

« لا تقولى إن الأمر لم يستغرق سوى نصف ساعة لتنظيف القمطر الصغير وإنك من ثمة لم تضيعى سوى ثلاثين دقيقة لمدم مراعاتك للنظام ، فبنفس الفوضى التى كانت فى قطرك كانت أيضاً فى عقلك ، وحتى فى حياتك ياسيدتى العزيزة ، قد أضعت الوقت ولم تهتمى به كثيراً ، ولكنك كنت ، إلى جانب هذا ، غير مثمرة ، كلاعبة التنس المسكينة التى تتخبط دون أن تسدد للكرة ضربة صائبة ، فينبغى أن يكون مثلك الأهل دائماً ألا تضيعى خطوة أو لفظاً أو إيماة ، والتهاون ضد الرشاقة ، بل إنه يقينا ، فى كل شيء ، ابن عم لثلاثة الطبع .

والتردد قبل العمل يلى فى الترتيب عدم النظام ، وهو من أشد الطرق فتكا فى ضياع الوقت وإضعاف حياة المرء ، وقد عاد صديق لى ، بعد أن قضى أربع سنوات بمعسكر الاعتقال فى ألمانيا مصاباً بعجز عصبي عن البت فى الأمور ، وفى يوم ما رحت أراقبه وهو واقف أمام مشاجب القبعات حيث قضى دقيقة كاملة متردداً فى أى مشجب يضع عليه قبعته العسكرية ، وكان المنظر يدعو للرتاء ، فالتردد يضايق حين يكون نتيجة ، لا لاعتلال الصحة ، بل لانعدام النشاط أو الذكاء أو النهاج ، ويستطيع بعض الناس ارتداء ثيابهم فى أربعين دقيقة لأنهم تعلموا الطريقة الآلية التى اعتاد السيد برجسون تزكيتها فى إغراء ، بينما آخرون يقضون ساعة ونصف الساعة ، إما لأنهم يترددون قبل البت فى الأمور التى ينبغى أن تكون مجرد إيماة ؛ فتراهم يتطلعون حوالىهم متحيرين ماذا يأتى فى الأعقاب ، أحياناً يطلون من النافذة ، أو يدخنون لقدح قرائهم ، أو يترددون طويلاً جداً للمفاضلة بين بنيتين أو رباطين للعنق .

وثمة لفظ فرنسى قديم مازال باقياً فقط ببعض الأنحاء الشمالية يصف هذا

مصوراً ، وهو العقل « Tourniquer » الذي يظهر لنا شخصاً يتحرك ، دون هدف ، في دائرة حتى تهبط عليه فكرة لعمل معين ، ومن المؤكد أن بالدوران ميلاً لأن يستمر مدة أطول بينما يتباطأ إلهام الفكر ، ويستنفد بعض الناس حياتهم التي تبدأ على هذا النمط ولا تبدأ لتبدأ ، وأن خمس دقائق أمام صفحة من الورق وفي قمتها سؤال فوش المشهور : « ما الموضوع ؟ » وقلما لإجابته ، من شأنهما أن يلاشيا أثر التعويذة الشريرة ، ولكن التردد المزمع لا ينشد أى علاج ، فرده على نفسه هو : « علينا أن نفكر أولاً في الأمر وتدبره » ولكن التفكير لا يبدأ قط ؛ فالواقع أن كلمة « يبدأ » تثير القزع ، وما من شيء يستطيع أن يكون أكثر صدقاً وأوفر تشجيعاً للناس الموهوبين بقسطين متعادلين من الرغبة البشرية للعمل والاستمرار البشرى للكسل من العبارة اليونانية : « البدء نصف الشيء » ، والكتاب يعلمون هذا جيداً ، وينبغي أن يتعلم الطلاب في المدرسة مدى صدق هذه العبارة ، هب أنك كلفت بكليتك أن تكتب مقالا عن رونسار ، فاذهب رأساً إلى الأستاذ الفرنسى الذى يستطيع أن يسلمك قائمة من اثني عشر مقتطفاً تظهر لك رونسار فى أروع صورة ، من حيث السمو ، ومن حيث الرقة ، وفى أسوأ صورهِ اليونانية اللاتينية إلخ ، ثم توجه رأساً لمنزلك واقراء هذه المقتطفات ، مسجلا مذكرات بما تلاحظ وبطريقة رد الفعل عندك ، ولا تضيع وقتاً وصنف هذه المذكرات ، وفكر فيها حتى يكسو بعض اللحم هذه العظام ، ودون أن تبدد الوقت هباء دون ماتريد قوله ولا تزد عليه شيئاً .

ويمكن إعداد إرادتك وشحذها بنفس الطريقة ، وكذلك الحال فى ردك على مقترح بمشاركتك فى عمل ما ، وأيضاً فيما يتعلق بمملكِ الكيفيلية لإقناع

زيد من الناس كى يقبل انضمامك لشركة ، تعلم مجابهة الأشياء ولكن وفق
أصح الطرق العلمية ، كن مثل لندنبرج أول طيار عبر المحيط الأطلسى — الرائد
الأول لأى محيط صغير لا مناص لك من اجتيازه ، ينبغى أن تتألف حياتنا
من ألف دراما قصيرة ، كاملة فى ذاتها ، عاجلة كلعبة البوكر ، وقد هيا لى بعض
رجال الأعمال متعة فنية صادقة بسلامة ما يملون ، فكل رسالة منهم كانت تعنى
وزناً عاجلاً لهم وما عليهم ، وقراراً حاسماً ، ويتم الأمر فوراً ، فى حين أن
رجال أعمال آخرين . . .

ألم تشرع قط فى تعلم الفرنسية أو الألمانية ؟ نعم ، وهل تشعر كما لو كنت
راغباً فى أن تبدأ ثانية ؟ صدقنى ، إن الأفضل ألا تبدأ ، فينبغى أن تكتفى بتجربة
واحدة ، ذلك لأن شيطان التردد يجد مسرته فى أن يخبر الناس أنه يلزمهم
تعلم اللغات ، وحبذا لو قمت بجمع صناديق الكبريت مثل الأمير الروسى فى
قصة « سلفستر بونارد » ، الذى لم يعوزه منها سوى صنف واحد وقد ملأ
حياته بالبحث عنه ، وحبذا أيضاً لو بدأت اليوم ، هذا الصباح بالذات ، أى
لون من العمل الاجتماعى الذى يمنحك الحق فى أن تتناول طعامك دون
شعور بالخجل .

وإذن فىمكن « صنع » الوقت وليست العبارة المسبوكة خسداً ، وإذا
أحرزت قوائم بأشياء تؤديها فى ظروف معينة (قبل الذهاب للريف — قبل
الإبحار — قبل البدء فى دراسة ما) وإذا كانت يوميتك جدولاً واضح التقسيم ،
يبين لك فى لحظة ما يلزمك عمله ، أصبحت شخصاً مزدحماً بالعمل ، ولكنك

ستنال إحساساً بالقدرة على الأشياء ، وإذا عرفت كيف تركز ذهنك ؟ أو
بتعبير آخر ، كيف تستخدم الطرف الحاد من عقلك ، وكان لديك الوقت
وامتلكت الآلة ، فلن يعوزك سوى مادة الفكر الصالحة ، وقد خصصت فصول
الكتاب التالية لهذه المادة .

* * *

الفصل الثامن

كيف يجي المرء حياته على مستوى أعلى

(١) الصور المنتجة للفكر :

تذكر أن عقلنا يقوم بعمله على سلسلة متتالية دأمة من الصور الذهنية المتصلة بقسط صغر أو كبر ؛ وهذه الصور الذهنية ، كما ذكرت ، تميز سليقتنا العقلية . انتقل من معرض لروائع الصور الفنية إلى قسم الصور بمخزن ما ، فإنك ستفطن عندئذ لانخفاض المستوى ، آتيا في أعقاب التفوق ، ومخيلة كل إنسان هي معرض للصور ، فإذا كانت الصور مرئية بدلا من الاضطرار لاستنباطها من الحديث أو من هيئة الشخص السلوكية العامة ، تيسر لنا أن نقوم رفاقنا من الناس كما نقوم أواني الزينة بحانوت ما .

إنه لمن خطل الرأي أن نعمل أكثر من أن نستعيد للذاكرة ما جاء بالفصل الثاني من الباب الأول حول النقص العام للصور الذهنية التي تملأ عقول

معظم الكائنات البشرية ، والتي لا يكاد يعلو كثير منها على تلك التي تؤلف عقلية الحيوان، على أن نتذكر دائماً أن الحيوانات لا يندر أن تعلو كثيراً على الكائنات البشرية في الإحساس أو في القدرة على الحب ، فعقل السكر المدمن أو الريني الجلف لا يعرف إلا القليل بجانب الصور الذهنية المتصلة بالحاجات الأولية ؛ ومختلو الغريزة الجنسية ، الذين يوجد منهم أكثر مما يتصور الناس ، حتى النموذج العادي منهم ، الرجل المتأنق في ملبسه الذي يتبع النساء في الشوارع يكادون أن يكونوا عاجزين عن إنتاج أكثر من صنف واحد من الصور الذهنية ، والبخلاء محبوا المال ، أو أولئك الذين يكونون ثروة على حد التسمية المعاصرة لهم ، تستحوذ على ألبابهم أيضاً مجموعة مستبدة من الصور ، ويلحق بهؤلاء أيضاً رجل المطامع الدنيوية ، المتسلق الاجتماعي الذي يرى على المخطوط الذي في أعماقه ، إعلانات عن ترده على اللجان والمآدب العامة أو الأوسمة والألقاب ، ومن المؤكد أن الطراز المؤلف أكثر من غيره هو طراز الرجل أو المرأة الحبيسة في وجودها التافه ، والتي تعكف دائماً على تفاصيل كيانها البالية الرخيصة ، وتكاد جين أوستن المؤلفة تكون ضارية في وصفها للنماذج العليا من هذا الطراز التافه ، الطراز الذي نحتك معه بالناكب كل يوم .

ويحتمل أن يكون لنا جميعاً كلمة بموسوعتنا اللغوية تصف هذا المستوى المنخفض المتفشى بين الجميع : وقد اعتدت ، وأنا صبي ببلدنا الفرنسية الصغيرة ، أن أخص برعايتي حانوتا يديره شخص يدعى مسيو بايا ، الذي كان أيضاً فلاحاً إلى حد ما ، وغير مجرد تماماً مما يجعل المرء سيداً محترماً ، وكان ربة متوسط

السن مكتنز الوجه ، ومن عجب أنه كان رشيق الحركة على قدميه الصغيرتين ،
وحيثما كان يدور داخل حانوته باحثاً عن ألوان الحلوى الخاصة التي أطلبها ،
كان يصيح بسمعه إلى الحديث الدائر بين زوجته الفارعة العود وبناته
النحيلات بالحجرة المجاورة ، وخرجت يوماً من عنده وقد ساورنى شعور
بالخيبة إذ لم أسمعه يغمغم بتعليقه الممتع على ثرثرتهم قائلاً: « تفاصيل تافهة ...
تفاصيل تافهة » وقد خدمنى هذا طوال حياتى ، فى أن أصنف باطنياً سمات تسعة
عشر جزءاً من عشرين مما أسمع لا مما أقول .

أستطيع أن أفكر كما نهوى ؟ أو أليس تفكيرنا مقدرأً مثل تنفسنا ؟ .

ومن المؤكد أنه لا يسعنا إلا أن نفكر كما أنه لا يسعنا إلا أن نتنفس ،
ولكن كما أن فى مقدورنا أن نتخير استنشاق الهواء النقي فى غابة من الصنوبر
فوق هضبة عالية ، نستطيع أن نرقى بعمولنا إلى حيث تكون الصور الذهنية ،
التي سنعمل على أساسها ، متسامية رفيعة العماد ، ما الذى يمنعنى عن استبدال
ثرثرة الشارع الرئيسى بثرثرة أوربا ؟ فلا يستطيع أحد أن يجد متعة
حقيقية فى شئون العالم دون أن يضيف شخصية حية على ما يعج به التاريخ
من شخصيات معنوية جماعية : الشعوب القديمة بأوربا ، أو شعوب آسيا الغربية
العائدة للحياة ، أو أمريكا البالغة الآن رشدها ؛ أستطيع أن أتكلم عن بريطانيا
والولايات المتحدة كما أستطيع الكلام عن اثنين من جيرانى .

وبالطريقة نفسها كان موسولبنى شخصياً يضيف من المتعة ، منذ عشرين

عاماً ، مثل ما يضيفه الآن بل وأكثر ، ومع ذلك فإن ما نتعلمه عنه يوماً هو
التاريخ وليست الشخصية .

كذلك لا يوجد سوى فرق طفيف بين مصالح وأطماع ومبازل الشعوب وتلك التي تتعاق بالعشائر أو الأسر ، وهو ما ينبغي أن يلقنه ، منذ البداية ، طلاب التاريخ الصغار ، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن المسائل الدولية تتعلق فقط بقلة من المراقبين الموهوبين .

ولا يمكن أن يكون ثمة شيء أبعد عن الحق من هذا ، ولم تسكن مدام سفنيه ، أو القديس سمعان ، أو معظم مؤلفي المذكرات اليومية ، حاصلين على بعد نظر سياسي ، وانكسرتهم يبدون الآن في مرتبة أعلى من رفقاتهم لأن اهتمامهم كان من طبقة جايلة القدر ؛ ويستطيع كل فرد أن يرقى إلى هذا المستوى ، وعليه أن ينحى باللائمة على نفسه إن هو لم يفعل ؛ ولقد فعلها ، خلال الحرب ، ملايين من بسطاء الناس دون أقل معاناة ، ومع ذلك ساروا على المنهج السليم لأن التاريخ كان هو الموضوع اليومي ، واليوم قد انحسروا إلى مجرد قصص وتبدد تفكيرهم وفقاً لذلك ، ومع ذلك فإن ذات عناصر التفكير الرفيع المتراعى تفرض نفسها كل يوم ، ولم أنس قط يوم الأحد عام ١٩١٤ ، والشمس طالعة ، حين كانت ملاحق الصحف المعلننة أنباء سراجيفو ، تباع بالشوارع الكبرى ، فقد أمكنتني أن أصيخ السمع لقلّة من الناس يتحدثون في التاريخ ، واسكن السواد الأعظم انصرفوا عن مأساة هذا التمهيد لأعظم دراما في التاريخ كي يعودوا إلى الفائز بسباق لونجشا ، إذ كان يوم الجائزة الكبرى ؛ ولا يكاد يمر أسبوع ، خلال أعوام التاريخ المثقلة التي نعيشها الآن ، دون أن تعترض طريقنا مثل هذه السانحة للتأمل الطبيعي رغم علوه ، ومع ذلك يصر معظم الناس على التحدث عن جونز أوبراون .

ومن عجب أن يقع كثير من نقاد الأدب المحترفين في خطأ البحث عن

موضوعات مبتكرة بين الشخصيات التي هي أقل أهمية في التاريخ الأدبي، ومن المؤكد أن لبعض الأصاغر أهمية عظمى عند المؤرخ لأنهم، في غير لباقة أو توقد ذهني، قاموا بحركة هامة، ولأثر يوجب وزنه في تاريخ الرومانسية، ولشامفليري، أهمية أكبر من فيلوبير في ظهور الأدب الواقعي، ولكن يكفي كتاب واحد عن يونج أو شامفليري، في حين أن من الممكن تحرير مكتبات كاملة عن بلزاك وفلوبير وبيرون، وإذا سألتني دارس شاب أن أدله على موضوع يمكن الإسهاب في التحدث عنه بما لم يتحدث بمثله أحد من قبل أجبته، دون تردد: «هوميروس، أفلاطون، فيرجيل، ملتون، راسين أو الإسكندر، قيصر، نابليون، أو العصر الرسولي، أو الثورة، أو الموت، أو الحب»، وإنما ينبغي أن يكون الاختيار هو: أي موضوع يحتمل أن يستثير اهتمام طفل متوقد الذكاء؟ ذلك لأن الأطفال لا يهتمون بالتفاصيل التافهة حتى تفسدهم المحاكاة. والأدلة على هذه كثيرة، فأى كتاب عن نابليون لم يكن ناجحاً؟ وهل كان في مقدور سيدة يافعة مثل مدام دي ستايل أن تبرز كما فعلت، لو لم تنجذب عقليتها الرفيعة، من مبدأ الأمر، بمثل هذه الموضوعات الحيوية كالعواطف البشرية، وأسس الأدب والثورة، والرومانسية الألمانية؟، وأي قسم من أقسام مثل ذلك الإنتاج الشامل الذي لست بييف يفيد مطالعته وأيها نغفله؟، وهل نفضل دائماً مجموعة من صناديق الكبريت عن إحدى روائع رافائيل، ولعنة الصحافة اليومية هي أن تفاهة موضوعاتها تدعو إلى معاملتها دون اهتمام كمن يؤدي واجبا بغيضا؛ وحينما يحملنا عنوان مقال عائد بنا إلى شيء خصيب عميق، يفسح الخبر الصحفي المجال لشاعر.

ومن المستحيل أن تقضى ساعة في حجرة مع رجل مشرف على العظمة

دون أن تنالك عدوى التفكير ذى السمات المتميزة ؛ وليس من الميسور دائماً وجود مثل هؤلاء الناس ، أو لعل فرص التقائنا بهم محدودة ؛ بيد أن فى استطاعة أى امرئ ، على قسط متوسط من المعرفة بتاريخ الشعوب أو الأدب أو محبة البشر أو الفن، ناهيك عن تاريخ عظماء المتدينين أو القديسين، أن يعمر مخيلته بمجموعات من القوم المتفوقين فى كل حذب وصوب ؛ وسأنتهز فيما بعد فرصة لأبين كيف نستطيع استدعاء أى عظيم من الناس لننعم بصحبته حين نحس وحشة الانفراد ، ولكن ساعاتنا الجادة لا يتيسر تكريسها لمهمة أكثر نفعا من دراسة حياة أو أفكار عظماء الرجال .

وقد هيا كتاب بلوتارخ « الحيوانات الممثلة » غذاء ممتازا لعقول النخبة الخاصة من جميع الشعوب حتى اعتبر من روائع الكتب التاييدة بدلا من تناوله ككتاب موفور المتعة ؛ وتخبّرنا مدام دى منتنو، التى لم تكن خلية لملك ، كما يعتقد الكثيرون فى أمريكا، أو بليدة الحس كما يتوهم المحدثون من الفرنسيين فى حماقة ، إن أمها البروتستانية المذهب ، كانت تحتم عليها وعلى شقيقها أن يستخدما دائماً أبطال بلوتارخ فى ألعابهما ومحادثتهما ، ونضيف إلى ذلك أنها كانا يطيعان الأمر بسرور ؛ ولا يطالع الصبي الفرنسى بمدرسته من نتاج بلوتارخ أكثر مما يضطره منهاجه المدرسى كى يخوض العباب صوب امتحانه فى اللغة اليونانية ، ولكنه يستعيز عنه بكتابه المقرر فى الأدب الفرنسى : فالأطفال يهونون غير المألوف ويمقتون الرتبة الفجة فى حياة غيرهم من الناس كما يمتنونها فى حياتهم ؛ وأن مثال موسيه الأدبى لبديل صغير الشأن لديموستين ، ولكن كما أن نقاط ضعف ديموسيه أنتجت فى النهاية أشعار

« ليل أكتوبر » فالاستنتاج الصبياني هو أن هناك وسيلة بارعة لأن يكون المرء عاديا وهذا هو ما ينبغي محاكاته ؛ ويكون عقله مليئا بهذه الفكرة حين تلمح على جبينه جدية غير مألوفة وهو يضع كتبه في حقيبته المدرسية ؛ ومن ذا الذي يستطيع القول بأن فكرة هذا الصبي ليست أقرب إلى التفكير الصحيح مما ستكون عليه بعد عشر سنوات عندما يتجه معظم اهتمام المحامي أو المالى اليافع الأنيق نحو المال أو النجاح أو الزواج ؟ .

ولا علاج للرتابة الفجة في التفكير الذى تنتجه حقارة شهواتنا يمكن أن يعدل التأمل في حياة العطاء ؛ افتح كتاب كليمنصو الصغير عن ديموستين ، وسترى وتلمس قطعا كأنك تلمس بيدك نتيجة التفضيل الدائم لعطاء الوطنيين وعطاء المفكرين في وجود كان من المحتمل أن تجعله الصحافة والسياسة والمبارزة وكل وهج ميادين الخطابة الجوفاء ضحلا ضحضا ؛ ولقد رأيت أكثر من مرة ، من هم أدنى كثيرا من كليمنصو ، من الصالحين الاجتماعيين المتفقيين المتحذلقين يرتقون إلى مرتبة غير مرتقة من الكرامة بمجرد الادعاء أن عملهم يسير على نهج عطاء رجال الثورة ، فجرد ذكر العظمة له مفعول السحر لأننا جميعا ندرك ما له علينا من أثر لا يخيب .

وإذا كنت غير قادر ، في أية لحظة ، أن تسمى رجلا عظيما له ، أو كان له حديث ، أثر على سلوكك ، فتصدر بذلك الحكم على تفكيرك ووجودك بأنهما من الصنف « العادى » ؛ وخلاف ذلك ، أعطى التصريحات العامة التى ينطق بها هذا السياسى ، أو ذلك الذى يسمونه زعيما ، ومن ثمة أستطيع أن أخبرك ما إذا كان مهبط عطاء مفروض من العظمة ، أو أنه مدفوع فقط

بمصالح في الهواء . إن أمريكا لا تدرك كم هي مدينة للحقيقة المسائلة في أن
لنكولن لا يزال كائناً حياً فوق رابية الكايتول ، وأنه لا يمكن تفاديه حتى
ولو لم ينشدها أحد .

غير مقتنعة ! غير مكترثة ! تبعدن أميالا عن لنكولن أو بلوتارخ يا قارنتي
الصغيرة اللطيفة ! آه ! يا هذه الحياة اليومية ! ومع ذلك فليس ثمة ضرورة
لأن يساورك القنوط وتنتحرين بإلقاء نفسك رأساً على عقب في خضم من قطع
الشكولاتة أو سرب من الغلمان ؛ فمن المؤكد أنك تجمين الطبيعة ، وقد
لاقيتك مرة وأنت منفردة سعيدة على الطريق الصخري في نيويورك ؛ وأنت
تهوين الموسيقى والسينما وتهيمن بالخرمات ؛ وفكرة روما تعنى الكثير عندك
حين تعبرين قنطرة المركب المتحركة إلى الدويليو ؛ في هذا الكفاية ؛ فلشد
ما تبرز شخصيتك ، ويبدو عقلك متألقاً مزदानاً بكل ما هو رائع وجميل لو
أنتك بوجه عام استبعدت مالا يضمن عليك أعظم بهجة أنت كفاء لها ؛ ولكن
من أسرار طبيعتنا البشرية أنه حينما تكون مائدتنا مثقلة بأشهى الطيبات نروح
نبكي أمام صوان الأم هو بارد .

(ب) التسامى الخلقى شرط من شروط التفكير الرفيع :

يقول فوفنارج : « تصعد الأفكار العظيمة من القلب » ويقول جوير :
« إن القلوب التي يعوزها الدفاء ، يعوزها النور » .

وعلى الرغم من الرومانسية فإن الفرنسيين المحدثين يبدون ميلاً متزايداً
للعودة إلى ركب اليونانيين في نظرتهم العقلية المجردة إزاء إنتاج الفكر ؛
ولكنهم كثيراً ما يناقضون فلسفتهم بمثل هذه التصريحات الآنف الذكر ؛

والواقع أنه يستحيل العيش دون ملاحظة قدر ما يصيب عقليتنا من الجذب حين يزعمون أنها قد أعطيت فرصا بغير حساب ؛ ومن ناحية أخرى فلا بد أن نلاقى جميعا يوما ما رجالا أدنى منا عقليا ، ومع ذلك لا نملك أنفسنا عن إبداء إعجابنا بأفكارهم ؛ طالع حياة ذلك الشحاذ ، القديس لابر ، الذي كان يعيش في الخرق والأقذار على درج الكنائس الرومانية ؛ وطالع حياة قس آر المتواضع ، جان — بابتيست فيانى ، الذى كان ضحل المواهب العقلية إلى حد أن رفضت الرئاسة الدينية الاحتفال بتكريسه كاهنا ، فى فترة تقلص فيها رجال الدين حتى كادوا ينقرضون ؛ هذان الرجلان لم يعرفا شيئا ولكنهما رأيا كل شيء ، ورؤيتهما للعالم — وهى ما كان سيدهشما أن يسمعا تسميتها فلسفتها ومنطوقها — كانت ذات سمات متميزة رفيعة ؛ تطلع إلى صورتيهما فستشاهد فى عيونهما وعلى محيا كل منهما شيئا متألقا ، شيئا لن يعنى أى شيء إذا لم يكن يعكس الفكر .

والحبة ، سواء أكانت هى جاذبية الحق ، أم الحب الأصيل البسيط النقي ، تفتق الذهن وتضفى عليه حرية النبوغ ؛ وتعمل الأممه أيضا على هذا النمط ، وتبدى الحيوانات هذا بطريقة باهرة حقًا ، وأيضًا — لنقل دون أية محاولة فى الإغراب اللفظى — حتى النسوة المتصنعات يبدن هذا ؛ ويستمر التغيير مادام تيار الحبة يظل متدفقا قويا .

وهكذا يفعل كل حافز عظيم يتسم بالإيثار ويملا الروح بأكملها ، وقد أتاحت الحرب فرصة فريدة لآلاف النساء والرجال الذين تعج قلوبهم بكنوز الحب العميق المتعطل ، وإنى لأذكر سيدة أمريكية معروفة ، زارتنى حوالى عام ١٩٠٨ ، بالقسم الذى كنت أشغله بكلية ستانلاس بغية الحصول على

معلومات عن حركة جماعة « سيون - Sillon » التي كانت آنذاك في عنفوانها ولكنني شعرت بأنها حرة بأن ترحب بمعلومات عن أي شيء من شأنه أن يهيء فرصة لطاقت روحها ، وإني لأذكر الأسئلة المتلهفة بصوت أجش ولكنه واضح النبرات : كل لفظ كشف عن نزوع مكبوت لشيء يحرر رأسها وقلبها ، وقد أتاحت الحرب لها الفرصة التي كانت تنشدها في لهفة وحنين ، فأغدقت من نفسها بسخاء وسرعان ما نالت خير الجزاء ؛ ولقد لاقيتها ثانية في كليفورنيا عام ١٩١٩ ، وكان قد طرأ عليها تغيير شبيه بذلك الذي ينجم عادة عن كل زواج موفق سعيد ، فقد اختفى ذلك الشيء الملىء بالشعور العميق المكبوت الذي جعلها في نفس الوقت ظاهرة الأسي : ولكن حل مكانه امتلاء رائع في عمل العقل وامتلاك لخاصية البيان ، وتحقيق الإنجاز وفق أدق الأحاسيس والمعاني .

وحالتها واحدة من آلاف كثيرة ، فبشر من الصنف الأصيل ، ومشتغل بشئون المستشفيات من غير الأدعياء ، والعديدون من مختلف المشتغلين بالشئون الاجتماعية ، والسيدات من طراز مسز هاو ، أو فلورنس نيتنجيل ، أو الأخت روزالي ، اللاتي كرسن أنفسهن لعمل مثالي مجرد ، كل أولئك قد تغيروا عقلياً تبعاً له ؛ وهم على حد ما اعتادت مدام جايو قوله : يستطيعون أن يكتبوا أو يتحدثوا عنه دون انقطاع . إن عقد النقص العقلي تذوب ، كرقائق الجليد ، في رحاب الحب ، ومن ثم يتم تحرير الروح تماماً .

وليس ثمة مكان يتيح فرصة لمثل هذا التحرير كما هو الحال في الولايات المتحدة حيث يبدو الحافز البدائي ، نحو حالة تعاونية اتحادية أفضل ، في عنفوانه بعيداً عن أن يستنفد نفسه ، ولا شك في أن أي امرئ قام ، ولو مرة واحدة في

حياته ، بمهمة جمع المال لعمل خيري ، علم ، على عكس الاعتقاد العام ، أن كثيرين من الأمريكيين الأثرياء يستطيعون أن يرفضوا دفع دولار ، ولكن بجانب هذا فما من مكان تجد فيه فكرة تستحق التعزيد ، ما تجده هناك من تعزيد ، والسماحة الفكرية — التي يجيء الإحسان كنتيجة فطرية لها — غيرزة عند الأمريكي ، ولذلك فليس عجباً أن يجد فرصاً كثيرة للنمو عن طريق الحب التقى ، وأن يكون التفكير المؤتلف في الولايات المتحدة ، وهو مثلها الأعلى على حد تسمية الناس له ، ذا خاصية عجيبة غير مألوفة .

ولكن إذا فرضنا أن هذه الفرص فانت الرغبة الأمانة ؛ وإذا فرضنا أن جميع الرجال سعداء ، وأنه لم يوجد بشوارع مدينة بوسطن وحدها في عام واحد ست وخمسون ألف هرة ضالة تقاسى العناء ، فهلا يزال ميسوراً الارتقاء إلى منطقة الفكر عن طريق الجهود الأدبية ؟ عطل تيار إدراكك لحظة ، وتطلع في أغوار نفسك ، واقبض على الصور الذهنية التي تتكون وتتلشى هناك ، فما الذي ستراه ؟ من المؤكد أنك ستري صوراً تافهة من حب النفس ، ولكن أكثر منها صوراً تافهة من المنغصات . وليست طبيعتنا نبيلة ولا هي سخية ؛ فنحن نذكر المنات أكثر مما نذكر المروءات ؛ ويحدث أن نكون قد عشنا أياماً في منزل أو في بلد أجنبي ، دون أن نلقى سوى التكريم ، ولكن حالما نشعر بالمضايقة أو الإساءة ننسى السعادة وننمى التذمر الرخيص ، إننا سريعو الإحساس بالإساءة ودائماً متحفزون ، كما أن الاهتمام بمصالحنا الذاتية يستبد بنا ، وكلما تقدمنا في السن ووجب علينا أن نكون أكثر تجرداً ، نصبح على النقيض أشد تحفزاً للفرصة المواتية ؛ وأن مظهرأ مدروساً للصراحة نحرزه على مر السنين يجب حقائق قد لا نريد عرضها للفحص ؛ ومرة قال يوسف

دى ميستر إنه لا يعرف ما قد تكون عليه نفس أحد الأوغاد ؛ ولكنه يعرف جيداً مما تتركب نفس رجل طيب ، وهو شيء فظيع ، وهذا هو الاعتراف الخافت الذى نهمه جميعاً ، وإذن فلا عجب أن امتلأت عقولنا بمحصول خصيب ليس من التفاصيل التافهة فحسب بل من خسيس الرؤى بدلا من الصور الذهنية النبيلة ، ولا يستطيع فكر جدير بالاسم أن يصدر قط من نمو مقيت ، ولكن كما أننا نستطيع أن نؤثر الصحبة الكريمة على الصحبة العادية أو ما هو أسوأ ، وأن نفضل الكتب الدسمة على الهزيلة ، كذلك نستطيع أن نستبعد الفكرة الخسيسة بعد سحقها ، ونستدعى أفكاراً أفضل ، وكما نتعلم أن نجلس معتدلين ، أو ألا نطلق العنان ، حتى فى خلوتنا ، لحركاتنا وسكناتنا ، نستطيع أن نطرد ضيوف الروح الذين لا تشرفنا صحبتهم ، وسيكون جزاء هذا البدء المتواضع فى القداسة مزيداً من الميل للإصاف ومن المشاركة فى المشاعر وهذا مظهر من مظاهر الذكاء ، ويتميز الطيبون من الناس عموماً بالتفكير السليم ، فإذا لم يكونوا كذلك بدا الأمر غير طبيعى ، وانتصرت بخسة تلك الأجزاء السفلى من ذاتنا . الأجزاء المتمردة المتأهبة دائماً للتألب .

(ج) افكار رقيقة من الكتب :

إذا عدت لفقرة « ج » من الفصل السادس ، الباب الثانى ، عن خطر القراءة الضعيفة عرفت ما يتوقعه المرء من هذا ، فمعنى القراءة ، عند معظم الناس ، وسيلة مخزية لقتل الوقت مستورة تحت اسم موقر ، والاستخفاف بالمطبوعات على هذا النمط ، سرعان ما يقلل احتفاظ الذهن بمرونته ، وهذا من شأنه الإضرار مباشرة بفن التفكير .

وإذا أردت استخدام الكتب كحافز للتفكير ، فلزام ألا تكون كتباً
لمجرد التسلية أو تهيئة عقلك للنوم ، بل أن تجعله ، على عكس ذلك ،
سأهراً متيقظاً .

وما هي تلك الكتب ؟ .

ما هي هذه الكتب أنت أفضل من يعرفها ، أما أنا فلا أعرف عنها أى
شيء ، فالكتاب كالمنظر الطبيعي ، حالة من الإدراك الوجداني ، يختلف
باختلاف القراء ؛ فقد يوجد كتاب ما ، أو نبذة ، أو مقال في موسوعة للمعارف
أو قصاصة قديمة من صحيفة يومية دفعتك للتفكير يوماً ما ؛ ويحتمل جداً أن تكون
واحد من أولئك النادرين الذين تكفيهم بضعة أسطر مكتوبة غذاء للفكر ،
لأن أفكارهم على حد قول لا مارتين ، تفكر نفسها ، وقد يكون الشيء
الذي يستهضك شعراً ، أو تاريخاً ، أو فلسفة ، أو علوماً ، أو علوماً أخلاقية
مثل تقدم الجنس البشري ؛ وبعض الناس ، من يداعبهم الكرى وهم يطالعون
كتاباً ، يجدون متعة في مجلة يظنون أنها أكثر إيجازاً أو أفضل بالنسبة
لمستواهم ؛ طالع المجلات إذا كانت تساعدك على التفكير ، أو بتعبير آخر ، إذا
كانت تترك في عقلك صوراً ذهنية تظل حية باقية ، بينما تكون قد نسيت من
أين أنت ؛ طالع سجلا لشكسبير ، بسرعة أربعة أبيات يومياً ، إذا كانت
لإقتطعات شكسبير عاينك ذلك الأثر السحري الذي لها على بعض الناس ؛
طالع علم الجبر ؛ طالع حياة عظماء المخترعين أو حياة عظماء رجال الأعمال ؛
طالع ذلك الصنف من الكتب الذي تعرف أنت ، دون أحد سواك ، أنه
منتج للفكر بالنسبة لك .

ويستخلص بعض الناس شعراً من عشرة أبيات من روائع تومسون

أكثر مما يستخلصونه من كل أشعار شلى ، لأنهم قرءوا هذه الأبيات العشرة أولاً في طفولتهم أو في حالة عقلية مرهفة التأهب لتلقى ما يرد عليها ؛ ويحتمل أن يوجد ، بنفس الطريقة ، مصدر من الرومانسية بموسيقى إحدى رقصات القرن السابع عشر الحزينة الباسلة أعمق مما بإحدى أوبرات واجنر ؛ فما من أحد يستطيع أن يفكر لنا أفكارنا ، وما من أحد يستطيع أن ينبئنا عن شيء له على تفكيرنا من الأثر مثل ما للندى أو للشمس ؛ والكتاب الذى يجعلنا نفكر هو الكتاب الذى لا نستطيع إغلاقه ثانية بعد أن نقرأ صفحة واحدة ، لا بتهارنا بما يفضى به لنا ؛ أو هو الكتاب الذى نسقطه على ركبنا بعد قراءة صفحة واحدة ، لأن ما يسوقه يدفعنا قسراً للتساؤل والاعتراض والتذليل ، فما من أحد سواك يستطيع أن يقدم لك عناوين أو تصانيف ؛ وينبغى ألا يجعلك ما أنا مقدم على ذكره أن تتخاذل فتشك في حكمة إجابتك عن السؤال الشخصى المحض : أية كتب هى الأفضل لمساعدتى على التفكير ؟ .

ولقد تمخض ذهن ولتر سكوت عن قصصه الطويلة خلال مطالعته كتباً غريبة تماماً عن موضوعه ؛ ومن يستطيع أن يصدق أن ضروب الإلهام الفلسفية لم ترد على ذهن كانط إلا وهو غارق في قصص الرحلات التى كان شغوقاً بها ؟ . هل حلت يوماً ما كان يجول بمخاطرك حين استمتعك بمحاضرة أو حفل موسيقى ؟ ولعلك استمتعت أحياناً بمتابعة النقاش أو الموسيقى بأكثر من الوضوح المعتاد ، وفي أكثر الأحيان تتيح لك الخطابة أو موضوع الموسيقى فرصة لبعض النشاط الكامن في أعوارك ، وفي خلال ساعة تصبح في أحسن حالات فطرتك ؛ وفن التفكير هو مجرد فن صيرورة المرء هكذا ، في يسر ووفرة قدر المستطاع .

لا تطالع قط كتاباً للأسلوب ، ويقول نيومان في تراجمه إنه اعتاد أن يطالع « منسفيلد بارك » كل عام لهذا الغرض ، للأسلوب ؛ ولا مشاحة أن نيومان ، وهو ذاته أستاذ في الإنجليزية السليمة ، كان مدركاً لروعة لغة جين أوستن ، ولكنه كان أسى بكثير من مجرد الألفاظ أو مجرد رشاقة اللغة حتى يعنى بما يدعوه الناس أسلوب المؤلف ، أو بتعبير آخر ، إيماءات تعبيره ؛ وهكذا ينبغي أن نكون إذا لم نرد أن ننف إلى مستوى الصياغة الدعية الرخيصة لمجرد الألفاظ فلا يصل أقصى مجهودنا الأدبي إلا إلى كل غث ركيك ، وأن موقفاً حاسماً بهذا الخصوص سرعان ما يضعنا في زمرة المليئين بالرجولة من الناس الذين ينصب كل اهتمامهم على مادة الأشياء ؛ والذي يهمننا معرفته هو ما معنى رجل ، وما اتجاه هذا المعنى وما فائدته لنا ولغيرنا من البشر ؟ ؛ وإذا كانت العادة المسيحية المتعلقة برؤية كل شيء تحت مظهر الخلود ، من شأنها أن ترفع هذه الهيئة لمرتبة البت والحب التي لا يمكن أن يقتصر تعلقها على النظام العقلي فحسب ، أصبحنا من الراجحين .

وأية كتب ينبغي أن نطالعها ؟ .

إن المبدأ الذي لم يفشل قط في تهيئة التفوق لنشاط المرء الفكري هو الشعار الأنيق : « لا تطالع الكتب الجيدة — الحياة أقصر من أن تقسع لذلك — طالع أفضلها فقط » هذه الوصفة البسيطة لها من التأثير الناجع ما للهواء النقي والطعام الجيد على صحة البدن ، ومع ذلك فمن بين كل عشرين من المحدثين من الناس يوجد تسعة عشر يشعرون منها ، ويثنون قائلين : روائع الكتب ثانية ! الإنيد لفرجيل ، والكوميديا الإلهية لدانتى ، والفردوس المفقود للمتون !

ظالمًا سمعنا من قبل أنه : « من الأفضل أن يكون الكتاب عاديًا من أن يحس المرء السأم والملال » .

والفكرة بأن روائع الأدب كتب مدرسية مملة يترجمها مدرسون متبلدون أو تضحكها مادة للاختبار ، هي محصول عجيب للتعليم ، فمن المؤكد أن الجهل أقل قضاء على التلميذ ، لأنه لا يستطيع أن يخلق مثل عقدة النقص التي تخلفها فكرة عجزه عن الارتباط بأفضل صنوف الأدب ، ولكن لشد ما يسهل طرد هذا الشبح إذا عدلنا المبدأ الآنف الذكر بجعله : « طالع فقط ما يضيئ عليك أعظم المتع » .

لقد عاش بلندن في القرن الماضي أحد الكتبة ، له مشارب التقاعد التي تناسب رجلا محدود الدخل ، ولكن مع ميل للمتألقين في المدينة ، خاصة للمسرح ، وللممثلات الحسنات والموهبة والرشاقة ، وكان هذا الرجل من المترددين على المسرح دون شك ، ولكنه كان ، في أوقات فراغه خلال النهار ، يطالع المسرحيات ، مسرحيات من كل العصور ومن كل الأقطار ، مسرحيات من كل الأوصاف ، شريطة أن تهيب له المتعة ، وما من قارئ قط وضع متعته الخاصة بإصرار أكثر منه قبل أي اعتبار آخر ؛ ونحن نعرف انطباعاته ، ولا نكاد نستطيع أن نكون على دراية بالدعامة الفعلية لأي شخص أكثر مما يتعلق بهذا العاشق المتجرد للفنون الجميلة . وقد حقق هذا الرجل أصالة ليست قليلة الشأن بإقدامه الدعوب الفريد على إمتاع نفسه وبما كان يجده من سرور في تحليله لهذه المتعة ، وواضح أنه لو كان قد أرغم نفسه على قراءة المواعظ الشهيرة ، كما كان يفعل كثير من معاصريه ، لجعل حياته ليست أقل متعة فحسب بل وعديمة الجدوى ؛ وكان هذا الرجل يدعى تشارلس لام ؛ وحين نفحص نوع الأدب

الذى اعتاد قراءته نكتشف أنه كان أدبياً درامياً رائعاً ؛ وسرعان ما يبدو أثر
التقزز على وجوهنا لشدة تحاملنا ضد الكمال، هذا التحامل المترسب فينا بسبب
التعليم والمعلمين .

لهذا كله قضى لام وقتاً رائعاً ، طوال حياته ، وهو يطالع روائع كتاب
الدراما من القرن السادس عشر ، وهو وقت أفضل بكثير مما يستطيع الغث
من المؤلفات ، الذى لم تعرقه أية عقدة نقص ، أن يهيئه لنا .

ومنذ بضع سنين سافرت من مونتريال منحدرأ إلى بوسطن ، فى عربة
بولمان ، ويدهشى أن أقول إنها لم تحمل قط أكثر من ثلاثة مسافرين ، حتى
وصلنا بوسطن ؛ وجلست أمامى فتاة تعمل بشركة ماك جيل — موظفة صغيرة
كما استنتجت من حديثها مع فتاتين أخريين كانتا تودعانهما — وفى الطرف
الأخر من المر جلس شاب من أولئك الشبان الأمريكيين الذين يبهرونك
بفتنتهم وحسن منظرهم ، حتى لتميل أن تدسب النبوغ ، مع العديد من ضروب
الكمال التى هى أقل شأنًا ، إليهم ؛ وكان نصف الإله هذا يطالع ، فوجهت فتاة ماك
جيل نظراتها إليه بعض الوقت حتى تلاقت عيونهما ، وبعد فترة من التعارف
الصامت الذى انتهى ببسمة متبادلة سألته بصوت خافت : « أتطالع ؟ » فأجابها
بصوت جلف يصك الأذنين : لا ، فإن ما يستهوينى هى قصة غرام وعاشق.
تملؤه حيل إبليس » وسامها الكتاب وراحت الفتاة تطالع ؛ وكان الصوت
منفراً ، ومثله كان الكتاب ، ومع ذلك واصلت الفتاة القراءة ، وهى تقفز فوق
السطور تارة ، وتطوى الصفحات تارة أخرى ، وبعد فترة لسعنى ضمير الأستاذ
الذى فى أعماق كانه السوط ، وفى المنهارة فوق قصة الحب والعاشق همست

قائلا : ألم تقرئي قط قصة « سوق الغرور ؟ » فتطلعت الفتاة ، وقد احمرت وجنتاها قليلا ، ثم أجابت مستفسرة : « مؤلفها ديكنز ؟ » - قلت : « لا بل تاك » - « أوه تاكرى ، حقًا ! لم تكن هذه القصة ضمن قائمتنا » .

وددت بجدع الأنف لو أن قصة «سوق الغرور» كانت بحقيقتي ، فأفتحها عفو الخاطر ، وألاحظ ابتهاج الفتاة بتقديم بيكى شارب لمنزل سيربت بالمدينة وخدمته الخالدة ! .

قلت : « لم تقرئي « سوق الغرور » ؟ ، تلك القصة الممتعة العجيبة ؛ وتضيعين ساعة كاملة في قراءة قصة « غرام وعاشق » وقد كادت أن تقضى عليك من فرط السأم والملال » .

ولا مرء أن السأم كان قد استبد بالفتاة ولكنها لم تقنع ، فما دامت روائع الأدب تظهر ككتب « ضمن قائمتنا » فالهزيل من الكتب يصبح محط التفضيل دون شك ، فيؤثر الناس السأم بواسطته على الانفعال بواسطة الكتب العظيمة القدر .

ويعود النصيب الأكبر من التبعة في هذا إلى الواجبات المدرسية وأوراق الامتحان وتعليقات المتزمتمين من الدارسين ، ذلك لأنه حالما ينظر إلى كتاب عظيم الشأن باعتبار أنه ليس عظيمًا ، يسترد فوراً قيمته الأصيلة كمطالعة أخاذاة ؛ وواقعة أخرى بقطار أمدتنى بدليل ملموس على هذه الحقيقة ؛ فقد كنت بالقطار القائم من باريس إلى أورلينز ، وكان في مواجهتي رجل يادى الذكاء ، ولكن

عليه سمات الريفيين ، يقوم بتصنيف بعض الأوراق ، وفي الركن إلى جانبي من
عربة القطار، كانت ابنته الصغرى ، وهي طفلة في الثانية عشرة من عمرها متشحة
بالسواد، تطالع كتاباً صغيراً مربعاً وقد غلفه بقماش سميك أسود اللون أيضاً مجلد
للكتب قليل الخبرة ؛ ولم أرقط إنساناً يطالع كما كانت تفعل ؛ فقد بدا كما
لو كانت الطفلة الصغيرة الأنيقة الحسنة ، رغم كونها من الطراز العتيق ، تحاول
أن تفقد نفسها في ذلك الكتاب ؛ وبعد هنيهة لم يعد في استطاعتي مقاومة نزعة
حب الاستطلاع التي ساورتني عن كتاب يمكن مطالعته بمثل هذا العكوف ،
فهمت بحديث مفتعل قصير مع الوالد ثم التفت فجأة صوب الصبية الصغيرة
وسألتها قائلاً : « ماذا تطالعين بمثل هذا الابتهاج ؟ » فتطلع الوجه الصغير
المتلهف وكأنما قد عاد من آفاق نائية : « سيدى ، هذا كتاب التاريخ الرومانى »
وقفة قصيرة ، « وأنا على وشك الوصول إلى يوليوس قيصر ! » — « كيف
تعرفين أنك قادمة على يوليوس قيصر ؟ » — « أوه ! لقد طالعت هذا الكتاب
بضع مرات » .

ولم أنس قط تأكيدها لعبارة : « وأنا على وشك الوصول إلى يوليوس
قيصر ! » فما من ترقب لعيد ميلاد ، أو تخرج من الجامعة ، أو أول رحلة
لأوروبا ، أو حفل تقديم فتاة للمجتمع عند بلوغها سن الرشد ، أنتج قط تأكيدها
من هذا النوع ؛ وفي لحظة صورت لخيلى دعامة الوجدان الخلفية : ضيعة بسهل
عاصف من حقول القمح بين قطاعات طويلة من كروم العنب ، والقاعة بمدفاتها
الكبيرة ، وعلى الرف الجانبي من هذه ، تحت حوامل الأسلحة المنحدرة عن
الجدود ، المكتبة الصغيرة المؤلفة من ثلاثة أو أربعة كتب قديمة للصلاة ،
وكتاب فى فلاحه البساتين ، وكتاب فى الطهو ، ومرشد فى المساحة ، وكتاب

محمى الأسرة ، وقاموس لاروس ، وبضع تقاويم سنوية قديمة ، وفي الركن القصى كتاب « التاريخ الرومانى » الصغير بغلافه الأسود السميك ؛ ولو كان هذا الكتاب القمىء الغليظ موجوداً بمكتبة حديثة من القصص الخيالية أو المجلات لكان منفراً لطفلة كأنه راهب أسود متقدم فى السن ؛ فبعد مادة المساح والمحمى جاء التاريخ الرومانى ليسترده وجهه ، وأصبح يوليوس قيصر مرة أخرى البطل الخيالى الذى كأنه طوال قرون عديدة ، وبسبب سائحة بعيدة التصديق. لخصت الفتاة الصغيرة فى نفسها أحلام الأميرات وأشواقهن وضروب إعجابهن ؛ فلا عجب أن بدت ذات سمات تميزها عن غيرها .

هذا ما فعله روائع الأدب التليدة حين لا يقضى عليها أولئك الذين يقومون بتدريسها خاصة حين لا توضع مع الأدب الرخيص جنباً إلى جنب ، فهذه التوافه من شأنها أن تجعل هذه الروائع تبدو كخبز أوفرن الأسمر إذا قورن بالحلوى الرخيصة ؛ ولا تستطيع هذه البضاعة الخسيصة التى تقدم إلى أطفالنا ، ونحن نتطلع إليهم عاجزين ، أن تمنحهم شعور التسامى المتألق ، بل ولا المتعة التى تهيئها عادة الكتب العظيمة الشأن .

وهكذا إذا أردت أن تشتد فى القدرة على ابتداع أفكار سليمة ، وإذا أردت ألا تعرف قط أية فترة من التيلد فافعل ما فعله أفاضل الجنس البشرى منذ أن ظهرت الكتب ، مهملاً بإصرار كل ما ليس فى الذروة منها ، وإذا تمرد فى أعماقك أى شىء ضد ذلك فمزاجك غير مهمي لمطالعة هذا الكتاب ، كما أن فن التفكير ليس من الأمور التى تستهويك ، أو أنك تريد فقط حبات عقلية مسكرة لأستطيع إنتاجها ، وإذن فوداعاً يا صاحبي ، ولو لکن لندرجىء الفراق حتى تكون.

قد دوت قائمة بالكتب العظيمة الشأن التي لا تخلو من الجاذبية بالنسبة لك ،
وحتى تكون بضعة شهور من الخبرة قد بينت لك أي كتاب منها يغدق عليك
الذة خالصة غير مشوبة ، وستؤلف هذه العشرون أو الثلاثون مجلداً مكتبتك ،
أو بتعبير آخر، ينبوع تفكيرك ، بهجتك ، وحين ترى الناس يغبطونك على
امتعتك ، تصبح هذه الكتب مفخرة لك .

فهل معنى هذا أنه ينبغي علينا أن نتخلى عن الأدب المعاصر ، وأن نقصر
حياتنا على تراث الماضي ؟ لا بالتأكيد ، فما من شيء يساعد الفكر مثل أسئلة
« هنا والآن » فإذا لم تكن منسوباً لعصرك فأى عصر تنتسب إليه ؟ فمن
واجبنا أن نطالع الشعراء المحدثين والروائيين المحدثين وننشد الفن في أبعاد
تطوراته ، ولا بد أنه حوالى عام ١٨٤٠ وجد بين سكان لندن بعض المتشككين
المتقدمين في السن الذين رفضوا قراءة « مذكرات بكوك » لأن الكتاب كان
مختلفاً عن مؤلف مستر أديسون « المشاهد » ؛ كان أولئك المتزمتون الطاعنون
في السن هم الخاسرون ، ويشبه هذا في الحماقة أن تتجاهل الآن السيد سنكلير
لويس أو السيد أرنولد بنيت ، حتى ولو استرنا أنهما ، في مدى ثمانين عاماً ،
لن يظهرنا باعتبار كل منهما « ديكنز » القرن العشرين ؛ ومن ناحية أخرى
إذا حاولت ملاحقة إنتاج اليوم الأدبي المصنع غصت في الوحل وضعت ؛
فهل انعدم سبيل الاختيار؟ .

توجد عشرات الوسائل ولكن هاك أسرها ؛ ما من أحد يستطيع أن
ينسب إليك خطأ التظاهر بعدم الاكتراث بالوقت الحاضر إن أهملت
كتباً تجدها قد نسيت بعد نشرها بثلاثة شهور أو بعبارة أخرى اثني عشر

أسبوعاً قصيراً ، لا تقرأ تلك وستتعجب إذ ترى قارة عدد ما يتخلف منها بعد ذلك لقراءته ، ولا يفتن الناس إلى أن الانفعال المحموم الذي طالما ثار عند نشر كثير من الكتب ، والذي لا يكاد الجمهور الساذج يقوى على مقاومته، تجارى. محض ، وقد ابتدعه الناشر وصناعياً، ويتوهمون أن الكتاب يقوم بهذا كله ، ولكن الكتاب لا يقوم بهذا ، ولا يستطيع الناشر أن يقوم به أكثر من أسبوع أو أسبوعين ، وحين تتكىء عشرة أسابيع أخرى بكل ثقها على موجة الانفعال الحقيقية يكون النسيان قد طواها طياً ؛ ضع قائمة بأسماء الكتاب الأمريكيين الذين نشرت مؤلفاتهم منذ بضع سنين والتي مازالت على الأرفف التي تفتحها العين واليد بين الفينة والفينة ؛ تلك هي الكتب التي لا يصح غفران هجرها ، حتى ولو في سبيل قراءة أرفع ، ولكنك ستري كم هي قليلة العدد ؛ وعلى الرغم من أن سوء المقالة يعلو فوق مجرد النشر ، فهي لا تزال أقل من الشهرة بمراحل كثيرة ، وإذا لامك شخص لتجاهلك كتباً لم توفر الشهرة. اصحابها فهو يتكلم مسوقاً بتقاريف الناشرين وينبئ سماعه على هذا الأساس .

* * *

وينصب كل ما سبق قوله على الأدب ؛ ومن المؤكد أن الأدب ، خاصة اللون الرفيع من الشعر ، الذي ينبغى أن يكون لحة كل قارى مثقف وسداه، يمد المرء بما يحتاج إليه من فكر معبد إلى أقصى حد ؛ وعلى أية حال فليس الأدب هو ميداننا الوحيد ، بل إن الفلاسفة والعلوم والتاريخ المعاصر وما يسمى بالعلوم الأخلاقية ، جميعها تضع في طريقنا تفسيرات للعالم والإنسان ، منتجة للفكر بصورة باهرة ؛ والواقع أنها تؤدي بطريق سوى إلى تعميمات يظن أنها مختزلة

إلى أبسط أشكالها؛ والحقيقة الآن أن للفلسفة والتاريخ والعلوم، مثل ما للأدب، روائعها التليدة التي لا يمكن إغفالها، فلا يمكن أن تخلو مكتبتنا من مؤلفات لأفلاطون أو دارون، ومع ذلك فليس من الجائز فقط بل من اللازم قسراً أن نبحث، في هذا المجال بنوع خاص، عن أحدث المعلومات التي حصلت بآخر الوسائل العصرية، ولا يهمننا تاريخ الماضي إلا فيما يليق به من ضوء على تاريخ العهد الحاضر، فعلى أن نعود دائماً إلى سياسة الحاضر واقتصادياته، وأخلاق الزعماء المعاصرين وآرائهم، وميول الأحزاب الحديثة واتجاهاتها، ولا بد أن نكون قادرين على إبراز خريطة للعالم وقراءة الحدود ومشكلاتها كما لو كانت من كتاب مفتوح.

ويمكن أن نقول نفس الشيء عن الفلسفة، فموقفنا في الوقت الحاضر من المشكلات الخالدة يعني بالنسبة لنا أكثر مما تعنيه حلولها حتى في الماضي العظيم، فينبغي دراسة المسائل الدينية في أحد شروحيها، ومثلها تخطيطات الإصلاحات الاجتماعية، وفوق هذا جميعه فلسفة العلوم.

فالكتب العظيمة، والرجال العظام، والمسائل العظيمة، والمبادئ العظيمة، والحقائق العظيمة ودروسها، كل ما يتعارض مع التفاصيل النافهة لا يحصى من أن يسفر عن فكر رفيع؛ وكلما اشتد انشغالنا اشتدت صرامتنا فيما ينبغى أن نتخيره؛ ويظهر كثير من الغارقين في العمل حتى آذانهم، خاصية ثقافية نادرة تثير دهشتنا، والسبب دون خلاف يعود جزئياً إلى أن العمل الشاق، وحتى التعب الذي يخلفه، يحملان في طياتهما ضرباً من النبيل، ولكنه يعود أيضاً إلى عدم وجود مكان للمشاعل العقلية غير الرفيعة بحياة مثل هؤلاء الناس.

وينبغي على الأدباء الذين يصبون لمنح أبنائهم زبدة كل شيء ولبابه أن يحزموا بعزم مكين توافه المؤلفات من كل الأصناف ويقذفوا بها بعيداً عن متناول أيديهم كما لو كانت السم الزعاف ، ومثار العجب أن الأذكى من الناس الراغبين في القيام بما يسعه الجهد في هذا السبيل لا يفتنون إلى أنه لا ينبغي ترك أى كتاب في متناول أيدي الصغار ، يقل في مرتبته عن « روبنصن كروزو » أو « ألف ليلة وليلة » أو « قصص عرائس الخيال » لمؤلفها برو « Perrault » أفلا تريد لصغارك سرفاً في سرعة الإدراك ؟ أفلا تريد تنشئتهم على مثال نساء القرن الثامن عشر الصغيرات الراشحات وهن في الثانية عشرة من عمرهن ؟ لافتح النافذة ؛ وأنصت لحظة واحدة لأحاديث الشباب فوق العشب في عطلة هذا الأسبوع ، ومن ثمّة يأتيك الخبر اليقين ؛ سيفمرك السرور إن استطعت أن تعلمهم إثارة دماء الطبع على العجرفة الفظة حين يرونها ؛ ويخبرنا يوسف دى ميستر أن أمه اعتادت أن تتلو عليه أشعار راسين حين كان طفلاً صغيراً وأن « أذنيه ، وقد ارتشفت مبكراً من مثل هذا الرحيق الإلهي عافت دائماً بعد ذلك كل شراب مر المذاق » . . .

نتيجة نادرة باهرة !

« د » كيف تقرأ لتفكر :

إن عنوان هذا الفصل كان حرياً ألا يفهمه أحد القدامى بل ولا رجل من عصر النهضة ذلك لأن القراءة ، بالنسبة لهما ، كانت تعنى التفكير ؛ ولذلك فلزام على أن أوكد مرة أخرى أن فكرة وعادة المطالعة كما نصت ، ونحن شاردو الدهن ، نحرير نهير صغير يهدد السامع للنوم ، تتعلق بعهد من التخلف العقلي ؛

والنتيجة أنه يلزم إزالتها من دعامة الوجدان الخلقية لأي شخص راغب في التفكير ، ولقد هممت أكثر من مرة لأن أضيف كلمة شوبنهاور المأثورة التي وردت بمؤلفه « الأسفار الخمسة » : « لا تقرأ . . فكر ! » أو أن أعد لها على هذه الصورة : « لا تفكر أبداً . . . ادرس دائماً » قول جاف ! لا ، ليس جافاً . مادمننا ندرك أنه ينبغي أن ندرس مالا يوفر لنا المتعة ؛ وأن الدراسة تنصب فقط على أبهج وسيلة نستخلص بها من الكتب ما يضيف علينا أعظم متعة ، بنفس الطريقة التي يدرس بها فنان وجهها جميلاً بدلاً من مجرد التحديق فيه ، ولا نستطيع قط أن نكرر القول مراراً كافية بأنه ما من شيء عقلي يمكن تحقيقه ضد إرادة « منيرفا »^(١) ، أو بتعبير آخر في ميدان لا يجتذبننا إليه ؛ والعمل في عروقنا ، دون إحساس بالجهد ، بل على العكس بإحساس من الراحة والحرية هو الشرط الأساسي لعملية عقلية صحيحة ، فلا تشتغل بعلم الجبر حين تكون الملهاة مستحوذة على لبك ، وإذا كانت القصة الهزلية تستهوي لبك أكثر من الملهاة فاترك الثانية وادرس الأولى ، فقط « أدرسها » ولن يمر وقت طويل على عمك هذا قبل أن تستكشف وجود لذة أوفر وأعمق في دراسة قصة « عدو الناس » الهزلية Le Misanthrope أكثر مما في تأدية ملهاة سكابا « Scapin » .

وإذ سبق هذا كعبداً فكيف ينبغي أن نطالع ؟ كما تهوى ، فإذا كنت تضيف المتعة على نفسك بالمطالعة السريعة ، فأسرع في مطالعتك ، وإذا كنت تطالع ببطء ولا تشعر بميل للإسراع في مطالعتك ، فالتزم البطء في مطالعتك ؛ ويقول بسكال إننا حريون بالإسراع الشديد أو الإبطاء الشديد في الطالعة ، ولكنه

(١) منيرفا إلهة الحكمة والفنون عند الرومانيين القدماء .

يوجه اللوم فقط للإسراف فيها (من الحماقة قراءة غير الجاد بسرعة بالغة ، أما الجاد فهو الكاسب في حالات كثيرة إذا قرأ بنشاط وحيوية) ويشكو مونتاني من الأسلوب الشكلي في المطالعة فيقول : « يداعب الكرى أفكارى حين تعطى مقعداً للجلوس ولذلك فهى تسير وأنا أسير » ويكتفى العمل الأمين بالسير قدماً ، أما حب الاستطلاع فيطير بأجنحة عطار ، والمطالعة العاطفية الحارة لا تطير فحسب ، إنها تحاق ، ولكنها تفعل هذا فقط لأنها تستطيع الاختيار ، وهذه ماثرة عقلية رفيعة ؛ كيف تقرأ جدول مواعيد القطارات ؟ تطفر من فوقه طفراً حتى تصل إلى ضالتك ثم تغفل العالم برمته وتنكب على قطارك : قيامه ووصوله وما بينهما ، ويحدث نفس الشيء حين يعبر سائق سيارة خريطة محلية لراكب دراجة يقف حائراً عند ملتقى للطرق ، فالأخير يسكب نفسه في قراءتها ؛ وهذا ما يحدث أيضاً مع هبة مالية في خطاب ينتظر صديق منك أن ترده ، وهو بالذات ما يحدث مع أية وصفة لإنتاج حجر الفلاسفة^(١) وكل ما نطالعه مما يشير حواس حب الاستطلاع الشديد يقدم لنا نموذجاً لما ينبغى أن نطالعه دائماً ؛ وشق الطريق في مثابة بين السطور ، صفحة إثر صفحة ، مع توجيه قدر متساو من الانتباه لكل كلمة ، يسفر عن الاهتمام بمجرد الألفاظ ، والاهتمام بالألفاظ لا ينتج فكراً على الإطلاق ، ولكنه ينتهى قطعاً إلى ضروب من الشرود الذهني ، ولذلك يذهب أى مجهود جليل القدر هباء مع الريح بتزمته الوجداني الأخرق .

وقد بدا لي دائماً أحد أصدقائي ، وهو كاتب فرنسي ذائع الصيت يعالج

(١) حجر الفلاسفة هو الاسم الذي أطلقه الأقدمون على المادة التي توهموا أنها تحول المعادن الرخيصة إلى ذهب .

الموضوعات الجادة كل الجدد، نموذجاً للقارئ النشيط، فهو يكتب مؤلفاته لنفسه -
ويعدّها لمتعته الخاصة ، وإذا اشتّم أي خطر لسأم أو ملال راح يدرس الموضوعات -
المرية ، عن بعد شاسع كما يلاحظ ربان بحر جبلا من الجليد ، وينبه إليه في
عجلة واستنفار ؛ وعلى النقيض إذا استهواه موضوع أو فكرة موضوع ، اقترب -
إليه في رفق ، وأجرى معه حواراً رائعاً ، لا معك ، فأنت وأنا لا يؤبه لنا -
كثيراً ، ونحن ناهج المكتبة حيث يهرول المؤلف من مكتبه إلى الأرفف ذهاباً
وإياباً ، وتنسقط السمع للملاحظات الفكرة أو المليئة بالإعجاب أو النافذة الصبر -
التي يتفوه بها ، كلما أقحم كتاب إثر كتاب ، في خدمة الفكر المستحبة آنذاك -
ولكن كل ما نحصل عاينه ، بصرف النظر عن المتعة المنعكسة ، هو نظرة عابرة يلقها
المؤلف حين يرد على خاطره ذكر وجودنا غير الضروري ، فهو كاتب يشرح
الصدر حقاً ، ولكنه أيضاً قارئ نموذجي ، لا يطالع ببطء أبداً ، ولا يطالع بتبليد -
أبدأ ولا يطالع والنعاس يغالبه ، وهو ، مثل مونتاني منتصب ، طوال الوقت ،
على ساقيه ، متأهب للفرار من الكتاب ، كما نفر من شخص ثقيل الظل ، حالما
تبطل جاذبية الكتاب ، وإنّمة هوة تقع بين تلك الطريقة في المطالعة وما انسقنا
لفهمها على أنها الطريقة الجادة ، أو على حد تسمية دي بيلي لها « حفظ المقعد -
دافئاً » .

وهل تصالح هذه الطريقة لكل صنوف الكتب ؟ وهل يصح أن نطالع
إنتاج شاعر كما نطالع « دليل العطاء » أحياناً ؛ وقد طالع تشندروف العهد -
الجديد من الكتاب المقدس مرة بهذه الطريقة ، بينما راح أسقفان من الكنيسة -
الكاثوليكية يحاولان صرفه عن المخطوط بمسامرة ممتعة باللغة الإيطالية ؛ ولكن
الواضح أنه لا يتيسر تحقيق هذا في معظم الأحيان ؛ فالشعر ، كما سكة ، تفتتح

السباق ونحن نعدو وفق مشيئتها؛ وهكذا أيضاً أسلوب الحكمة المتحدلق في أية لغة؛ وواضح أنه لزام علينا أن نضع حداً بين ما نطالعه لمعلوماتنا وما نطالعه لتكويننا، وبين ما نحتاج إليه لفائدتنا وما نحتاج إليه لنمونا؛ وليس من المأمول قط مطالعة التاريخ سواء كان تاريخ السياسة أو الفن أو الأدب أو الفلسفة أو الأديان أو العلوم، حقائق ونتائج الحقائق، سواء كان الأفضل تلخيصها بموسوعات علمية أو اختزالها بسهولة في كتب الإرشاد، أجل ليس من المأمول قط مطالعة كل هذا بطريقة أفضل مما يطالع بها عاشق الألقاب ما هو مدون بدليل العطاء عن دوقه أو ممثلة؛ فالعقل مستغرق تماماً في مادة المطالعة، محاولاً استيعابها في لحظات، دون مبالاة بالكتاب أو بالمؤلف؛ وكتب المعلومات، حتى كتب التاريخ لجيبون أو ماكولي جديرة باحترامنا، ولكنها أدوات وينبغي أن تعامل على هذا الأساس، وإذا احتجنا فقط لقراءة عشرين صفحة فلا نظن أننا ذوو ضمير حي، بل بالأحرى سابيون فحسب إذا طالعنا ثلاثين؛ وإذا طالعنا فقط لتنشيط ذاكرتنا بخصوص موضوع بإلقاء نظرة عابرة على فصل تمت لنا إجادته من قبل فلنتجنب ضياع الوقت بإعادة قراءة كل لفظ منه، أو فلنستعص عنه بمذكراتنا إن أمكن، ونحن نوصي الأولاد أن يهتموا بكتابهم ويستوعبوه، وينبغي أن ننصحهم أيضاً أن يفكروا ولا يقرأوا، أو أن يقرأوا بعين مغلقة. والأخرى نصف مفتوحة فقط، وبذلك يقرأون في ذاكرتهم بينما يعمل الكتاب كخافز فحسب؛ ولماذا تطالع صفحة كاملة في حين أن سطرين منها يقدمان لك فكرة كاملة عنها؟.

بل إنه لمن الممكن قراءة الكثير من الكتب بمجرد الاطلاع على فهرست محتوياتها، فمن المؤكد أن العنوان يعطيك فكرة عامة عن موضوعها،

وإذن سل نفسك كيف تقدم على معالجتها وما اللون الرئيسي لنقاشك؟ ، وعد إلى فهرست المحتويات ، فإن لم يكن إحدى تلك الهازل التي تقول : « الفصل العاشر . أمرسون الفصل الحادي عشر : نيتشة » والتي من شأنها أن تجلل الناشرين والمؤلفين بالخزى والعار ، فطالعة عاجلة وممتعة للسبع أو ثمانى صفحات ستنبئك فوراً ما تستطيع أن ترقبه من الوافد الجديد ، حيث ينبغى أن تبحث عن المعلومات التي عليه أن يسوقها ، وحين تثق من اختلافك معه في الرأي ، والمطالعة على هذا النهج لا تؤدي بك إلى الناس ، ولا تترك في ذهنك ظلالاً أو أفكاراً يسرك التخلص منها ، ولكنها تضيء عليك صحواً ويقظة حتى لكأن الكتاب أحد المؤلفين الأحياء ، وهذا ما ينبغى ، قدر المستطاع ، أن يكون .

وصناعة الكتب غير متقنة ، فإذا تلهف مؤلفوها لأن يكونوا نافعين ، أنموا بعض الخيال في محاولة خدمة القارىء بدلاً من الخروج إليه في بهاء وخيلاء ، وكثيراً ما يدركون في وضوح تام أن الإحصاء أو الشكل التخطيطى الذى يستخدمونه بأنفسهم من شأنه أن يتجاوب مع القارىء رأساً أكثر مما يصدر عنهم من صفحة إثر صفحة ، ولكن ما لديهم من الاستقلال أو الاستعداد للخدمة لا يكفي لأن يجعلهم يقدمون لنا أيًا من الإحصاء أو التخطيط عارياً ، وكان ييجوى يعتبر غريب الأطوار لأنه استخدم مبتكرات مطبعية ليجعل معناه أكثر وضوحاً ، وإلى عهد قريب كان استخدام الشولة في الترقيم للدلالة على نهاية فقرة تعتبر تجديداً حتى ولو كان وضعها له مغزاه ، ولا يشجع الناشر الفهرست الوافى إذ يعتبرونه ضاراً بالكتاب ومسرّفاً في معاونة القارىء . إن الفكرة العامة عن الكتاب ينبغى أن يشملها التعديل .

وفي كثير من الحالات يتيسر لك أن تحصل من تحليل سكر تير أو صديق
لكتاب أكثر مما تحصل عليه من قراءته مباشرة ، لأنك ستروح تستفسر
عن العمل العقلي الجاد وسيكون الرجل الآخر يقظاً ، وكثيراً ما يشير دهشتنا
أولئك القوم المزدحمون بالعمل ، الذين ياجثون لهذه الطريقة العاجلة ، بالقدر
الذي لديهم من المعرفة ، وكان الملك إدوارد السابع ، على الرغم من أنه لم يقرأ شيئاً
قط ، مطلعاً على أحدث المعلومات عن نوعين أو ثلاثة من الأدب ، فقد كان ،
في أثناء الحلاقة أو ارتداء الملابس أو التدخين ، يوجه أسئلة لأشخاص أذكيا
أو يأمر بأن تتلى عليه عجالات نافعة مركزة ، وهذا طريق ملكي حقاً للمعرفة ؛
ويشير لا برويير إلى هذا الطريق بقوله : « إن أبناء الملوك يعرفون كل شيء
دون أن يكونوا قد تعلموا أى شيء » فالتعليم الشفوي هو أعظم ضروب
التعليم إنسانية وفعلاً ، والمسمى في أمريكا خلق «تعليم جماعي» أو العادة النامية
لوضع طلاب على اتصال دون كلفة بالفكرين هو اتجاه سليم ، وأحياناً يتعجب
الناس للنتائج التي يحصل عليها من يسمونهم « مجرد جماعيين » ، وتعود تلك
النتائج إلى تفوق الوسائل التي تجعل عقل الطالب أوفر نشاطاً مما كانت في أى
يوم مضى ، ولعل طالين « يختبر » أحدهما الآخر ، مضيقاً عليه الخناق ، في
الأسبوع السابق للامتحان ، يعرفان لأول مرة في حياتهما معنى اليقظة العقلية ،
وإذا استخدمت وسائل الجماعيين في المدارس النظامية فلن يكون ثمة حاجة
لمؤسسات للتجميع .

وينبغي على الشخص الذي يتعلم وفق هذه الأساليب أن يعرف ، وهو في
سن العشرين ، الأسس التي تقوم عليها معرفة الموسوعات المعاصرة ، وينبغي أن
يكون قد أعطى نفسه أو اشترى لنفسه من إحصائي ذاكرة جيدة قدر المستطاع ،

وينبغي أيضاً أن يكون قد نمت في نفسه عادة تدوين مذكرات بدونها يصبح الناس، وهم يطالعون كما يقول سانت بييف: كأنهم يأكلون ثمار الكريز، وإذا شاعت هذه الطريقة في تناول الكتب، كما لا بد أن يحدث يوماً ما، لتوقف النوع البشري عن أن يكون مؤلفاً من أغلبية عظمى من الأصاغر .

وتؤدي هذه الطريقة الحاسمة بل العدائية في استكناه كتاب بمساءلته « ماذا لديك لتفصح عنه ؟ » إلى الوصول إلى المعلومات بطريقة منعشة ولكن التكوين أو الثقافة لا يمكن الوصول إليهما بنفس الوسائل المتعالية فهما يحتاجان لمزيد من الوقت، ومزيد من الحب، ومزجها بعنصرى النقد الأدبى والتواضع الذى يتم اكتشافه عن طريق الخبرة أكثر من وصفه بالألفاظ .

والكتاب الذين يعالجون الروح في أكثر عملياتها دهاء وخفاء، والشعراء والروائيون والأخلاقيون وعلماء النفس، والمؤلفون الدينيون أو الروحيون جميعهم يخلقون حول أنفسهم نطاقاً من التوقير سرعان ما نطقن إليه، وسرعان ما ينبهنا نطق وتنسيق أول عبارة يتفوهون بها إلى أنه لا يمكن استخدام طريقة القصف والعسف هنا، ثم يتحتم أن يحل الفهم المدرك مكان الذكاء المجرد، وهذا يعنى التعاطف والتبجيل وعدم العجلة؛ وقد يعرف دارس لتاريخ القرون الوسطى كل ما يمكن معرفته عن طائفة رهبان غابة سيتو الفرنسية والتراتيل الدينية القديمة، ومع ذلك فهو يرفع حاجبيه حين يسمع شخصاً أقل معرفة وعلماء يقول إن بعض الألحان المقدسة للعدراء المباركة أو إن النور الخفى العجيب تحت قبو يصل مقصورتين غير متسقتين يجعله يتفهم حياة الرهبان الروحية في القرن الثانى عشر؛ ذلك لأن إدراك واقعة تصاغ على هذا النحو تحتاج إلى العديد من الخبرات الموسيقية والعمارية بالإضافة إلى إحساس بالجمال الروحى .

ومن جانب آخر فإن الألفاظ التي تصاغ بها قد تلج عقلا حيث تستقر به ،
ثم تروح تشكله وتمطه حتى يتم إدراكها ؛ فإيقاع ، أو صورة ذهنية ، أو فكرة
مصاغة في كلمات قليلة على هذا النحو ، قد تكفي لتأمل . لعل أحداث الحياة
تدعه معلقا ولكنها لا تقاطعه ؛ ولم أنس قط ، ومن المؤكد أنى لم أبل قشيبه ،
بيتاً من موال سمعت مرة بضع أطفال فقراء ينشدونه المرة تلو المرة خارج نافذتى :

ستباركنا الحبة يوما ما .

وكانت أصوات هؤلاء الأطفال متهاونة ساخرة مثل الحياة ذاتها ، ومع
ذلك فثمة خلجة رفق كانت تسبح ببعض مقاطع النشيد فلا تكاد تلج الأذن
حتى تستقر في أغوار الروح ، ولا مشاحة أن هناك فارقا كبيرا بين اللغة
البشرية التي تنقل المعلومات المجردة وبين الشعر الذى من هذا الصنف ، وكما
يتم فهم الشعر لا بد من إعادة التفكير فيه ومن الشعور به مرة أخرى ، وهذا
لا يتيسر لأى عقل أن يفعله دون أن نضيف شيئا من ذواتنا إلى ما نحن التفكير
فيه ؛ وحين يتحدث الفنيون عن « النقد الخلاق » فإنهم يعنون هذه الإعادة
لتكوين فكر عظيم ؛ ويصل النقد الخلاق إلى منزلة أرفع أنواع الأدب وأرفع
أنواع الفكر وهما ما سندرسهما في الباب الرابع .

(هـ) الادراك والمطالعة النائدة :

إن علينا حين نطالع أى شىء أن نتفهمه أولا وبعد ذلك ننقده .

والفهم هو أول خطوة أساسية في المطالعة ، ولكن أغلبية عظمى من القراء
لا يهتمون باتخاذها ، فهم يفهمون أو يظنون أنهم يفهمون ما هو واضح ، وما بقى

يعتبرونه خطأ من الكاتب أو مسخفاً؛ ومرة اختبرت عدداً من القراء في فقرة وردت بمقال للسيدة براوتنج تصف فيه الفلسفة بأنها «تعاطف مع الله»، وقد بدا أن واحداً فقط منهم هو الذى فكر أن بهذه العبارة شيئاً يسترعى الانتباه، أما الآخرون فكان واضحاً أن جرس العبارة قد جذب انتباههم أو أن معناها السطحي قد خلب لبهم؛ ولما طلب إليهم أن يركزوا انتباههم على عبارة «تعاطف مع الله» قال معظمهم إنها غير مألوفة ولكنها مفهومة تماماً، ولكن حينما سئلوا عن معنى هذه الكلمات المفهومة لم يجدوا مناصباً من الاعتراف بأنهم لا يستطيعون، ورغب اثنان أو ثلاثة فقط أن يسمعوا، ولم يتجاسر أى منهم على أن يتكهن بالمعنى أو يحاول استكشافه؛ وكانوا في موقفهم كالشخص غير المتعلم الذى يذهب إلى أن الناس إذا استعملوا أية لغة عدا لغة الحديث المألوفة فعليهم ألا ينتظروا من أحد أن يفهمهم.

إن ثمة هوة من الفرق بين قوم يريدون شعراً ميسور الفهم كصحيفة الصباح، وبين آخرين يملكون ناصية الثقافة أو يبحثون عنها، وكثيراً ما يصرف الدارسون أعواماً مفكبين على أثر مسترد لكاتب ضاع إنتاجه، ويظالعون في ثنأياه أو يستنبطون منه أعظم المعلومات متعة، ولقد رأيت إنجلييه يرفض بعد ساعة من الجهد أن يتخلى عن مقطوعة غامضة لهربرت وينجح في جعلها تظهر محملة بالمعنى ولكنها واضحة للأذهان المعتادة على لغة الفلسفة والشعر الفنية، ولا شك أن عادة أساتذة اللغة الفرنسية في تكريس ساعتين كاملتين لدراسة عشرين سطراً من إنتاج الفيلسوف سنيكا تدريب عقلى من الطراز الأول؛ والزائرون الأجانب الذين تغمرهم الدهشة في مبدأ الأمر، لهذه الطريقة، يقدرونها في النهاية، والأولاد والبنات الذين يضطرون لاستخدامها لا يطول بهم

العهد حتى يعرفوا حسناتها ؛ وإذا كنت تعرف لفتين فاختر نفسك في ترجمة
فنية مرهفة المعنى حقا ، ولو كانت مكونة من أربعة سطور يوميا ، وستكون
عادة الإدراك التام خير جزاء لك .

قد تقول إن هذا مفرط في البطء والصعوبة معا ، ولكن ألسنا نسعى
للتفكير ؟ .

والنقد الأدبي إن هو إلا مظهر آخر للسعى صوب التفهم والإدراك ؛
والكلمة ، في معناها الأصلي ، تعني « المحاكاة » والواقع أننا ننظر إلى
الناقد الفني كقاض كفاء لا يتلمس الأخطاء ؛ وأن القدرة على مقاومة
التأكيدات المطبوعة أو المسموعة ، كي يحتفظ المرء برأيه الخاص عن فكرة
أو قصيدة أو نظرية أو إنتاج فني ، وأن يراه بوضوح يكفى للتعبير عنه في قوة
ومضاء ، أجل إن هذه القدرة هي من الأمور غير المألوفة ؛ فمعظم الناس يجلسون
رأيهم حتى يصرح شخص آخر برأيه الخاص ، وعندئذ يكررونه ، وتشير الأحاديث
العامية إلى هذا الضعف بالعبارة التي كثيراً ما نسمعها : « لا يرى الناس هذا »
فهذه الكلمات الأربع تصف الجبن أو التبلد العقلي الذي يجعل معظم الناس نعاجا ،
وليس في الإمكان أن نبالغ في التبكير بصد هذه السلبية ، أما إذا تم الأمر
بانتظام وحصافة فلن يسفر قط عن إغراق في الثقة ، ولكن العقل الشاب فقط
سيحرز قوة خلال فترة التكوين البالغة الأهمية .

وينبغي أن يضفي المعلمون أعظم قيمة على التمرين المدرسي الذي يطلق عليه
اسم التحليل الأدبي ، فيوضع التلميذ وجهاً لوجه مع قطعة أدبية تستحق الجهد
ويفحص تركيبها ؛ وهذا يعني مطالعتها المرة تلو المرة ، ليفهم الفكرة الأساسية

التي تمخضت عنها ، وملاحظة صمود هذه الفكرة خلال تطورها ، وحين يفعل
ولد أو بنت هذا لأول مرة دون أى تكليف سابق من المدرسة ويدرك أن
قدراً معتدلاً من الانتباه يكفي لتحقيقه يصبح راشداً على الفور ، وكثيرون
يتذكرون بعد ذلك دائماً النشوة العجيبة لهذا النمو غير المرتقب ، ويستطيع
التاريخ ، وتقويم عهد عظيم أو رجل ذائع الصيت ، وتقدم الشعوب أو انحسارها ،
تهيئة فرصة للمدرس أفضل من الأدب ، الأكثر بعداً عن اختبارات الطالب
المبكرة عن الحياة ، ويعادل هذا فى نفعه اختبار قول حكيم مأثور أو رأى يظن
بوجه عام أنه سليم .

ولزام على الطالب أن يحرز عادة عدم تقبل أى شيء على أنه صحيح أو جميل ،
بل أن يعتبر كل شيء « مشكلة » ، ويرى ديكارت وشوبنهاور أن هذه
العادة هى النظرة الفلسفية الأساسية ؛ وينصحنا السيد شسترتون أيضاً أن
نتطلع إلى الأشياء المألوفة حتى تبدو غريبة ، أو بتعبير آخر ، حتى نراها
فعلاً ، بدلاً من الإيحاء إلينا بطريقة رؤيتها ، ولعله يذكر خبرة لم يصادفها قلة
من الناس ، فقد نكون بالقطار أو فى سيارة ، والمنظر الطبيعى ، خاصة فى
ضوء القمر ، غير مألوف ونلاحظ مزاياه بمتعة الشيء الجديد ، وفجأة يبرز شيء
يجعلنا ندرك أننا كنا مخطئين ، وأن ما نراه مألوف لنا تماماً ، وأننا كنا
مخدوعين فقط بفكرة أننا فى مكان آخر ، وسرعان ما تتقلص الهضاب
والأشجار والجواسق وتتضاءل أحجامها فتتطلع إليها بازدياد العادة ، وتشوه
نظرتنا الشاملة نحو الحياة والفكر ، على هذه الصورة ، حتى نكسر وقتاً
وطاقة يكفيان لإعادة اختبار الأشياء كما هى .

وينبغي أن نعطي أنفسنا عادة الانتباه الناقد حتى يهيئ لنا أول احتكاك لنا بأى شيء يستحق الجهد طابعاً يقظاً على قدر ما تتيحه لنا مقدرتنا ؛ ألا تذكر سماعك اسم كاتب أجنبي ، جوركي مثلاً ، يذكره أصدقاءك ، قبل أن تتاح لك فرصة قراءة أى إنتاج له بوقت طويل ؟ وتبعاً لهذا زادت رغبتك حدة وتيقظاً ؛ وفي يوم ما ، وقعت بمجلة ، على فذلكة من يومية الكاتب في عشرين صفحة عن عودة الربيع ، مع قصة رائعة عن موت طفل ، وزيارة أسقف مسيحي طاعن في السن ، وكانت كل عبارة وكل كلمة تنفذ إلى أعماقك لشدة رغبتك في استخلاص أكثر ما يمكن من هذه الصفحات العشرين القصيرة ، وقد فاض على الفصل بأكله سحر خفي كسحر الموسيقى أو لعله سحر الأريج العطر ، وظلت فترة طويلة ترفض أن تطالع أى شيء آخر من نتاج جوركي ، خشية أن تلاشى أثر الرقية ، ولرعاية هذا الفصل كأنه الطلسم ، مدركاً أن القوم الذين قرءوا كل كتاب عن جوركي لم يمتلكوا ناصيته كما فعلت .

والنقد ، حين نقرأ ونفكر أو نشعر على ذلك النحو ، هو قطعاً ما ينبغي دائماً أن يكون ، أعنى الموازنة بين ما يجب أن ننحني له وما يساورنا الشك فيه ، ونحن لانهون من شأن كبار الكتاب أو كبار المفكرين بإخضاعهم لهذا الاختبار ، بل النقيض من ذلك ، ألم تشاهد قط مصوراً ، رجل فن أصيل ، يرقب في معرض للصور روائع فنه ؟ يالفارق الكبير بينه وبين الجمهور المتدفق كالسيل ، الذى يدفعه بالمناكب ! لا شيء يفوت عينيه وهو يدرس فى الصور أدق التفاصيل ، وقد تجلت فيهما صلابة المصورين المألوفة ، ولكن الفنان يغاق عينيه على حين بغتة ، فتدرك أنه قد راح يتخيل الصورة المثلى ، ولا تخش أن تدع طالباً تعود قراءة شكسبير يحجم عن أن يدعو

براسين (الذى استهل كتابة مسرحياته بالثر) شاعراً ، إذا كان مزيد
من الفحص يجعله يدرك كمال الرواى الفرنسى كمصور للعواطف .

إن التفهم الواعى نقد ، والنقد أو الحكم مجرد مرادف للفكر .

(و) كيف تطالع الصحف ؟

يعامل بعض الناس الصحيفة باحترام سخيف ، فيطالعونها فى عكوف كما
لو كان كل مقطع منها ذا أهمية ، ويتحدث آخرون عنها باحتقار قائلين :
« ليس ثمة شىء قط بالصحيفة : إنك تبدد الوقت هباء بمطالعتها » ولنيف
آخر — قليل العدد — يتسلح أفراده بقلم أحمر ومقص صغير ، ويجلس بجانب
كومة من الصحف يعاملونها دون توقير على الإطلاق ، إذ يلقون بنصف
صفحاتها جانباً ، بينما يجوسون خلال الباقي منها باشتياق ولكن دون تلكؤ
أو إبطاء ، وبين الحين والآخر يشق القلم الأحمر طريقة بين الأعمدة والصفحات ،
وفى أقل من ساعة تكون الصحف السبع أو الثمانى قد شملتها نظرة فاحصة ،
والصفحات التى جرى فيها القلم الأحمر تغطى وحدها المنضدة والأريكة
والبيان ، ثم يقوم المقص الكبير بدوره ، وفى دقائق قليلة ، ترتفع القصاصات
فى كومة وحدها ، حيث يتم ترتيبها فى أنيقة ، ثم تركز مخلفات الصفحات
المهملة جانباً حتى تستطيع الخادم التصرف فيها ، بعد ذلك نشاهد القارىء
متغافلاً فى أغوار قصاصاته وهو يفكر ، وما من شىء يستطيع أن يبدو أكثر
اختلافاً عن تعبير قارىء الصحف العادى من هذا الجبين الفارق فى التفكير ،
وبعد لحظات تختفى القصاصات بوضعها بعناية فى ملفات مختلفة .

وقد تشاهد نفس الرجل مرة أخرى في وقت متأخر من النهار ، مستغرقاً في تفكير عميق، بينما يمتلي ذهنه بالأشياء التي قرأها في الصباح ، وقد تلاقيه ثانية في المساء ، وحوله حلقة من المستمعين ينصتون له في متعة واهتمام ولكن في صمت ، فهو يتحدث متمكن واضح العبارة بعيد عن التكلف ، وبين الفينة والفينة يوجه إليه أحد المستمعين سؤالاً من تلك الأسئلة التي تجعل كل شخص يتمنى لو أنه استطاع الإجابة عليها ، وهو يفعل هذا بطريقة واضحة مقدماً، وقائع تذكر أن بصرك قد وقع عليها في صحيفة الصباح، ولكنك توهمت أنها ليست مهمة في حين أنها ، على شفثيه ، تقدم لك مفتاحاً لتطورات غاية في الأهمية ، فتغمغم بينك وبين نفسك قائلاً : « هذا الرجل يفكر » .

ماذا يساعده على التفكير ؟ يساعده على ذلك أخذه للصحيفة اليومية ببساطة لما هي له أصل : صفحة تاريخ ، فابحث عن التاريخ في تلك الصفحات المكتوبة دون إتقان ، تساورك أفكار التاريخ، أما إذا بحثت عن أنباء المجتمع أو العمل أو الرياضة فستتحدث بلغة مائدة الشاي أو السوق المالية أو حلبة الرياضة ولكنك لن تفكر .

« فهمت ، أنك تنصحنا أن نعامل صحيفة الأنباء كما لو كانت كتاباً مدرسياً . »

« بالضبط ، قلة من الكتب المدرسية تستطيع أن تلخص العديد من الأحداث ذات الأهمية العالمية الفسيحة كتلك التي أصبحت منذ عام ١٩١٤ تملأ الصحف يوماً بعد يوم ، فلم تمر قط من الأحداث السياسية ذات الطبيعة الدرامية كتلك التي نتبعمها الآن ، فبعد أن أخذت أوروبا تستعيد ببطء توازنها ، راحت آسيا تقدم لنا درساً يستأنف أنظار الجميع ، وفي غضون ذلك أخذت

أمريكا ، وقد أرغمتها ضرورات من جميع الأنواع ، تنساق ببطء نحو المقدمة ، التي ظلت مدة طويلة تنفر منها ، وقد احتاج الأمر ، في عهود أخرى ، إلى أجيال ، لإحداث التغييرات التي نستطيع أن نشاهدها في عام ، ولا جدال في أن أية صحيفة يومية أوفر مادة من أي كتاب مرشد ، ولا مشاحه أن أولئك القوم الذين يلقون النظر عليها يومياً دون أن يدركوا أنه لو اعتمد نوع تفكيرنا على ماثيره الصور الذهنية التي تحتزنها تهيأت فرصة لا نظير لها، عميان ولكن من المؤكد أن معظم الناس عميان ، ذلك لأن من يسمون بالعقلاء أو الحمقى يتفقون في التحدث بازدياد عما يباطلونه جميعهم دون حصافة أو ذكاء. «

وقد كان القسمان السابقان محاولة لوصف : —

١ — إعداد حياتنا وعقولنا لنوع أسمى من الصور الذهنية .

٢ — اختزان تلك الصور الذهنية . — ونصل الآن إلى :

٣ — العمل التفصيلي لهذه السجاياء المكتسبة في العقل .

الفصل التاسع

تميـة البـيات في العـقل

(١) فحص معرفتنا :

ذكر لي مرة ابن كازا Cazin المصور الفرنسي الشهير ، وكان هو نفسه فنانا ملحوظا ، أن والده كان يخرج به في جولات مهنية داخل الريف ، وكان الرجلان يقفان ، بين الفينة والفينة ، دقائق قليلة ، وأحيانا دقيقة واحدة ، ثم يروحان ، بعد أن يديرا ظهريهما للمنظر الطبيعي ، يختبران ما وعته ذاكرة كل منهما من القيم خلال هذه الفترة القصيرة ، وكانت مقدرة أكبر الرجلين سنا على الاستيعاب والتذكر خارقة للعادة ، وكان يستطيع أحيانا أن يبرهن بعد شهر أن أنصاف الظلال والألوان الخفيفة المتداخلة ، التي لا تميزها الرؤية العادية ، لا تزال واضحة في ذاكرته ، وقد اكتسب كازا هذه الخبرة من ليكوك دي بواسبودرا ، وقد علمها لكثيرين غيره من رجال الفن بينهم ومن رودا.

ونستطيع أن نفعل بالقرآن المنسقة العادية ما يفعله المصورون بالقيم اللونية ، ويضاعف الاختبار ، أو فكرة الاختبار ، طاقتنا الفكرية عشر

مرات ، و يروى مرونشيلي في تذييله لكتاب « معتقلي » لثوفه سلفيو بليكو ، كيف استطاع مع بليكو ، وقد حرما من الكتب والأقلام والورق خلال الشهور الأولى من أسرها أن يوفر الغذاء لعقليهما ، وكانا يراجعان ، أحيانا فرادى وأحيانا جماعة ، ما يذكرانه ، يوماً في التاريخ ، ويوما في الأدب ، ويوماً ثالثاً في الفلسفة ، وبإضافة ما عند أحدهما إلى ما عند الآخر كان مثار الدهشة أنهما استطاعا أن يتذكرا أكثر جداً مما كانا يظنان ، وبالتدرج انتظمت معرفتهما وأصبحت معدة مهياً بعد أن كانت فوضى معدومة النفع ، وفي الوقت ذاته ازداد غقلاهما حرية وانطلاقاً ، حتى لقد استطاعا ، دون قلم وحر أن يقرضا أشعاراً طويلة ، عاش بعضها معتزلاً بارزاً في ذهنيهما حتى نعما بالحرية أخيراً ، ويسهل أن تستنبط من كلمات فرونشيلي أن الرجلين ، وقد ألقي بهما القهقري في خضم الوسائل البدائية ، وقد ساعدتهما أيضاً دون شك البهجة الروحية للمشاعر البدائية التي سجل مثلها المعتقلون بالسجون البلشفية ، كانا أشد قرباً لروحيهما وأكثر امتلاكاً لمواهبهما مما كانا عليه في أي وقت مضى .

ونستطيع جميعاً أن نؤدى العملية ذاتها ، ولا يتيسر لأى مران أن يشغل الساعات الخالية أو أنصاف الساعات فيما هو أجدى وأكثر نفعاً ؛ ويصدر التمازج العجيب بين لهفة المشتاق ونفور الكاره الذي يساور معظمنا حين تفكيرهم فيما تعلمناه بالمدرسة ، أجل يصدر ، دون خلاف تقريباً ، من سبب واحد ؛ فحين غادرنا المدرسة شعرنا باقترابنا من المعرفة ، وهذا مبعث سرور ، ولكن منذ ذلك العهد قلما وجدنا أى مزيد في اقترابنا منها ، ويخلق الشعور بهذا شبكاً له طابع النقص المعتاد ، فإذا تهيأت فرصة لأن تستكمل ما لم يتم إنجاز قط

بأى شبح عقدة النقص دون إرجاء ، احتوتنا بهجة روحية ؛ وكم من والد ممن يساعدون أطفالهم في دراسة كتبهم عن قيصر ابتهجوا ، بل استمتعوا في يسر ، حين وجدوا حسنا قاتنا لم يكن ليبدو لهم ، منذ سنوات كثيرة إلا لماماً . ولو كان كتاب قيصر قد قرئ ثانية بالكلية لكانت النتيجة مائة ، ولكن قيصر لم يقرأ في الكلية : لقد قيل له بالمدرسة ، وداعاً ، وترك كجنين للذة حتى تتاح فرصة غير مرتقبة ؛ ونستطيع أن نقول نفس الشيء عن كل ما تعلمناه أو طالعناه . سراعاً ونحن بالمدرسة .

الفحص عقلياً ما تذكره ، واستكماله ، حين تدعو الحاجة ، بدراسة بالمنزل . بضع دقائق ، فسرعان ما تعرف معنى التعليم ؛ ألم يوجد كتاب أثر عليك بنوع خاص في تلك الفترة من الحياة حين كانت الانطباعات في أقصى عمقها بسبب . قلتها ؟ ثم أليس شمة شعر تذكر أنك سمعته أو تعلمته ، وظل منذ ذلك العهد . في ذا كرتك كتجسد للشعر ؟ وهل لم يستجد شيء منذ ذلك الحين ؟ لقد شاهدت مرة رجلاً يخرج من حافظة جيبه قصاصة مطوية بعناية : إنها قصيدة شعرية ، من إحدى المجلات ، وكان هذا السيد يحملها معه كأنها الطلسم ؛ ولا بد أن هناك بعض الأشعار التي لا تستطيع أنت أيضاً أن تنساها ؛ فإذا توافرت لديك بضع دقائق ، اغمض عينيك واستمتع ببعضها كما قد تستمتع بذكري عزيزة . عطرة ؛ وكم من ساعة مملّة في القطار ، أو بفندق موحش ، أو على ظهر سفينة . تأقت بهذه العادة كما تتألق قاعة بياقة من الزهور .

وعلى النمط ذاته ، نذكر جميعاً لحظات ، مآزق كانت الدراري في حياتنا . العقلية ، موفرة للقوى حيث اعتاد الضعف أن يسود ، أو الهدوء حيث انعدمت . الراحة ، ونستطيع أن نسترد الشعور بتلك اللحظات ، فهو حين يابح روحنا .

يهتز ثانية كل خيط في كيانا كما يشع فييد الشمبانيا حبابه حين يلامسه
الفتات ؛ وتوهما أننا كنا نتفحص فقط ثباتاً تاريخياً لأفعالنا ، وفجأة نجد أنفسنا
في خضم القسم المنتج من شخصيتنا .

ونستطيع أن نشغل بالنفع ذكرى رحلة سابقة تستحق التذكر ، فالناس ،
في الوقت الحاضر ، يسرفون في السفر وفي التبكير فيه ، ويعلق الفلاسفة على هذا
بأن مساراً يخرج مساراً آخر ، وواضح أن من هم أقل حظاً في السفر أوفر حظاً
في غيره ، فشارلوت برونتي ، التي ولدت على مسافة خمسين ميلاً من البحر
شاهدته لأول مرة وهي في الرابعة والعشرين عن عمرها ، ولكن المنظر هز كيائها
هزاً ، وقد أشارت بعد عام إلى خبرتها هذه ، كما قد تشير فتاة أخرى إلى حبها
الأول ؛ وثمة روعة في تذكرنا لأول شعور ساورنا ونحن في بلاد أجنبية ،
شاعرين بالبعد وبانحسار ثقتنا قليلاً ، وبيعض الضياع ؛ وينبغي ألا ننسى قط أول
شيء تفصح لنا عنه مدينة بأواسط إيطاليا ، أو خليج محاط بأشجار الصنوبر
من خلجان البحر الأبيض المتوسط ؛ أو صحراء الأريزونا ؛ حين مشاهدة
أى منها لأول مرة في الفجر المهييب .

وينبغي أيضاً إذكاء الجمال الفني بالعقل ، ولماذا نعد هزات القطار وهو
ينزلق فوق القضبان أو نحسب سرعته ، في حين أننا نستطيع أن نحصل على
نصف ساعة رائعة نذكر خلالها قاعة أو اثنتين من قاعات اللوفر ؟ فيمران قليل
تستطيع أن تستعيد لذا كرتك تمثال « فيس دي ميلو » أو صورة « عرس
القديسة كاترين » في وضوح تام حتى لتشعر مرة أخرى بنشوة الانطباع الذي
خلفته هذه الروائع الفنية على نفسك ؛ فامنح نفسك فسحة قليلة من الزمن وعندئذ

تسهر بمهابة اليونان أو بروعة إيطاليا تتعاقبان ؛ وستجد نفسك ، دون أى جهد ، لافى خضم مران عقلى فحسب ، بل واصلا إلى الحالة التى يكتب فيها ند لراسكن عن الفن .

وتستطيع حياة العطاء أو أفهام العظيمة أن تجعل الوحدة مأهولة غير موحشة ، فحياة القديسين ، وتأتى فى القمة ، حياة المسيح : قد ملأت الوجود بألاف المفكرين ، وحين يصف الكتاب الروحيون الفرنسيون هذا التأمل الروحى يستخدمون عبارة رائعة : «التحدث عن حياة القديسين» ويعنون بهذا ازدواجاً من مواصلة تحدث المرء إلى نفسه عن تلك الأرواح النبيلة وحفظه لنفسه حيا بهذا الحديث ، وما من كلمة تستطيع أن تكون ذات معنى نفسى أوفر خصوبة أو أكثر دقة .

وقد أدرك القدماء فضل هذا المران ، فلنذكر أن بلوتارخ ، الذى جاهد أكثر من أى شخص آخر ، قبل الكتاب المسيحيين ، ليعمه بين الناس ، كان كاهنا وكاتبا أخلاقيا ، وكانت قصصه صورة من مبدئه ، وقد غذى نزعة الميل للتاريخ ، التى ميزت عصور روائع الأدب القديم ، والتى تضاءت فقط حين تخطى الفنانون العطاء ذو الأعمال الجيدة إلى المقدمة ، أجل قد غذى هذه النزعة إعجاب أشخاص غير عاديين أكثر من مجرد اهتمام بالسياسة ، وتقول مدام كامبا فى مذاكرتها الممتعة ، إن مدام لويزا ، ابنة الملك لويس الخامس عشر الصغرى شغلتها بضعة أشهر ، وهى تقرأ لها تاريخ فرنسا ، لأنها أرادت أن تفرغ من سماعه قبل انضمامها لراهبات الكارمليت ، وحين تضيف قائلة « عمل بطولى واحد فقط كان مستطاعاً عند هذه الأميرة وقد فعته » ندرك أن أمثلة النبيل

التي تجمت من هذا المنهج في المطالعة ذى الأثر الكبير على ما عقدت عليه ابنة الملك النادرة من عزم ! ويعرف كل إنسان مهتم بالرجال والنساء، الذين لا يكون التاريخ بدونهم، سوى نسق واحد عديم اللون والطعم، أنهم على الرغم من موتهم فيهم من الحياة قدر أكثر من الآلين الذين نراهم يسرون حولنا، وكان حريا أن يصبح التفكير فيما يتعلق بهم هو الحافز الطبيعي لمعظمتنا إذا لم يكن لفظ التعالي ومرادفاته مفرزا لدنيا من النعاج حتى جعلها نسقا واحدا، ولم يكن أى واحد من التارين العقلية التي حاولت وصفها جهداً شاقاً بل كان أعظم ضروب الاسترخاء حيوية وتنشيطاً لأى شخص أتاحت له هذه الفرصة .

(ب) إمعان الفكر :

هذا هو بوجه عام ما يطلق عليه الناس اسم التفكير ؛ فيظن المرء أنه يفكر حين يكف عن الكلام أو الكتابة أو القيام بعمل ما ، أو حين لا يتحدث إليه شخص آخر أو ألا يكون نائماً .

وإمعان الفكر أمر أكثر إيجابية ، وقد سبق أن قلت إن مدام دي منتينو تعرف إمعان الفكر بأنه : «معاودة التفكير بانتباه بضع مرات في نفس الشيء» ؛ هذه البساطة في اللغة تشرح الصدر وتفصح عما تعنى أن تنقله كاملاً كأنه اللغة العلمية التي سادت المجتمع في القرن التاسع عشر .

ويصح قطعاً أن يكون تعريف مدام دي منتينو محطاً للنقاش ؛ إذ يبدو أنه يوحى بمجرد التكرار ، في حين أنه لا بد أن تبدو وجوه متعددة للمقترح الواحد عند إمعان الفكر، ولكنه دقيق فيما يتعلق بتبيان له لوجود موضوع واحد داخل العقل مستحوذ عليه .

ونعلم جميعاً أن إمعان الفكر ، يأتي في مبدئه بوحى الخاطر ، ثم يأخذ تدريجياً في التريث الذهني والإدراك الوجداني ، فغالما يشعر طفل بالخوف من شيء أو الميل لشيء آخر يقلب في رأسه الصغير وسائل الفرار مما يخشى ، أو الحصول على ما يرغب ؛ ويحدث هذا كما هي العادة ، باستحضار الصور الذهنية ، أو مجموعات الصور الذهنية ، التي تظهر للعقل صوراً لما يحتمل أن يحدث؛ وفي النهاية تبدو سلسلة متماسكة من الصور ، سيناريو بأكمله ، أكثر احتمالاً من منافسيها ، وتقف قوة الفكر في بحثها وراء الإمكانيات ، وهذا الاعتراض هو مانسميه قراراً ، إذ تطلق الصورة المتبقية أخيراً قوانا الاختيارية للعمل ؛ وموضوع إمعان الفكر ، بوجه عام ، هو دائماً اكتشاف شيء مرض للعقل لم يكن هناك في مستهل البحث ؛ ولا يوجد فرق أساسي بين هذا الاكتشاف والاختراع العلمي ؛ وقد سأل أحد الناس نيوتن قائلاً : « كيف اكتشفت قانون الجاذبية ؟ » فجاءه الرد : « بالتفكير حوله كل الوقت » .

ولا يتسم الناس دائماً بالوضوح في هذا الشأن ، لأن أفضل تفكيرهم يتم حين يظنون أنهم لا يفكرون ؛ ومن ثمة لا يمكن استرداد أوجه تفكيرهم المتعاقبة من عقلمهم الباطن أو اللاوعي ، ولكننا في كل مرة نوفق لإلقاء نظرة على العقل الباطن نشاهد سلسلة الصور الذهنية ، وليس من النادر أن نستيقظ في الصباح وقد صفت السماء حول فكرة كانت تكتنفها غيوم الشك حين ذهبنا للفراش، وإذا استطعنا أن نتذكر آخر مجموعة من الصور الذهنية في الليلة السابقة ، وقارناها بالمجموعة التي ارتضيناها في الوقت الحاضر ، فلن نجد مشقة في اكتشاف تسلسل الصور الذهنية الوسيطة .

وهكذا فإن إمعان الفكر حالة طبيعية ، ولكن فقط عند الانفعال الناتج عن الرهبة أو الرغبة ، وحين يكون هذا الحافز سطحياً فحسب ؛ فإنه ينتج ردود فعل وهمية وهي الأخرى مفرطة في سطحيتها حتى لا يلاحظه أحد ، وهذه هي حالتنا العقلية المعتادة ، ولو أحرزنا ذوقاً لإمعان الفكر ، أو كما نقول ، للتأمل ، أو لو أن حافزاً أجنبياً عن تفكيرنا جعلنا متلهفين لحيازته لالتزمنا أن ننفذ عنا غبار ركودنا العقلي كما نفكر ، وتأملات الصباح لدى الأتقياء من الناس حمل ثقيل على عاتقهم مادامت تعتمد على كتاب لتدعيمها ولم تصبح شخصية ، أو بتعبير بسيط ، ذاتية نفسية ، وإلا فسنتظر الكتاب أو أى موجه آخر ، ليقوم عنا بالتفكير المطلوب .

وينبغي أن تفرض على الأطفال بالمدرسة تمرينات فكرية منظمة ، ويرتب نظام منتسوري التعليمي فترات يجب خلالها الأطفال وجوههم الصغيرة ويفكرون ، كما أن مدام دي منتينو نصحت بتكريس أوقات للصمت ، ويعالج التوجيه الذى أشرت إليه سابقاً طرق الانتفاع منها على أكمل وجه ، وتلاحظ هذه المرأة المختبرة أن فتيات سان سيركن ياحفن فى إعطائهن الحل لجميع مشكلاتهن — حتى ما يتعلق منها باللعب — وأن عبارة « تسكرم بإخبارنا » كانت تتردد على شفاههن أكثر من عبارة « دعنى أفكر » .

سل فصلا من ثلاثين أن يشرحوا مسألة صغيرة عصية التفسير لدقتها ، ولكنها ممتعة إلى حد استرعاء انتباههم ، فسرعان ما ترتفع معظم الأيدي ، هز رأسك بالرفض وتمسك بأن تكون الإجابة كتابة بعد التخلص مما أثاره السؤال من جلبة وانفعال ، فستشاهد بعد لحظات قليلة على الوجوه البادية الذكاء بسمة

معناها « كنت سأتكلم كأحق وقد فطنت أنت لهذا » بينما لن نرى شيئاً قط على باقى الوجوه ، وسيسعدك الحظ لو وجدت طالباً واحداً من المجموعة يقوم بأى تفكير على الإطلاق .

ولقد رأيت فصولاً تعانى حقاً من مران ينبغي ، على الرغم من ذلك التمسك به ، والمسارة للاعتياد عليه ، أعط الطلاب مقتطفات لاتينية لاتسمح لهم بصعوبته بمطالعتة لأول وهلة — ولتكن مثلاً قطعة رائعة من أوفيد — وضع الشروط الآتية :

١ — عدم كتابة أية كلمة لمدة خمس وأربعين دقيقة .

٢ — عدم استخدام القاموس خلال نفس المدة ؛ والاقتصار على دراسة القطعة وفحص الفاظها الصعبة حتى يمكن تفهمها .

٣ — فى ختام الخمس والأربعين دقيقة يسمح باستخدام القاموس لمدة ثمانى دقائق .

٤ — وبعدئذ فقط يسمح بالشروع فى كتابة الترجمة .

وما رأيت هذه الطريقة قد فشلت قط ، فهى ببساطة تأخذ إمعان الفكر غالباً ، ولكن العقول الصببانية لاتميل إليها حتى لتصبح المحاولة فى مبدأ الأمر محنة ، فتتحرك الأصابع الصغيرة نحو القلم والقاموس فى نفاذ صبر ، ذلك لأن العادة هى التخلص من السبب بقدر المستطاع من السرعة .

ويبغض الطالب العادى إنشاء مقال لأن خبراته الماضبة كانت خالية من

المتعة ، فهو يعلم أنه بعد سطور قليلة سيأتي فراغ تخلفه الحاجة للكتابة بأى ثمن ،
فلو كان قد تعلم قبل تجربته الأولى ألا يخطط كلمة واحدة في مقال حتى يكون
برمته تاما في الذهن ، ويمكن الكلام عنه في لغة بسيطة ولكنها واضحة ، لما عرف
قط هذه الحالة المشينة ، فدعه يجد ، عن طريق التفكير المستقصى الناطق ، في
الموضوع الذى يعالجه ، إنه ما من شيء يأخذ باللب كأن يحزم المرء أمره فيما
يتعلق بشيء يستحق الاهتمام ، وإن تدوين ، نتيجة هذا الاستقصاء ليس لها أهمية
خالصة ولكنها وسيلة قطعاً ، وعندئذ سيختنى إلى الأبد شبح المتأمل باعتباره
صراعاً فاشلاً ضد الخواء ، وتستنطيع أن تطرد ، بنفس السهولة ، شبح تعالي
الكتب ومنتجى الكتب بأن تبين أن الكتاب ما هو إلا سلسلة من فرادى
الفصول المجهزة على هذا النمط ، وأنتك تستطيع ، على حد قول لابرير ، أن
تتعلم كيف تصنع كتاباً ، كما تتعلم كيف تصنع ساعة .

(ج) الكتابة كعون للتفكير :

إن عادة استخدام القلم واليداد - كى يعقد المرء عزمه - وهى التى وزد وضعها
وذكرها بالفصل الذى يعالج تركيز الذهن ، ينبغى المحافظة عليها خلال الحياة ،
وهى نافعة ، ليس فقط كعون لإمعان الفكر ، إنما كعنصر هام فى قائمة لأشياء
غاية فى الأهمية .

وهناك مسائل كثيرة نعتبرها حيوية على الرغم من غموض إدراكنا لها ،
خالق ، والخلود ، وأساس الأخلاق ، والطبيعة ودعامة السعادة ، والمحبة والزواج
وقائدة الحياة ، والتعليم والمبادئ الأدبية أو الفنية ، هذه جميعها ماذا تعلم عنها ؟
القليل الذى يقرب من العدم ، وكثيراً ما سمعنا هذه الموضوعات تلوكمها الألسن ،
بن كثير ما لا كتبنا حتى نتمد تسربت تدريجياً إلى عقوباتنا الفكرية

بأنها أشياء مألوفة؛ بيد أن هذا مجرد وهم خاطيء، وهو نفس الوهم الذي نرزع
تحتته حين نصل أخيراً إلى قرار، بعد أن نرجى طويلاً فخصنا لاتجاه عملي مهما
حدث أن ألحف علينا بجديته وغرابته، عند ذلك يخيل إلينا بصورة ما أننا
كنا نزن ماننا وما علينا أكثر مما أدركنا ثم ندعو تلكونا الوقت الذي
صرفناه في التفكير، ولكننا في الواقع لم نكن نفكر قط، ولكننا كنا فقط
راغبين في التفكير، وإذا استطعنا أن نحصى الدقائق التي كرسناها للقيام
باختبار ناقد لعكوفنا الفكري على حياة مستقبلية مثلاً، دارت رءوسنا حين
نعلم الرقم المضحك، فآلاف التنويهاات، من أنفسنا ومن الآخرين، بالخلود
لا تكون فكراً، ولكنها تعنى فقط أن الخلود مسألة هامة لا يستطيع الناس
الإغفالها؛ وإني لأعرف رجلاً من كبار رجال الأكليروس كان يرغب دائماً،
ودائماً يرجى دراسة كاتدرائيته، وهي من أشهر كنائس أوربا، وكلما سمعته
يقول: «كاتدرائيتي» أفكر دائماً قائلاً لنفسى: «لا، أنت لا تملك هذه
الكاتدرائية بل هي التي تملكك» وهكذا الحال مع تلك المسائل العظمى التي
نقول بحق إننا ملك لها ولا نجروء على القول بأننا نملكها.

وبالصحافة اليومية عدد من الكتاب، ذكور وإناث، يهتمون بأن يكونوا
رأياً عن كل شيء؛ ويوما إثر يوم تفيض أقلامهم ببضع مئات من الكلمات
يعبرون بها عن آرائهم في مجموعة هائلة من الموضوعات التي تتوافر المتعة في
معظمها، ويقل تعرض الخبير للخطأ في تقديره لمدى الزمن الذي خصصه زملائه
الكتاب لكل مسألة على حدة، وفي الاستماعة تقديره بالدقائق، لا بالساعات،
وقدما استند المؤلفون لأى ضرب من الأدب، بل ولا لموسوعة، ونسكنهم
ننعوا بتلخيص معرفتهم الهزيلة للبيانات، وما خنته على أنفسهم من أثر أشد

هزالا ، ومع ذلك فهذا أفضل بكثير من العدم الذى تطالعنا به المقالات التى نقرأها .

وسيكون فتحاً عظيماً لو أننا أيضاً فعلنا ذلك ، فنقصر أنفسنا على تسجيل ما نعرف ، وما يساورنا الشك فيه ، وما نريد معرفته ، وقد يكفى وضعنا فى مستهل الطريق المؤدى إلى المعرفة ، أو على أية حال ، إلى الفهم ، وقد اعتاد القوم فى القرن السابع عشر أن يدونوا مثل هذه التأملات فى كراسة ، يضيفون إليها ، من حين لآخر ، معلومات جديدة ، ونحن فى الوقت الحاضر نهيم غلافاً ونضع فيه مذكرة قد تمد ، مثل البلورة الأولى فى الحلول ، أفكارنا عن الموضوع ، بالصلاية والتناسق ، وهذا يسفر عن نتائج باهرة .

كذلك استخدم أناس القرن السابع عشر أقلامهم بأثر مماثل لينتهوا إلى رأى عن الأحياء من الرجال والنساء ، وكان من المحتمل أن تكون صور هؤلاء الأحياء بالغة التعقيد ولكنها جعلت قوة الملاحظة ونزعة النقد غريزة ، وبعضها ، مما كتبتها قوم مغمورون تقريباً ، أوضحت ذات قيمة للمؤرخ ، حاول هذه الطريقة لصالح أقرب أصدقائك ، أو فى الدفاع عن النفس ، أو بدافع من حب الاستطلاع فحسب ، ومرعان ما تشعر ببصيرة تتغلغل فى نفوس جيرانك ، الأمر الذى لم تتحه لك أعوام السلبية على الإطلاق .

فهل يتبع هذا أن تتاح للكتاب المحترفين أفضل فرصة للتفكير على أكمل وجه ؟ ليس هذا حتماً ، فقد قلت فى الباب الثانى إن الكاتب المحترف معرض لخطر الوقوع فريسة لأوهام كثيرة ، فالحساسية التى يكبح جماحها هى من نصيب أولئك الذين بلغوا ذروة العظمة فحسب ، والموهبة العادية تعرقها دائماً الحساسية المفرطة ، والفكرة بأن المرء يكتب للجماهير ، لتلمس الخطأ أو بالأكثر لسوء

التأويل ، من شأنها أن تسفر عن نتائج سيئة لا يقع فيها ذلك الشخص الذي يكتب فقط لإذكاء قدراته على التركيز الفكرى ، ولكن سلطان الإنشاء المقوى يعوض عن هذه العقبة الكأداء ! بل إن أى صحفى ، إذا كان جديراً بمداده ، سيبدأ عادة مقاله لسبب واحد وهو أنه مسوق لكتابته ، ولكنه بعد دقائق يأخذ فى الاستمتاع بالعمل لأنه يطلق مواهبه من عقالها ويهيئ لها مجالاً غير مرتقب ، فالعقل بقعة مسحورة لا محيص من أن تزورك بها أشباح فتانة ، كما لا محيص لصائد الأسماك الليلي من رؤية الأنوار المتألقة التى تنبعث من غازات المستنقعات المائية .

وليس هذا كل شيء ، فما من كتابة جيدة بل ولا مقبولة ، تخلو من نوع ما من التخطيط المقدر لإرشاد القلم ؛ وخلال إنتاج هذه المخططات التى تشبه تماماً العمل التحضيرى للفنان ، يكف الكاتب عن التفكير لقراءه ولا يفكر إلا لنفسه وهو واثق من إنتاج أفضل ما عنده .

وهناك فترة فى الحياة يستقل فيها الكاتب عن قارئه ، الذى لا يشك فى رضاه ، كما يستقل عن أسلافه الذين لا يعتبرهم سوى مبشرين بمحبته فحسب ، وفيها أيضاً يستطيع أن يبدد الأشباح بمجرد ضربة من قلمه ، وما أسعد طالع أولئك الكتاب ، أمثال يرون وشلى وباريه ، وعدد من الفلاسفة ، الذين شرعوا فى نشر أفكارهم قبل أن يبلغوا سن العشرين أو بعد بلوغها بوقت قصير ، فهم لم يعذبهم الوهم بأنه « لم يبق فى قوس القول منزع » ، وجميع الموضوعات العادية الكبيرة ، التى لا تنى عن أن تخلب ألباب العالم ، كما تخلب ألباب الأطفال ، تهدو لهم جديدة فى ثوب قشيب ، ولم يسبق لإنسان أن رآها وجهاً لوجه كما يرونها ، كما يبدو لهم أن كل فكرة ترد على أذهانهم جديدة

بالإفصاح عنها بل ونشرها ، وهم على حق إلى حد كبير، فليس ثمة موسيقيان يستطيعان عزف نفس المقطوعة في تماثل تام ، ومع تقدمهم في الحياة تحيط بهم أفكارهم الشابة كالحرس ، وقد تصلبت بطابعها ، وتحميهم من الشكوك والخور ، وكان من المحتمل أن رجلا مثل باريه ، لم يفصله عن التهييب سوى ثقة عارمة ، أن يستنفد قدراته في السخرية ، لو لم يبدأ في اعتبار كل أفكاره شعراً منذ أن كان في التاسعة عشرة من عمره .

(د) محافظة المرء على أفكاره :

إن الشخص الذي لا يحتفظ بمعالم ما يتعلمه أو يفكر فيه يشبه في حماقته من يحرث الأرض ويبقى فيها البذار ، متحملاً أشد المشاق ، وحين ينضج المحصول للحصاد يدير له ظهره ولا يعاوده التفكير فيه .

ولبعض الناس ذاكرة ذات مقدرة فائقة على الحفظ وتستطيع العمل بأقل قدر من المذكرات ، ولكنه لا يأبه لهذه الظواهرات غير المألوفة ، ولقد وجد معظم من كونوا لهم اسما بارزاً في الأدب أو السياسة أو المال أنه من الضروري أن يحتفظوا بذاكرة من الورق ، أما الذين توهموا أن في استطاعتهم الاستغناء عن عناء تكوين هذه العادة وما تسببه من مال ، فلا مشاحة أنهم ندموا لذلك يوماً ما ، فرجال الفكاهة الذين يعرفون الذاكرة بأنها الموهبة التي تمكننا من النسيان ، يؤكدون حقيقة مشثومة لا أكثر ، فالآثار النفسية الرائعة أو النابضة بالحياة ، التي يخيل إلينا أنها لا يمكن أن تمحى من وعينا لا تبقى فيه أكثر من أسابيع قليلة ، وأحياناً بضعة أيام ، ما لم يحدث شيء يكسبها الدوام ، وتعلم الحياة المزدهجة بالعمل ذا التحول الوراثة أن يفعل ذلك ، وسرعان ما يتحقق أى شخص ، يضطره قدره في الحياة لأن يستخدم

ذهنه بطريقة إيجابية ، أنه لا يستطيع التفريط في أى مصدر من مصادره ،
فيضع خطة يوقف بها أى ضياع أو تبديد ، فإذا كان ثرياً اشترى العون من
سكرتير مدرب ، وإذا لم يكن راح يطالع الكتب التى تشرح وسائل
التثقيف أو وسائل العمل (وهى متماثلة تقريباً) أو راح يبتكر وسائل من
عنده ، وتدهشنا المعرفة الهائلة التى يحرزها بعض الكتاب فيما اعتدنا أن
نسميه بالسياسة الخارجية ، ولكن ينبغى أن نسميه فى الوقت الحاضر بسياستنا
جميعاً ، ونعجب لضخامة الملفات التى يلزمهم حفظها ، وللصعوبة التى يجابهونها
هم أنفسهم ليشقوا طريقهم بين هذه الأكداس من الورق ، وحقيقة الأمر أن
المسألة لا تحتاج لأكثر من مجلدات سمكة تضم فرادى من الورق الغليظ ، كى
يلصق عليه ، رأسياً وأفقياً ، قصاصات من الصحف ، وتعليقات المداد الأحمر
تزيد هذه الملفات دسماً وخصوصية ، والسر هو قص كل ما يبدو مهماً « فى
الحال » ؟ والصحف اليومية وثائق تاريخية يعدها رجال ونساء ، هم بوجه
عام يجهلون التاريخ ولا يكثرثون له ، ولعل حدثاً بعيد الغور والتقصى يرد
ذكره بعمود غير ظاهر وبحرف عادى لا يوحى بالتأكيد ، بقلم من يسمون
بالإخصائيين الذين لا يدركون أهمية هذا الحديث ولا يشيرون إليه أبداً مرة
أخرى ، فما لم تضم قصاصة هذا المقال فى الحال إلى ملف ، فقد يعنى غيابها فقد
حلقة رئيسية فى سلسلة الأحداث .

وليست الوقائع سوى المادة للفكر ؛ بل وينبغى زيادة العناية بالمحافظة على
الأفكار ذاتها ، أو بتعبير آخر ، التائق الذى ينتجه فى عقلنا وجود وقائع فنية ،
ومن المؤكد أنه من الصعب ، وقد يكون أحياناً من غير المأمون — لما فى
ذلك من إيقاف لحركة العقل — اعتراض رد الفعل العقلى رغم ملاحظته ،

ولكن ما دامت النتيجة النهائية للتوسط أماناً، ففي مقدورنا أن ننقذه من المصير المحتوم لكل الأحلام ، ويلزم أن تكون الملاحظة من الإيجاز بحيث تكفى لاستبعاد خطر ما تدعوه كتب الفيد الهندية «وضع كلمات بين الحق وبين أنفسنا» ولكن يلزم أن تكون من الامتلاء بحيث تكون واضحة لأصحابها عند إعادة مطالعتها في المستقبل بل ولغير أصحابها، وإذا شعرنا بحافز لإعطاء شكل نهائى لفكرة تزحم عقلنا فمن الحماسة مقاومتها أو تعطيلها، وأفضل الصفحات فى كتاب ما هى تلك التى يكتبها المرء وهو متأثر بمثل هذا الحافز ، وكم من كاتب ، ممن اضطرتهم الحياة للقيام بعملهم على الرغم من الظروف غير المواتية ، قدر الجميل لنفسه بعدم استسلامها للكسل حين تهيأت لذلك فرصة لبصيص أو شعاع من الضوء ، فهو لا يعرف إلهاف وعذاب الوهم بأن فكرته عن شىء كانت يوماً ما أكثر رفعة وأشد وضوحاً مما هى الآن .

وتحرير الكتب هو مجال المتخصصين ، أما العيش فهو عملنا جميعاً ، كما أن الحياة الأدبية والحياة العاطفية، والحياة الدينية، وكل ما يسمو على مجرد الوجود من التراب وإلى التراب ، تتألف من إشعاعات حالما تنفصل لا تعود مرة أخرى، ولعل يومية أو بضع رسائل قديمة أو بضع صفحات تحوى أفكاراً أو تأملات تحفظ الصلة بيننا فى الوقت الحاضر والجانب الأفضل من ذواتنا فى الماضى ، ولشد ما تأثرت كشاب بنصيحة كاتب روحى بأن يقرأ المرء مذكراته الخاصة ذات الطابع الروحى ويفضل منها ما كان متعلقاً بكتاب مشهور ، ويبدو أن جميع القديسين قد فعلوا هذا ، وحالما ندرك أن أية فكرة ، سواء أكانت ملكاً لنا أم مستعارة ، من الامتلاء بحيث لا تتبدد هباء ، ومن الأصالة بحيث لا يمتثل أن تعود مرة أخرى ، فيلزمنا إثباتها على الورق ، فينبغى أن تكون

مخطوطاتنا مرآة مطالعتنا وتأملاتنا ومثلنا العليا ومط معالجتنا لها في حياتنا؛ ويعلم كل امرئ، اعتاد مبكراً أن يسجل نفسه بهذه الطريقة، أن ضياع أوراقه يعني أيضاً ضياع إمكانيات تفكيره .

(هـ) طراز الذهب الذي ينتجه هذا النظام العقلي :

ولقد عرفت شخصياً عدداً كبيراً من الرجال الذين ساعدنى ارتقاؤهم العقلي مادياً في وضع هذا الكتاب ، ولقد أثر على اثنان منهم أكثر من بقيتهم لأسباب سأطلع عليها القارئ فيما بعد .

ويساهم أحد هذين الرجلين بالكتابة في مجلة ذائعة الصيت ، وهو كاتب ذو شهرة عالمية في معرفته بالسياسة وعرضه لها ، ويرقب بشغف مقالاته الدسمة المتألقة كثير من المهتمين بمشكلات الشرق الذين لم تهباً ذات الفرص لاختيارها بأنفسهم ؛ ويناقشها جميع الإخصائيين باحترام ، ولقد رأيت أنه كان لآرائه ، في أكثر من مناسبة ، سلطان قوى جدا على مواقف رجال السياسة .

والرجل الثانى مؤرخ للأديان ، فمن الأمور الصعبة النادرة معالجة تاريخ الأديان بتوقير ومع ذلك باستقلال ، لضمان الإنصاف لهذه المسائل من النقاد الأحرار دون إهدار لاحترام المحافظين ؛ ولقد حقق هذا العالم اللاهوتى ذلك ، فالعشرات القلائل من المتخصصين المهتمين بالميدان ذاته يظهرون بلهجتهم في مناقشة آرائه أنهم يعتبرونها نتاج رغبة مغلصة لإيثار الحق على الرأى

ولقد عرفت هذين الرجلين البارزين منذ أيام شبابتنا ، وتقريراً للحقيقة المذهلة - ولكنها مثقفة - أذكر أنهما اعتادا، في تلك الأيام الخوالى، ألا يتركا في نفسى طابع البروز بل نقيض ذلك ، وبعبارة خالية من الزخرف ، كانا عاديين ،

والواقع أنهما أظهرتا صفات المناضلين — ما تسميه إعلانات النعى بالنشاط الذى لا يقهر — وما من إنسان تصور قط أن ينكر عليهما أكثر من نصيبهما فى الذوق العام ؛ كذلك أحرزا ذلك الصنف الغريب من الطموح الذى لا يسهل تمييزه عن ذوق للبروز لا بد أن يرفع المرء فوق تفاهته الأصيلة ؛ ولكن خصائصهما الغريزية كانت عادية ، وما زال الأثر الأول ، حين أقابلهما حتى الآن ، هو شعور بالقلق خشية أن يفسدا نسيج احتراشى لهما بقولها شيئاً لا يندسج مع رأى الرفيع الذى نكته جميعاً لما يكتبان ؛ ولم يفعلوا هذا قط ولكنى غير مطمئن تماماً أنهما لن يفعلوا ذلك فى المستقبل ، وقد ألاحظ أحياناً بسمة ، أو نبرة صوتية ، أو تحولا فى صياغة الكلام ، الأمر الذى يجعلنى أحس أنى على شفاهاوية ، ولكن لا يحدث شئ ، ولم أعرف قط أى شخص ألف هذين الرجلين منذ صباهما ولم يساوره نفس الشعور الذى يساورنى ؛ وما من أحد يتحدث عنهما باعتبارهما من العبارة ، ولكن كل إنسان يعتبرهما فعلا من الثقات فى الأدب الجاد ؛ وأعرف أن وجهة نظرهما الأصلية كانت ضيقة ، ولكنهما يبديان اهتماماً دائماً بتيارات الفكر الرفيعة وحين يثيران بعض الدهشة قلما يظهرانه من سرف فى نقورها الواضح من الصغائر ، فمماققهما لا نجد ، وظاهر أنهما ولدا ولهما ذاكرتان ممتازتان حشداها بالعديد من المعلومات ، ابتداء من الآراء الفلسفية إلى مجرد التفاصيل الإنسانية أو الجمالية ، وأقرر أنه لم يكن قط فيما يقولان أى شئ ينفذ للأعماق على غير ترقب ، ولكنهما مثبتتان من رأيهما فيما يتعلق بطائفة كبيرة من الموضوعات ، فقد احتكا بكثير من النظريات وطالعا كثيراً من المناقشات التى دارت حولها حتى لم تعد المحاولات لتدهشهما أو تزعزعهما ، فمخزن الذخائر عندهما مليء بالوقائع التى لا مناص للمحاولات من أن تأخذها فى الاعتبار ،

أو بالنظريات المضادة التي تحددها ، وإذا كان كل هذا غير موسد في لغة خالصة من كل نضارة كان لها مثل هدير التدفق الطبيعي من عقول قوية ، لأن ثمة ضوءاً يشع من جميع الوقائع الصعبة التي يعالجونها ، ويكفي الإشعاع كي يسكت تحفظنا الباطني .

وهذان الرجلان ، وهما الظاهرة الحية التي تساعد على التفكير ، كما ورد شرحه في الفصول السابقة، ينتجان شيئاً يشبه الفكر إلى حد لا يمكن تمييزه عنه ، ويهيئ للمرء أفضل تفكير بدلا من أسهل ضروبه ؛ وكانا طموحين مجدين ، وقد استعاضا عما يسميه الناس لذة بمباهج العقل ، وآثرا الموضوعات المتوغلة في النبل عما هي أقل نبلا ، وتخيرا دراسة الوسائل ، فلم يقتصر جزاؤهما على تقدير أندادهما ، أو على تأثيرهما الحصيف على الأحداث ، ولكنهما جمعا إلى ذلك الوعي بإحراز سلامة عقلية نادرة وباستخدام قواهما بأقل قسط من الضياع ، وتستحق هذه النتيجة بجدارة الجهد الأولي لتفضيل شيء على لا شيء ورفض الفراغ الشامل .

وقد أتيت لي ، أكثر من مرة ، فرص للموازنة بين هذين الرجلين ، وغيرها من الناس الذين يبرزونها كثيراً في المواهب ، والذين اعتدت اعتبارهم ممن قدر لهم التألق في الحياة ولكنهم أفسدوا كل شيء منذ البدء ، وذوت مواهبهم النادرة حتى أصبحت ضحلة سطحية ، والمجتمع مليء بمثل هذه الحالات من الفشل الذي يبدو أنه جاء طبيعياً ، ولكنك ستجد مثل هذه الحالات أيضاً في مراكز كان ينتظر منها تقيض ذلك ، وكثير من شباب الأساتذة الجامعيين والأطباء والمحامين خيبروا الآمال المرتقبة وأثاروا النفور أخيراً لأنهم يبسطه حشدوا العقبات بدلا من المساعدات في طريق تفكيرهم .

فماذا أعوزهم ؟ ذوق للكتب الجيدة ، فلقد آثر هؤلاء القوم الحديث غير

الدمم وأوراق اللعب ، أو خمول أندية الريف ، على ما كان بادياً أنهم قد ولدوا
للتعلق به ، ومن ثمة انحدروا تبعاً لذلك ، ويقدم لنا القديس سمعان معرضاً من
مجموعة لأمثال هؤلاء الفاشلين في وصف شديد القسوة في وضوحه وتألقه ،
ولكننا في غير حاجة إلا أن نتطالع حوالينا فترى صوراً حية منهم .

ستقول: إن المعرفة والمعلومات لا تترادف الفكر في معناه ، وإنه لا يمكن أن
يكون في تعليم المرء لنفسه هو فن التفكير ، من المؤكد أن الأمر ليس كذلك
في حالة العبقرية ، ولا شك في أن تزويد العقل بأفضل الطعام ورعايته بأفضل
القواعد الصحية هو الطريق الوحيد كي لا تقضى القدرات العقلية العادية على نفسها ،
استبعد القرائن والمعلومات فيحل الظلام مكان البقع المضيئة ، ألسنا نقول إن
الله يعرف كل شيء بدلا من القول بأنه تعالى يفهم كل شيء ؟ تصور الفرق في
عقليات كالتى لمبرانش أو لروسو إذا كانت أقل رضا بتألقها وأشد ميلا للعمل
الشرعى ، ومن ذا الذى يستطيع أن يشك في أن الفرق بين عهد كالقرن السابع
عشر ، المتسم بالوزانة الكاملة ، وعصرنا الذى لا يملك زمام نفسه من فرط
عصبيته ، صادر أصلا من تجهيزات العهد الأول ؟ فماذا يهيب لذوى الحدة من
الفرنسيين تلك البساطة السياسية الغربية التى تثير دهشة الأجانب سوى نقص
في المعلومات ؟ وما الذى جعل بوسويه ، وهو عبقرى ، أدنى مرتبة في الجدل
من ريتشارد سيمون ، وهو دارس لا أكثر ، إن لم يكن عدم التساوى في
الدراية بمشكلات الكتاب المقدس ؛ فما من قدر من العبقرية ، بالغ ما بلغ ، ليغنى
عن الوقائع ، إذا كانت هناك حاجة للوقائع وليس للعبقرية ، ومن الناحية الأخرى
فإن التمكن التام من ملابسات مشكلة ما يهيب للمرء ، إلى جانب الإتيان ،
تلك السرعة في الجدل التى لا يسعنا إلا أن نسميها تفكيراً متألقاً ، على الرغم
من أنها في الواقع معلومات فحسب .

(و) مزيد من التقرب صوب الفكر المبكر :

والتدليل على قيمة الوسائل المقترحة في هذا الباب الثالث، تعمدت أن أختار نموذجين من المستوى العادي ارتفعا فوق إمكاناتهما الظاهرة بالتدريب الذي فرضاه طواعية على نفسيهما ، ولكن استخدام نفس التدريب مع مواهب حقيقية من شأنه أن يسفر عن نتائج تملأ مؤرخي الأدب ، ولا يمكن اختيار نموذج لتمثيل هؤلاء أفضل من أرنست ، رينان

فكلنا نعرف أن رينان لم يكن عبقرياً، فهو لا يمكن مقارنته ، كفيلسوف أو دارس أو كاتب، بالمتفوقين حقاً من الناس ، ومع ذلك فبالذكاء والبصيرة النفاذة إلى الأعماق والرؤية التي تحيط بظواهر الأشياء ، بالروعة التقديم الذي يهيئه كتاب مثل « ماركس أوريليوس » لقراءة ذكية في التاريخ ، إن التفسير الذي طرأ على معنى كلمة « ذكي » والهالة التي أحاطت بها في الوقت ذاته ، تعود في مبدئها إلى رينان ؛ وحين يكتب السيد لانسو Lanson عن فيكتور هيجو ، فيقول إنه من المؤسف أن يدرك المرء أن مثل هذا العبقرى لم يكن ذكياً ، يعرف فوراً إن وجد الناقد الأدبي الفارق العقلي الطفيف الذي يؤكد بمثله هذه الجسارة ؛ فرينان ، أكثر من الرجال الذين يزيدون عليه قوة، سيظل النموذج للقدر على الإدراك الواعي ؛ وقد أظهر تقيف من المرئيين — من بينهم أناتول فرانس وجول ليميتير — كيف يمكن تعلم الطريقة بسهولة مع ضمان نتائجها المؤكدة .

١ — لم يقتصر ما أحرزه أي مطالع لأفضل الكتب — ليست روائع الأدب فحسب إنما أيضاً نتاج نقاد الأدب ورجال العلم في الجيلين الماضيين — على المعلومات فقط ولكنه أحرز نهجاً للتفكير أيضاً؛ وينتقل الذكاء بالاحتكاك

كما كان حال الرشاقة وسرعة البديهة في القرن الثامن عشر؛ وليس هذا ملاك الأمر؛ فقد اعتادت تين القول بأن الفكر عملية جماعية لا فردية، وحين نتحدث عن «العقل في التصنيع» نعني أن نقول بالضبط: اختبار المبادئ وتنميتها، وتحسين المسائل، استكمال وجهات النظر، جعل عمل العالم بأسره ملكا لكل الباحث فرد يعنى بضم نتائجها، وبعبارة واحدة «امتداد آفاق الفكر».

* * *

٢ — والمتعلمون الذين يستوعبون بهذه الصورة نتائج الجهود الجماعية يذائقون دائما لرؤية صلوات بين الآراء أو بين الوقائع، ويعتادون على البحث بأنفسهم عن هذه الصلوات؛ ولا يستطيع رجل حديث أن يفكر في موسوليفي دون أن يفكر أيضا في نابليون، وتساعدته فرنسا بعد عام ١٨٧١ على أن يفهم وجهات نظر معينة عن العقلية الألمانية بعد عام ١٩١٩، وتلقى وسائل الاستعمار في بريطانيا ضوءا على وسائل روما والعكس صحيح، وهذا ما يفعله رينان في كل صفحة، فعقله اليقظ لا يكف عن قوائم من القرائن، يوفق بينها أو على النقيض، يباين بينها، وهذه المعالجة الإيجابية لها من شأنها أن تنير كل خصة، ويظهر هذا النهج ذاته جليا فيما اعتاده السنيور فريرو من تصور رؤية الحاضر في الماضي، ومداومته على إحياء العنصرية بمجموعته المختارة من الألفاظ، وهذا هو بلا شك نهج جميع المؤرخين المحدثين، وما من أحد يستطيع أن ينكر أن النتائج تفوق إلى أقصى حد طريقة مجرد السرد التي استخدمها الكتاب الأوائل.

* * *

٣ — وداخل هذه المادة، عادة عدم رؤية شيء دون تصور شيء آخر بجانبه أو خفيه شيء حيوي يجعل لها نفس الخصائص التي تقسم بها طرائق

كاتب الدراما ، فالانطباع والخيال متهيئان دائماً للعمل ، ويقضى كثير من المثقفين والمثقفات ساعات هنيئة في بعث الماضي ، فيعيدون بناء حادثة تاريخية عظيمة ، وينصتون لشخصية تاريخية كبيرة تتحدث ، ويختبرون فلسفة بنتائجها العمالية المحتملة ، أو يتخيلون المستقبل ، فطوال الوقت لا تكف الخيلة المبدعة عن العمل .

فأى شيء ذلك إن لم يكن هو « الفكر » ؟ ومع ذلك فهو في دائرة المستطاع لدى عدد لا يحصى من الناس ، إنما لا بد أن يظلوا بمنأى عن سفساف الأمور ، وأن يمشدوا عقولهم بالمعرفة بدلا من ذلك ، أجل وأن ينطلقوا أحراراً في هذا الخضم من القرائن ، وستكون الثمرة هي الفكر فعلا .

* * *

« ياللعار ! فعلى الرغم من وجود الكثير مما أحبه بهذه الفصول مثل : الوحدة ، سبينوزا ، الموسيقى ، الانتشاء والتسامي ، وسائل لعدم النسيان ، نوح من الطرق السهلة لجعل الحياة نافعة كما هي جميلة ، أجل على الرغم من ذلك فإنني أشعر بخيبة أمل ، هل أفضى لك بالحقيقة ؟ الواقع أنني ظننت أن هذا الباب الثالث سيقدم « وصفة » حقيقية للتفكير ، أعني طريقة عاجلة لجعل ذهني نشيطاً أخاذاً ، طريقة كالبرق تجعل كل شيء يتم في لحظة »

« أو أقراص عقار ، أجل إنه إن العار ألا توجد أقراص عقار للتفكير ، إذن لا شريت أنا أيضاً بعضها ، حسناً ، ألاستطيع أن تتناول قدحاً من الشاي التوي الأثر ، وتمدد على أريكة ، كما جاء في مستهل الفصل الأول ، وترى بما إذا كانت مشكلاتك ستحل نفسها ؟ أو ألاستطيع الإبحار إلى إيطاليا

ولا تنبس ببنت شفة حتى تصل إلى نابولي؟ إن الكتاب يذكر أنه لا يوجد شيء أيسر من هذا وأنه سيحقق الخدمة .

« أوه، أجل، ولكنه لن يحققها، فالتى تحققها هي الكتب الجيدة، ومطالعة الروائع فحسب، وعدم القراءة قط بل الدراسة دائماً، وبالاختصار، معالجة معركة برزخية عقلية منظمة، أعرف أننى لا أستطيع الإذعان لها كما لو كانت معركة حقيقية؛ ومع ذلك أعلم أننى لو عدت لمطالعة هذه الفصول ثانية لوقعت على عشرات من الأشياء التى يتضح لى كلما تغلغلت فى القراءة، أننى كنت مشوقاً للقيام بها، فأنا أهوى الفتاة الصغيرة الشغوفة بتاريخ يوليوس قيصر، وأمقت صفائر التفاصيل، وأظن أننى فعلت هذا دائماً، ذلك لأننى لو كنت حقاً تافه التفكير، لما رححت الآن أطلع هذه المادة التى تسبب العناء بإغرائها ومناعتها، فقط كنت أود لو أمكن تيسر الأشياء كما تبدو أحياناً.

« إنك تمقت صفائر التفاصيل، أو بعبارة أخرى، التعميم والوضوح، وإنك تهوى الوحدة وسبينوزا ورهبان القديس برونو الغيورين فى صوامعهم البيضاء، والكتب الجيدة التى لن يقرأها أحد سواك، والتاريخ الرومانى والفتيات الصغيرات النادرات، والموسيقى والفلسفة والحاسة الواعية؛ كل هذا يعنى أنك قارئ نموذجى لهذا النوع من الكتاب، مرشح غير عادى للتفكير الحقيقى؛ إن ما تستهدفه هو قواعد الصحة العقلية، زيادة عشرين أو ثلاثين سعراً عقلياً، وما أشبه، أنيس كذلك؟ » .

بالضبط، إنك تصف الأمر برمته كما لو كان يساورك نفس شعورى؛

أجل ، إن قواعد الصحة لأمر بغيض ، فاستحضر لى عشرة جراحين بدلا من عالم واحد فى التغذية ، وأنا كفيل بأن أكسب الصفقة بما فيها المخدر وكل ما عداه .

« لا ، إنك لا تبغض قواعد الصحة ، فإنى أراك ممتطيا صهوة فرس شهباء كل يوم ثلاثاء ؛ فالذى نخشاه هو حشد النصائح المفيدة ، حتى لكأنها جبل من الجليد ؛ والواقع أنه يبدو أن النصيحة هى كل ما يستهويك فى هذا الكتاب ، وأنت لتكنز كل نصيحة لدى مجيئها ولسكنك حين تحاول أن تتذكر المئات منها ، تهبط عليك جماعة كجمود صخر حطه السيل من عل ، حسناً لنفترض أنك ستتناول واحدة فقط على انفراد ، وتنسى الباقي إلى حين ، ولنفترض أنك ستبدأ بمطالعة صحيفة « التايمز » كصفحة تاريخ و »

« بخ بخ سأفعل ذلك ، وإنى لوائق بأنى مستطيع أن أفعل ذلك ، فلا تزودنى بأكثر من هذا ، ولا تخبرأى شخص آخر ، فإنى أريد أن أرى كيف ستؤثر فى » .

« تؤثر ! من المؤكد ألا شك فى أن الحكمة تؤثر ، وإذن فأتح الفرصة لصحيفة التايمز ، وحبذا لو أنك اقتصرت ، منذ الآن ، على مطالعة فصل واحد من هذا الكتاب فى المرة الواحدة ، فإن فكرة قرص العقار الذهبى تربض هناك . »

الباب الرابع

الفكر الخلاق

كلمة تمهيدية

هل يعطى « الفكر الخلاق » معنى العبقرية ؟ أجل ، ولكن تذكر أن أى خلق ، من أى وصف ، سواء أ كان صادراً من أقل الصناعات شأناً أم من أكمل الناس ذهناً ، إنما هو نتاج حالة عقلية ينبغى تسميتها بالعبقرية .

وهل يعطى هذا معنى الخلق الأدبى ؟ لا أكثر من أى خلق آخر ، وينبغى ألا يستنتج القارئ من فقرة أو اثنتين بهذا الباب الرابع أن الصفحات التالية مفرزة أصلاً للكتاب ، فما من خطأ يكون أشد وبالاً من هذا ، لتشويش هدف هذا الكتاب ، ذلك لأن هدفه الحقيقى هو أن يجعل الفكر ، حتى فى أرفع أشكاله وفى أى نطاق ، ميسراً لنا جميعاً .

الفصل العاشر الإبداع

هذه كلمة أخاذاة ، ففكرة إنتاج شىء من لاشىء ، أو استبدال الحركة بالسكون تبهج حتى الأطفال ، فلقد سبق تماثل فينوس دى ميلو عدد كبير من تماثيل فينوس نصف العارية ، ولكن لم يكن من بينها أى تماثل من الحجر له مثل هذا الأثر الروحى القوى ، فإننا لا نكاد نراه حتى ندرك فوراً أن ثمة باعناً علوياً كان موجهاً وعملاً ؛ والآف من الناس قد تطلعوا فى نزوع وتأمل إلى هزار يحنفى فى طبقات الجو ، واسكن شلى وحده هو الذى كتب مقطوعة موسيقية خالدة فى هذا الصدد ؛ كذلك فإن الموسيقى الجديدة باسمها تعنى إبداعاً هجيباً ، فقد كانت روحنا خاوية ، وهنا تمتلىء بصور ذهنية ومشاعر تتبعها أعظم الوسائل قدراً فى عدم ماديتها ، وحين نحاول التفكير فى الألوهية سرعان ما نلقى باللانهائية والخلود بعيداً ، لما يسببانه من عنت وإجهاد ، أما عملية الخلق فتتدبرها ونمعن التفكير فيها دون عناء .

وينبعث التوقير ، وكثيراً ما تكون الهيبة التى نمارسها إزاء العبقرية حين يضمنا مجلسها ، من التماثل بين موهبتها وسمة الطبيعة الإلهية ، فنحن مسوقون

دائماً للمبالغة في نقصنا ، وحين نتطلع إلى التماثيل النصفية الخاصة بعظماء الموسيقيين أو عظماء الفلاسفة ، نلاحظ الجباه القوية والعيون الفعّالة ، فننظر إلى مرآتنا . وعندئذ نزرع تحت ثقل شعور بأننا من سلالة أخرى ، وعندما نطالع حياة أو وسائل هؤلاء القوم الممتازين ، لا نغمرنا الدهشة إذ نراهم يذكرّون عن أنفسهم أشياء من شأنها أن تجعلنا أضحوكة حتى لو فكرنا فيها مقرونة بأنفسنا .

وإنه لمن الأمور المستحبة أن نطالع ما كتب عن العبقرية والعباقرة : فحيواتهم، المايئة بالجهود الرائعة رغم رفضها ، تؤثر على عقولنا كما تؤثر حيوات القديسين على مواهبنا الروحية ، فنحن نشعر بنوع من الفخر بهم ، وهذا الفخر يشهد بأصلنا المشترك ويضيف حيوية جديدة لرغباتنا التي هي أكثر نبلا ، وأيضاً فإن وجود المتفوقين من الناس مقوم معدوم النظير، بيد أنه من العبث أن نلتمس أى تفسير لموهبتهم ، فهم متفوقون لأنهم متفوقون ، هذا كل ما فى الأمر، وإذا سألتهم كيف أنهم كذلك كانت إجاباتهم مثارا للضحك، الأمر الذى يزيد شعورك بالصغار .

وإنه لمن الخطورة أيضاً وضع أولئك الرجال على حامل وتقديس شبح مثل فى هيئتهم، وقد بولغ فى تقدير رجال الأدب والشعراء وكاتبى الدراما ورجال الفن . من جميع الأنواع منذ أن حول أحدهم ، وهو ديديرو ، قدرة العقل القوى بأكلها إلى انشاء موهبتهم ، فلم يكن من الصالح لرجل مثل فسكتور هيغو ، أو لرجل فوق الكل مثل إسكندر ديماس ، أن ينصب نبياً لجيله ، وهكذا خلق من كل منهما شبح ، أقوى منهما ، دان له الجميع بالطاعة .

وكثيراً جداً ما ننسى أن العبقرية أيضاً تعتمد على القرائن والمعلومات التى

في متناول يدها ، حتى إن أرخميدس نفسه ما كان يستطيع أن يصمم مخترعات أديسون؛ كذلك كثيراً ما ننسى أن العبقرية ليست عبقرية في كل الأوقات، على الرغم من تفوقها في كل حين، فقد كانت هناك فترات طويلة بين إشراقات باستير الكبرى، وللشعراء دراية بالوحى ، ولكنهم يعرفون أيضاً فترات من النضوب والجفاف يعيشون خلالها على الرجاء والإيمان والذكرى ؛ ومن الناحية الأخرى فإن لنا ، نحن القوم الأدنى عنصراً ، فترات تتألق فيها ، ونشعر خلالها بأننا فوق ذروة الموج ، كما يساورنا أفضل تفكير ونؤدى أفضل عمل ، فإذا ما أدت بنا الحماقة لأن نتصور ، حين نتم بهذه الخطوة ، أن موهبتنا ليست من الطراز الأول ، فسرعان ما يبطل أثر الرقية ويزول سحرها .

وقد كان انحياز القرن الثامن عشر — الذى أشرت إليه — للتفوق العقلى المجرد ، ذا آثار مدمرة خاصة فى فرنسا ، فلم يوقر فولتير وديدرو العبقرية حين تكون مجسدة فى مؤسسى الأديان ، وما زال هناك لقيف من الناس الذين يؤثرون التألق على الصلاح ؛ فنقاد الأدب وأدعياء المعرفة يعاملون بازدراء المصلحين السياسيين أو الاجتماعيين ، وناشرى المعرفة ، وعظماء المنظمين فى أى مجال ، والرسل ورجال الإرساليات الدينية ، وأرباب الصناعة ، ومؤسسى الثروات الضخمة ، وكبار القادة وعظماء البحارين ، على الرغم من أن موهبتهم العقلية كثيراً ما تشبه فى ندرتها مواهب منافسيهم ، ومن أن تقاسيم وجوههم المعبرة القوية تشبه جباه هؤلاء المنافسين الشماء ؛ فبدائعهم أمامنا ، وسيدكر التاريخ الكثيرين منهم ؛ ولكن أهنالك هيئة واحدة فى العالم بأسره ، يعوزها الدليل الملموس على أن الرغبة الجادة الملحة لتحقيق نتيجة نبيلة لا مناص من أن تبلغ

مأربها مادامت لا تكف عن المثابرة طوال الحياة؟ فلماذا ينبغي اعتبار هذه الجهود أقل شأنًا من الجهود العقلية خاصة حين يكون الانتشاء الذاتي ، كما هو الحال دائماً — مرثياً بوضوح في هؤلاء؟ ومن ذا الذي يجرؤ أن يقول إنه ليس لفسلورنس نيتنجيل نفس الحق في أن تحظى باعتبارها مبتدعة مثل جورج أليوت؟.

وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقول إن كل حياة بارزة على أى وجه ، حتى وإن لم يظلم أثر متين ، إنما هي إبداع من طبيعة فنية أحياناً ، أو أدبية في أحيان أخرى ؛ وهناك أشخاص ذوو حصافة ولطف ، لن يتسنى للعالم أن يعرف أسماءهم قط ، بيد أن حياتهم تبدو من الروائع لأولئك الذين عرفوهم جيداً ؛ وقد ولد أولئك الناس ولهم مثل ما لنا من فرص ومواهب عقلية ، ولكنهم فطنوا لما يمكن عمله منها وحققوه ؛ وكان من المحتمل ألا تنشر قط يوميات جويير أو رسائل كوبر ، ولكن القوم الذين أحبوا جويير أو كوبر أكثر مما في كتاباتهما سيرادهم ، حتى يوم مماتهم ، السحر المنبعث من حياتهما في غفوتها ؛ ولقد صر على وفاة مدام دي ريكامبييه مائة عام ، ومع ذلك يقف أمام صورتها ، في غمرة من التأمل والخيال ، عدد من الناس أكبر مما يقف أمام صورة مدام دي ستايل ؛ وهي لم تكتب للجمهور قط ، كما أنها لم تخطب أو تتكهن بالأحداث قط ، ولكن الحياة التي عاشتها بتلك الغرف الثلاث في « أبي أوبوا » مازالت مثلاً أعلى لنساء عديدات سمعن عنها ، فهل نستطيع القول بأن هذه المهالة المتألقة الفاتنة ليست من غراسها ؟ ثم أليس للقديسين ما للعباقرة من جاذبية وفتنة ؟ .

وازن بين هؤلاء القوم الذين فعلوا أشياء ، أو كانوا هم الشيء ، بأولئك القوم الآخرين الذين لم يفعلوا أى شيء على الإطلاق ، وكان من المحتمل ألا يكونوا شيئاً لولا قدرة متواضعة على تدوين ما كان يفعله الآخرون ، أيهما هو المبتدع الحقيقي : ذلك الشخص الذى يبتدع الوحي أو من يتلقاه فحسب ؟ -

* * *

الفصل الحادي عشر

أصل الإبداع : الأفكار

أن أصل الإبداع سوء أ كان نظرياً أم فنياً أم عملياً هو ، بالتأكيد ، فكرة؛ وتنمو هذه الفكرة بالتدرج، عن طريق الاتصال بجاراتها أو باستخدامها. وتصبح مأرباً متحكماً لا يمكن مقاومته، وفي النهاية تسفر عن ضرب من الإبداع ، فهو ذا « تين Taine » يقع في غرام هرة، ويصبح مفتوناً بالقطط، فيكنز ويرعى ذكريات لا تحصى عن إغراء القطط ، وحين يبدو أكثر شهاً ، عن ذي قبل ، بدارس ضئيل طاعن في السن يروح ينتج المقطوعات الغنائية الشهيرة عن القطط ، وثمة رجل آخر لاحظ قطة ضالة في الشوارع : وقد رأى المخلوقة المسكينة الصغيرة تتطلع أحياناً في ضراعة إلى حد المارة الغافلين ، وأحياناً أخرى توهم نفسها أنه ليس ثمة ضير فتروح تعدو كما لو كان لها منزل حقاً وأنه منها قاب قوسين أو أدنى ، ويروح هذا المنظر يذكي ضرامه عبر السنين ، ومن المحتمل أن يترجمه رجل آخر في لغة غثة ركيكة ، أما هذا فيتحدث عنه في كلمات رقيقة تتغلغل إلى شغاف القلوب ، وبعدهن تأتي الثمرة منزلاً للحيوانات.

الضالة .

وما من شيء أوفر بساطة ، فالبساطة خاصية جميع الأفكار الخلاقة ،
ولاصراء أن أناتول فرانس وموريس باريه هما الفرنسيان اللذان كان لهما أعظم
نفوذ على مواطنيهما خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والجزء الأول
من القرن العشرين ، ولما اعتل في عقليهما قبل الفلسفات التي صدرت عنهما ،
رد فعل بدوره ، على ملايين من العقول الأخرى ، فأناتول فرانس إذ تطلع
إلى السماء بنجومها المتلاثلة تخاذل واستخذى إزاء تفاهة الإنسان بأطباعه
وأهوائه ! والأرض التي في ضالة الذرة بإمبراطورياتها الحقيرة ، أما باريه إذ
وقف عند قبر والده بساحة كنيسة شارم بينما كان الجرس يدق حداداً والوجوم
المهيب يطوى القرية أدرك الاستمرار القائم بين أسلافه ونفسه ، وكذلك أدرك
ما دعاه بحقوق التربة ومطالبها ، وقد ملأت هذه الرؤى حياة كل من الرجلين ،
وما زالت هي الروح التي تسرى في أربعين مجلداً ، والتي تحكمت في تفكير
الملايين من الناس .

والمشكلة في وضوح هي كيف يمكن إحراز مثل هذه الأفكار التي تملأ
الروح وتصوغ الحياة .

إن روحنا خضم ، وعلى الرغم من أن إمكانياتها وانطباعاتها ومرونتها غامضة
خفية وقلما يحدها نطاق معرفتنا فليس في الاستطاعة إنكارها ، وما نحتزنه خلال
حياتنا غامض خفي كذلك ولكنه بعيد المدى دون شك ، وقد حدث أن عجوزاً
من الأزاس بفرنسا راحت تتكلم بالعبرية في مرضها الأخير وكانت في الثمانين
من عمرها ، وقد مر خمسة وستون عاماً منذ كانت تقوم بالخدمة وهي صغيرة
في منزل حاخام القرية ، حيث كانت تسمعه وهو يطالع سفر التكوين ، وهي
بالمطبخ ، ولم تكن يهودية ، كما أنها لم تكن لهم على الإطلاق بهذه المطالعات ،

وعلى الرغم من ذلك فقد انطبعت سلسلة الأصوات الأجنبية بأسرها على واحدة من ملايين أسطوانات التسجيل في ذاكرتها؛ ومن منا لم تستبد به الدهشة أو الحيرة، باستعادته للحياة عبارة غلفتها أكفان النسيان، كان قد سمعها منذ أعوام، وكان مبعث هذا بعض مقاطع تحمل لها شبا ضعيفاً؟ فتقع الكلمات المنسية على آذاننا، غريبة ولكن دون أن ننكرها أو لا نتعرف عليها؛ وعلى غير ترقب تحيي فينا نعمة موسيقية، أو عبير زهرة، حالات عقلية انزعنا أنفسنا منها، في الطفولة أو في سن المراهقة، لأن امتلاءها الغامض جعلها صعبة الاحتمال. كما أن نفاذها جمعها صعبة الإرضاء، وهناك مناطق كاملة في أرواحنا لا تشترك في شيء مع جذب حياتنا اليومية، يكشفها الإلهام، وهو حالة التوتر الشديد التي يهيئها لنا الوجدان أو الفصاحة أو الموسيقى أو مجرد قدح من القهوة القوية، كذلك كثيراً في حياتنا، ولكن أكثر في فترات معينة منها في فترات أخرى، نحس أن رؤيتنا العقلية أشد حدة مما ظن الناس، بل مما ظننا نحن أنفسنا، وقد نسمع قوماً يتحدثون، وبينما تمر الكلمات بعضها ببعض، نسجل البواعث عند الناس كما لو كنا نطالعها؛ وقد نتوجه لسماع محاضرة، فنقدها أو ننقدها، خلال إلقائها، كما حدث نادراً من قبل، فنحن نعي كل ما يسطع داخل عقولنا، وفي غضون ذلك نعرف أن إشراقات، أقل جلاء قد تستجمع ضوءاً إذا راقبناها دون ادعاء بأننا نفعل هذا، وقد يأتي في أعقاب ذلك وهج نادر.

أما ما نراه عندئذ، وما ندونه أحياناً على قصاصات من الورق نحرص عليها -حرص البخيل على ماله، فهى البذور الحية التي ينبثق منها الإبداع، أو التي

تنو منها حياة أكثر امتلاء ؛ وقد تكون قصيرة العمر غير مستقرة ، أو
حجبها عن البصر مدافعة غيرها لها ، ولكنها لا تختلف في طبيعتها عما يصبح
في النهاية ، بالعقول الموهوبة الرفيعة ، عمل العبقرية ، أما المشكلة فهي في طريقة
إمكان مضاعفتها ، أو تقويتها ، أو فوق كل شيء ، طريقة إمكان الوصول .
إليها حين تتراجع إلى منطقة اللاوعي أو العقل الباطني .

* * *

الفصل الثاني عشر

كيف نستطيع التوصل لآرائنا الخاصة

إن الفلاسفة الجديرين بالاسم حقاً يراودهم جميعاً الطموح بأن يقدموا تفسيراً عن العالم ، ويدرك معظمهم مقدار ما في تلك المحاولات من تكهنات مجردة ، وعلى النقيض يؤكد معظمهم تزكيتهم لبعض العمليات العقلية التي نستطيع عن طريقها أن نتوصل للحق ، هذه الكلمة التي أخذت تبلى من السرف في استعمالها ، والتي تقف اللادورية الحديثة على حذر منها ، ولكن ما من أحد يعترض إذا فهمنا أنها تدل على الإشراق الذي يصحب احتكاك عقولنا بما نسميه الحقائق ، وحين نعى مثل هذا الإشراق يصل بحثنا العقلي إلى ختامه ، ويأخذ الهدوء مكانه من العقل .

ويبحث العقليون من أمثال أرسطو ، وفلاسفة النصف الثاني من القرون الوسطى ، وديكارت ومعظم العلماء المحدثين ، عن هذا الإشراق في المنطق السليم ، فهم يريدون بياناً كاملاً واضحاً من القرائن ، ويضعون قواعد مضبوطة للعمل بموجبها وتحقيق النتائج التي تسفر عنها ، فتبدو فكرتهم كجموعة علمية ،

أحسن وضعها بقاعة فسيحة ، ورتبت في تتابع منطقي حتى إن الزائر لا يحدوه الليل في أى وقت كي يقف في غير وثوق أمام النماذج المعروضة ليقوم بفحصها .

وهناك طريقة أخرى ، عكسية تماماً ، استهوت دائماً القوم ذوى النزعة الدينية أو الشعرية ، أعنى ذوى الاتصال المباشر بالحقائق الروحية ، فشاعر الأغاني لا يعود إلى دائرة المعارف حين يحس هبوط الوحي عليه ، ونحن ، جمهرة المترددين على الكنائس من عامة الناس ، نسر بعظة جيدة أو بكتاب ديني نافع يساعدنا في تأملاتنا التي لا تنهياً لنا إلا بعد لأى ، أما كبار المتصوفين فليسوا في حاجة لأى عون من هذا القبيل ، فعقولهم تسبح سراعاً ، إلى حيث لا يعلمون ، وتمكث هناك ، حيث تحتويها نشوة التأمل ، أما إن عقولهم ليست فريسة للافتنان ، بصرف النظر عن نبهه ، بل إنها ، على العكس ، تتبع قواعد منطق معين ، فهذا يتضح من واقع الأمر ، وهو أن التأمل ، كما يظهر من كتاباتهم ، يكشف أصلاً نفس الأشياء لهم جميعاً ؛ كذلك فإن فضيلة هذه العملية العقلية تظهر في كتاباتهم ؛ ومن المؤكد أن التسامى هو سمة الأدب التصوفي ، ولكن السهولة العجيبة أيضاً سمة أخرى ، وقد اعتادت مدام جايو القول بأنها تستطيع الكتابة بلا انقطاع عن الحقائق الروحية ، وهي لا تختلف في هذا عن يفوقونها أمنا من المرشدين ، ولا يمكن اكتشاف أى أثر لجهد في كتاب القديسة تريزا : (قلعة الروح) أو السفر الرابع من « المحاكاة » وتفيض مقطوعات عديدة من رسائل القديس بولس بالشعر الموسيقى أكثر من أى شيء عداها ؛ قارن التوتو المحموم الذي يكاد المرء أن يلمسه في « أفكار » بسكال التي هي نتاج موهبته العقلية المجردة ، بالحالة العقلية التي يسهل استنتاجها من الأسطر القليلة ، التي خطها في عجلة على رقيته المشهورة ، إذ كانت نتاج إشراق روحى ؛ ومن بلوتينس إلى

سوندنبرج راح جميع ذوى الإشراف الروحي يسهبون فى الكتابة عن فيوض
النور التى تنتجها عملية التأمل التى تضيف عليهم البهجة ؛ ولكن هل هناك فرد
واحد ، رجل أو امرأة ، لم يختبر شيئاً من هذا النوع ؟ .

وللمحدثين من ذوى الجلاء العقلى غير المقيد ، مثل نيومان وبرجسون ،
حصلة وثيقة بالتصوفين ؛ ولا يستطيع قوم لهم مثل هذه الثقافة ومثل هذه القراءة
المستفيضة إلا أن يعرفوا قيمة المعلومات الدقيقة ، ولكنهم يؤمنون باستخدامها
بطريقة منطقية رفيعة ؛ وكانت تراود باستير ، دون انقطاع ، نوبات من الجلاء
العقلى السائب ، التى كان يجد بعد ذلك عناء شديداً فى كبحها وإخضاعها
لقوانين العلم العادية ، ومثل هذه النوبات من الجلاء العقلى ليست إشرافات روحية ،
بل هى ثمرة مقارنات خاطفة كالوهج ، أو متناقضات من مجموعات من الصور
الذهنية المخزنة فى العقل ، والتى تزيد فى مرونتها على المعادلات العقلية التى
فى أغوارنا ، والتى يسميها نيومان « فسكرية » باعتبارها تقيضاً لغيرها وهى
« الواقعية » ، ولو طالعت كتاب « قواعد الاتفاق » أو كتاب « التطور
الخلاق » لتحقت من أن معالم فن التفكير الواضحة هنا قد زاد اعتمادها قطعاً على
الخبرة وقل اعتمادها على مجرد العرض ، فهذه أكثر من النصيحة التى أسداها
ديكارت ، أو ، فولك ، أو هيرت سبنسر ، ولكنها تستهدف بالضبط نفس
المأرب ، وإن عملية انطواء المرء فى شغف على مشاعره الباطنية لأفضل من
عملية ظاهرية ، ولكن الهدف المتشود فى كلا الحالين هو إحراز أفكار خصيبة
مثمرة ؛ وبالنهج ذاته يصعب مطالعة ما يقوله الشعراء عن إلهاماتهم ، أو ما يقوله
الفنانون عن فهم دون أن ندرك أن هؤلاء الناس ، الميالين دائماً اتوجيه

قدراتهم لأحسن المناحي ، يضعون في الواقع لأنفسهم مبادئ فن التفكير ؛
وتصف كتابات رجلين من المحدثين هما نتشه وباريه ، طريقة لإنتاج الفكر .

فهل في الاستطاعة تلخيص مايقوله جميع هؤلاء الانطوائيين في طرائق
مختلفة هائلة العدد؟ أجل ، طالع مايكتبون ، وأنصت لما يقولون ، وحلل
طرقهم ، واختبر موقفهم فإنك ستجد أنهم يعيشون ويفكرون ، وهم ملتصقون
قدر الاستطاعة بمبادئ أساسيين : -

١ - كن في إهابك .

٢ - التمس نفسك .

الفصل الثالث عشر

كن في إهابك

« كن أنت نفسك أو كن في إهابك إذا شئت أن تبتدع شيئاً مبتكراً... »
هذه حقيقة واضحة لا يختلف فيها اثنان ، فكيف تستطيع أن تفعل أى شيء
لن يكون حقاً فعلاً إذا لم تكن مدركاً لشخصيتك ، أو إذا كنت أى شخص
سواك ، بل إذا كنت كل شخص سواك ، أو إذا لم تكن بالضبط الرجل
الذى تعرف أنك تستطيع أن تكونه .

وهناك عقبتان رئيسيتان في طريق رجل يرغب في أن يكون في إهابه :
الادعاء والاستخفاء ، فقليل من الناس هم الذين لا يعرفونهم أو لم يعرفهم ، في
أية مرحلة من حياتهم ، إحدى هاتين العقبتين .

وليس الادعاء أو التصنع هو الثقة ، فالثقة حين تصبحها صفات أصيلة ،
لا تكون بعد ذلك مجرد ثقة ، إنما ندعوها تألقاً ، ولقد كسب بلزك نفسه في
حديث بطريقة خدشت ذوى الأذواق الموهبة إلى حد السرف ولكنها سرت علماء
النفس ، ونفس الخطأ شائع بين الفنانين الذين يعجزون عن كبح ابتهاجهم بما

تمخضه عقولهم من صور ذهنية ، ثم ابتهاجهم تدريجياً بأنفسهم ، وجميع الناس المهووبين بحبوية قوية أو بخيال حاد ، ومعظم الناس ذوى النزعة للاستقلال التي تكبتها الحياة بقسوة ، لا يخشون أن يشقوا لأنفسهم طريقاً إلى المقدمة ؛ وتسفر إضافة الأنجلوسكسونيين إلى إيمانهم بحقوق الفرد ، عن نتائج ماثلة ؛ وأولئك الذين يظنون أن الأنجلوسكسونيين ينزعون للصمت أو للتحفظ قد شاهدوهم في ظرف معين كبحوا فيه جراح أنفسهم ، أو أنهم لم يعيشوا معهم في غير كلفة .

كذلك فإن اذراء الطبيعة البشرية نفسه ليس على الدوام تصنعاً ؛ فهو في أعلى صورة ليس سوى سرف في الإخلاص يشوبه غرور أو تأكيد روسو أنه ما من أحد أفضل بكثير من نفس الإنسان ، ولقد وجدت دائماً متعة في تصريح باريسية متوقدة القريحة بأنها « لن تكون طبيعية ما لم تكن متصنعة » ؛ إن معظم الناس يموتون دون أن يقولوا أى شيء مماثل هذا في إيجازه الرائع ؛ وقد تكون ماري بشكرستيف ، وقد أصبح لدينا الآن بعض أقسام من يومياتها على حقيقتها دون ما تدخل من أندريه ثيربيه في إعادة صياغتها ، ملكة للفرزلات أو للمتحدثات ؛ ولكن المؤكد أنها مؤلفة لإحدى الوثائق البالغة حد السرف في صدقها وإنسانيتها ، التي نملكها ؛ وهل في الأدب الإنجائزي كتاب أشد مضايقة من أفلينا ؟ ، ومع ذلك فإن هدوء فرانس أربلاى النفسى عجيب في صفاته حتى إن الكتاب بعد قرن ونصف لم تقض عليه غلطاته .

والاستخذاء ، أو فقد المرء ثقته بنفسه ، هو ضرب من عدم الإخلاص بدرجة تجعل من المستحيل على الدعى ألا يشعر بتصنعه ، وهو يحمل معنى قيام

المرء بدور المتظاهر بغير حقيقته ؛ وكيف يتيسر تخلف أية حيوية للتفكير الشخصي ما دامت تستنفد في هذه الملهمة ؟، وكيف يتيسر لامرئ أن يأمل في أن يصبح مبتدعاً، حتى في أقل نطاق، مادام يصر على أن يكون ممثلاً؟... والقوم الذين يدعون أنهم يتتبعون ، دون عناء ، مناظرة متشعبة الأطراف والذين يدعون بأنهم خبراء في السياسة الخارجية ، لأنهم سافروا وكانوا في جنيف عند انعقاد آخر دورة لعصبة الأمم ، والذين يتظاهرون بمعرفة أناس لم يقابلوهم قط ويقولون « صديقي فلان » عن شخص بارز قابله مرة واحدة فقط ، والعديد من الناس الذين يظنون أنه مما يشينهم أن يقولوا : « لا ، لم أقرأ قط رسائل ولترينج ، ولكني أقرأ توافه كل مساء وأنا بالفراش » ، والقوم الذين يصفقون لخطيب أجنبي لم يتعلموا لغته قط ، هؤلاء الناس ممثلون ، بعضهم بارعون كأى ممثل على خشبة المسرح ، ولكنهم لم يتفوهوا قط بلفظ يعتبره أى شخص عداًم جديراً بالتذكر ، ولن ترد على خواطهم أية فكرة تمنحهم الرجاء بأن يكونوا أفضل من مجرد جهاز الحاكى .

وقد ينساق الكتاب المحترفون بال عشرات والمئات ، لأن يصبحوا غير مخلصين ، ومن ثم يفقدون جميع الفرص المتاحة للتحسن الأمين ؛ ويكاد الكثير منهم أن يضطروا ليكونوا كذلك ؛ لقد كانوا في مبدأ الأمر مخلصين في تعلقهم بالأدب ، ولكن لم يكن لديهم ما يقولون سوى القليل ، وحين قالوا هذا القليل لم يكونوا في مركز يسمح لهم بالوقوف ، فقد كانوا كتاباً ولا مناص لهم من الكتابة ، وهكذا فإنهم يكتبون ، في موضوعات شتى ، دون حافز حقيقى ؛ ولكنهم ، مع الأسف يملثون الصحف ، وأن طلاقهم الجوفاء ، مع تفاديهم لكل ما يمتثل أن يجرهم ، ومزاجهم المصطنع ، لا تستهوى للحظة واحدة ، حتى القارئ غير المحترف الذى تعوزه المعلومات ويدرك أنه

لا يحصل عليها ، ولكن على الرغم من ذلك فإن تلك الكتابة هي أغنية الطفولة التي تهدد العقل الحديث لينام ، ولتلاحظ أنه حتى أولئك الذين يسمون بالمتخصصين أو الحكماء يستطيعون تصفير أنفسهم بمثل هذه الحيل ولقد طالعت مؤلفات خبراء في الطب وعلم الآثار الذين كانوا خبيرين قبل كل شيء بقول نعم ولا في العبارة الواحدة .

والأساليب الأدبية مدمرة لشخصية الكاتب ، فلشد ما اعتاد رجال الأدب الرومانسي الفرنسيون أن يجهدوا أنفسهم للصعود إلى مرتفعات فكتور هيجو ! وما أكثر القرائح الفرنسية التي لا بد أن تكون قد هلكت في ظلام الأدب الواقعي ! وما أكثر عدد الكتاب ، بين عام ١٨٩٠ ، وعام ١٩١٠ الذين راحوا يحاكون إيقاع أناتول فرانس الرضى دون أن يستطيعوا اللحاق بمدى تصويره ، أو حصافته أو حتى صفة تبذله ! ومن ذا الذي يستطيع أن يذكر قدر قوة الملاحظة الأصيلة للحياة أو للقلب البشرى يمكن أن يدمرها مجرد انتحال إيقاع ما؟، وكل من راح يجرب يده في محاكاة فنية يعرف قطعاً مدى الغرابة التي تساعد بها هذه التسلية ما يحتاج إليه من إلهام خاص ، وما تذكية في المرء من تيسير للإنجاز ، ولكن أليس هذا هو ما يحدث بمحاكاة هزلية بحجة الرسم؟ ومحاكاة الصفات الظاهرية معوق للإبداع الحقيقي وهو — على حد قول هربرت — يصبح في النهاية وبالاً على الخلق ، وعدم الإخلاص بالفعل أو القول أو الكتابة ، من شأنه أن يدمر الشخصية ويؤدي إلى نتائج سلبية ، وبقدر ما تزيد محاولتنا لنبدوا على غير حقيقتنا ، تقل فرصتنا لنصبح قادرين على استكمال ما نستطيعه من نمو حقيقي .

وانعدام ثقة المرء في نفسه هو الخطأ الثاني الذي يمنعنا من أن نكون في إهابنا ، وله الحق في قدر من الاهتمام والتعاطف أضخم بكثير من قرينه المائل .

ويلزم التمييز بعناية بين انعدام ثقة المرء بنفسه وبين الخمول الذي كثيراً ما يتنكر هو الآخر في زى التواضع ؛ ولا يستطيع الكثيرون أن يكونوا قط هم أنفسهم لأنهم يعجزون عن أن يصمدوا طويلاً حتى يشعروا بشخصيتهم الخاصة ، فهم الرجل الذي ينصتون إليه أو الكتاب الذي يطالعونه : إنهم ليسوا في إهابهم ؛ وفي الطفولة ، يستطيع الطب أو التمرينات الرياضية علاج هذا الضعف ذلك لأن الجهد من أى نوع يكفى لأن يخلق بداية الشخصية ، كذلك تستطيع المنافسة الطموحة المهذبة أو الاهتمام الذاتى السليم مساعدة التعليم في مهمته لتنمية الإمكانيات الفردية ، ويظل الرجاء قائماً ، في مرحلة متأخرة من الحياة ، إذا كان في الاستطاعة ابتغاء الرغبة في مقومات الفردية أو في رؤيا النعيم الذي تشمله أعياد العقل ، ولكنهم قلما يستطيعون ، بل إن الكوارث ذاتها تترك الخمول دون أدنى تأثير عليه .

وقد يكون التخاذل أو فقد المرء ثقته بنفسه ضرباً من الغرور : من الأفضل أن ينكش المرء داخل ذاته عن أن يظهر كما هو ، أو بتعبير آخر ، أدنى مما يود المرء أن يكونه ؛ وكثيراً أيضاً ما يكون هو الوعي بأن المرء سيء التأهب ، بالميل الفطرى أو بالمواهب الطبيعية أو بالتعليم ، أو بالظروف الراهنة ، لفعل ما يقوم بفعله ؛ أو هو تقريع ضميرنا الغامض حين لا يكون استعدادنا العاجل ما كان محتملاً أن يكون ؛ والدعى المحتمل لا يهتم ، أما الرجل الشريف ،

وخاصة الرجل الذي يعيش على أمل ، قل أو كثر ، أن ينتج جمالا يوما ما ، فإنه يخشى ضياع فرصة أخرى متاحة ، بعد ضياع الكثير غيرها .

وبدهى أن تجد الأوهام من كل صنف فريسة سهلة في الطبائع الحساسة ؛ ويشتهر الفنانون بأنهم ، على حد تسمية غير الفنانين لهم ، غير متزنين ، وقد يكونون راضين تماما بما قاموا به في الماضي : فكثيرا ما تفرهم بالتمعة قصيدة أو فصل من قصة كتبها أحدهم منذ عدة سنين وابتدأ يطويها النسيان بدرجة يجعلها لا تبدو مثل عمل أى شخص آخر ؛ ولكن هذه القصيدة وهذا الفصل كانا مبعثا للضيق لا الرضا في أثناء كتابتهما ؛ ويحمل الفنان في ذهنه دائما فكرة كمال مستحيل ، فحينما يعمل أو قبيل بدئه بالعمل يكون ذهنه مليئا بالصور الذهنية المراوغة ، ولكنها موفورة الفتنة ، مما يؤمل أن يثبتها بالكلمات ، وحالما يحاول أن يفعل هذا ، بل يحاول أن يرى هذه الصور الذهنية عن كذب ، فإنها تختفي مخلقة فقط شذرات من التعبير الذي راح يلفها فيه ؛ وهذه المخلقات كافية لإثراء الروائع ، ولكنها إذا قورنت بالمظاهر الغامضة التي سبقتها فإنها تكون كالزبد الذي يذهب جفاء ، طالع يوميات كاترين هنسفيلد وعندئذ تدرك ما الذي عانته كاتبة تبدو كل لمسة لها حاسمة ، مع شعورها بأن كل ما كانت تفعله ، وهو بعيد عن أن يكون نهائيا ، كان تجريبيا وناقصا ، والفكرتان : « يمكن التعبير عن هذا بصورة أفضل » ... أو « هناك من هو واثق أنه يعبر عن هذا بطريقة أفضل » هما وهان يشلان الفكر ، والاستخذاء لفظ ملطف يصف أثرها .

وكم من مرة سيفكر الفنان في ندله ، قد يحبه أو لا يحبه ، ولكنه

معجب به ، ويتصور أن هذا الشخص سيؤدي نفس العمل بسهولة محيية وبأسلوب أفضل كثيرا ، وكثيرا ما يراوده الشك في موضوعه ، ويعتبره أدنى مرتبة من بضع موضوعات قد يكشفها له عاجلا قدر ضئيل من التفكير ، وقد تستبد به أيضا نوبات أخلاقية فينتخيل الآثار العملية لما يقوم بإنتاجه على العقول التي يبائع في ضعفها أو حساسيتها ، وتكاد شارلوت برونتي أن تقول إن ضميرها ما كان ليسمح لها أن تكتب ، مرتفعات وذرنج ، حتى ولو كان إلهام شقيقتها قد تهيأ لها ، وجميع هذه الأفكار ، الأجنبية عن الفكرة التي ينبغي أن تحتكر الانتباه ، ما هي إلا أوهام تحجب القوة العقلية وتضعف قوة الإرادة اللازمة للإنجاز الفني ، وإذا افترضنا تجمع ما يكفي منها ، أو إلحاح واحدة منها مدة طويلة كافية لخلق عادة ، كف المرء عن أن يكون هو نفسه بعد ذلك ، أو لم ينقطع عن أن يكون هو نفسه ولكن في صورة مصفرة .

فماذا يستطيع عمله ؟ ، إن دومنيك يتخاذل في قصة فرومنتين الأدبية الرائعة متوهما أنه من الأفضل أن يكون في إهابه كسيد ريني على أن يحس كما لو كان قزما بين الشعراء ، وهذا حل قانط للقضية ، فبلازاك كان حريا ، بعد فشله السابع أو الثامن ، أن يلجأ إليه هو الآخر ، ويكتفى بكونه من رجال الطباعة فحسب ، كما كان قطعا في ذلك الحين ، ولكن الوحي هبط عليه بعد عام أو عامين ، ولم يزايله بعد ذلك أبدا ، ولعل الجهد الذي بذله كأحد رجال العمل حفظ قوة إرادته كفنانه في عنقوانها ، ويستفيد كل شخص بزاولته مهمة ما ، خيرية أو ذات طابع آخر ، تفرض تبعة ذات سمات محددة ، وبوجوده في صراع من أجل فكرة حقيقية ، وبتحدثه عنها علانية ، والفنان ، الذي

ليس له حرفة أخرى ، ويشعر بأشباح جاثمة على صدره ، هو شهيد ، وينبغي أن يصنع شيئاً للفرار من العذاب والإذلال .

وسنجد ، مهما كانت الطريقة التي نلجأ إليها ، أن أى مثل أعلى أو فكرة قوية فينا ، تشفى التخاذل ولا تخلق شدة مراس فحسب بل جاذبية أيضا ، وحالما نشعر بأية من هاتين القوتين تملأ عقولنا وحياتنا ، سنشعر أيضا بعدم القدرة على مقاومتها ؛ وهكذا فمسألة كيف يكون المرء في إهابه هي في الختام مسألة خلقية ، بمعنى كيف يستخدم المرء مواهبه العقلية على أكمل وجه ؟ .

الفصل الرابع عشر

التمس نفسك

إن معنى أن يكون المرء في إهابه ، في آخر المطاف ، هو كما قلنا ، تصلب في الانتباه أو الإرادة ، أما معنى أن يلمس المرء نفسه فنقيض ذلك ؛ فنحن حين نسرف في الانتباه للأمر الخارجية لا نكون عاشرين مع أنفسنا ؛ وقد نحس أننا في أقصى حالات الوعي بشخصيتنا حين نكون في ذروة النشاط ، وحين ننكب بكل عصب فينا على متابعة موضوع ما ، ولكننا لا نعلم أبداً أن نقول إننا نلمس أنفسنا حين نكون في خضم هذه الحالة التي تعج بالعمل ، بل على النقيض فنحن حريون بأن نشد ختامها ، ونحن لفترة من التأمل الهادئ لئتملك روحنا في سلام ، واللغات مليئة بالاستعارات التي تصف تلك الحالات الوجدانية المضادة .

وإننا « لنجد أنفسنا » في أي جو عقلي يستعيد لنا كرتنا ذلك الجو المتعلق بمجري ذكريات في عزلة ، وبجلم بقطة في الشفق الحالم أو في منظر خريفي هادئ ، وبأزمة معنوية تعيد لنا حيويتنا دون أن تسحقنا ، وإننا لنعرف أوقات من الجيشان الوجداني قلما نعرف طريقة انبثاقها ، ولكننا نشعر إبانها بانعزالنا

عن بقية العالم ، ولكن بتعاطف وتفاهم مع كل شيء ؛ ومن ضمن البواعث لذلك : كتاب عظيم ، حضور عبقرى أوقديس ، موسيقى ، ولكن توجد بواعث أخرى ، أحياناً تكون غير محتملة كتلك التى تبتعثها ظاهرة التنويم المغناطيسى التى تتغلغل بنا إلى حيث توجد أغوارنا الحقيقية ، ولا شك فى أن عازف الكمان ، حين احتضانه لآلته فى شغف أخاذ ، يجهبها لما تضيفه عليه ، ولكن التآلق الناعم الذى يكسو وجهه يعنى بداية نشوة مبعثها استمتاع الروح بنفسها ، وكل الطبائع التى تمارس النشاط الفكرى ، وكل الطبائع المثمرة تنزع لثل هذه الحالات .

وقد اعتادت أسرتى ، وأنا غلام صغير جداً ، التنزه فى واد جميل تحت خيمة من أشجار البلوط تظلل الأسوار الرمادية والسقف الإردوازى الحائل اللون لطاحونة قديمة ؛ وكانت الجماعة تقوم ، قبل الرحيل ، بزيارة الطحان لمدة ربع ساعة ، فتمتلى الردهة بحيوية غير مألوفة ، وكنت عادة أفلح فى التسلل ، دون أن يرانى أحد ، من خلال بهو يفتح على درج حجرى ؛ وكان هذا الدرج غارقاً فى ضوء خافت كأنه العسق حتى جعله يبدو موحشاً كقبو تحت الأرض ، وكان يهبط بالمرء دأرياً ، لا أقل من ثلاثين درجة ، وكلما اقترب من القاع اشتد الضوء سطوعاً ولكن بلون أخضر عجيب ، ثم يصل إلى السامع صوت اندفاع الماء السريع فوق الحصباء ، وأخيراً يتجلى المنظر الذى طالما ساقنى الحنين إليه ، وهو غور عميق فى أحشاء طبقات من الصخور الإردوازية المصقولة ، وقد تدلت من كل شق رطيب طحالب وأعشاب مزهرة من شتى الأنواع ، ومن فوقها جميعاً تتألق لدائن الصخور كأنها قلائد العقيق ، وعلى يمينى بدت العجلة الضخمة هائلة متوثبة كأنها الوحش الكاسر ، فكنت أنأى ببصرى عنها ،

لعلمى بأنى سأفزع إن هى بدأت تدور فجأة مطلقة ضوضاءها الصاخبة ، لدى تحريك آلة الحديد والحجر التى فوق ؛ ولكن عن كشب كان النهير ، فسيحاً خملاً ، عجيباً فى صفائه وبرودته ، يعكس كل لون أخضر من الأسوار المحيطة والقليل من اللون الأزرق من فوق ، وكنت أمكث هناك زمناً أظنه طويلاً ، وأنا أحياناً متوتر الأعصاب ولكنى عاجز عن الرحيل ، وبدالى أن كل مارأيته وما سمعته وما أحسسته وما جال بخاطرى فى هذا المكان المسحور ، ملكالى بحق الاكتشاف ، أكثر من أى شىء آخر .

ولم يعد فى استطاعتى قط أن أطالع أى شىء عن تيار الأحاسيس دون أن أستعيد لذا كرتى نهير الطحان ؛ وإنما لنستطيع فقط أن نصل إلى أقرب وأدق ما هو شخصى فينا ؛ أعنى عقلنا الباطن ، بترك عجيج العالم حيث هو ، والبحث فى أعماق السكون عما يميزنا عن بقية الرجال والنساء ،

وفما يلى نسوق ما يبدو أعظم القواعد العملية للنجاح فى هذا البحث : —

١ — تلمس مزاجك الخاص ، ومعنى مزاجنا هو الطبقة الباطنية من أحاسيسنا البالغة الخسوبة والتي ستقدم أكثر الثمر ، وبعبارة أخرى أنه يعنى الأشياء فى أية صورة يحتمل أن تكون ، التى تدور حولها أفضل أفكارنا فما هى تلك الأشياء ؟ من المؤسف أنه لا مناص من القول : إن علم النفس الردىء ، الذى كثيراً ما يؤثر على التربية والتعليم ، يجيب قائلاً : « إنها الأشياء التى تصرف فيها أعظم قدر من الدراسة » ، بينما ينبغى أن يكون الجواب ، على النقيض من ذلك ، هو : « إنها المادة للتفكير التى ينبغى أن تتناولها بأكبر قدر من اليسر وأكبر قدر من الاستمتاع » ويستحيل إمعان الفكر فى مبادئ

للتفكير دون أن يعترف المرء لنفسه بأن ما يحاول فعله هو تخطيط طريقة تقربنا جميعاً من العبقرية، والآن فإن العبقرية مبدئياً هي القوة الناتجة في يسر ونعومة، فالعبقرية لا نشق طريقها متثاقلة متجهمة أبداً، وحين يعرفها «بفون» Buffon بأنها «جلد طويل المدى» فإنه لا يعنى جلد الجهامة والعناد، بل مشاركة الاستمتاع، ومن ذا يصدق أن نيوتن، خلال السبعة عشر عاماً من بحثه عن قانونه، لم ينل اللذة الفاصلة مما تسميه خطأ «عمله» إنما مما ينبغي تسميته، استغراق ذهنه الساحر؟ وليس يغرب عن بالنا أبداً أن العبقرية تستطيع أن تكرر لعملها مدى أطول مما تستطيعه الموهبة العادية التي تحتاج لفترات من الاسترخاء، وعلّة ذلك أن استرخاء العبقرية قائم في شعورها بتأديتها لما تحب أن تفعله، وتبغض أن تتخلى عنه، ولعل «بوب» الذي كتب مرة يقول:

«من الأديرة الهائلة الفارقة في أحضان الكروم»

كان يعلق متهمًا على شلى، ولكنه ما كان يستطيع قط أن يكتب قصيدة مرتفعات يوجانا، ولنتخيل ديكنز يكتب قصصاً عن المجتمع، فقد تصحب العبقرية مواهب أخرى، وقد يخذعنا تألقها بإنجازاته العديدة الأشكال، ولكننا لا نخطأ قط بالتقلب غير المستقر.

أية كتب تطالعها ببالغ اللذة؟ فعلى أرففنا بعض مجلدات تكوّن أسرتنا، وبعض آخر مجرد زائر، فأى الفريقين هو الأول؟ أيهما نجد أنفسنا متلبسين عقلياً بالاعتباس منه لأنفسنا؟ وأية موضوعات تهيب لنا المتعة حقاً؟ وعن أيها نتحدث بأوفر سهولة، وبأكبر متعة، لأنفسنا وللآخرين؟ وأن التعليم، والفكرة المشثومة بأنه لا مناص من أن يصحب الجهد كل شيء عظيم-

انحراف غريب في كثير من العقليات الرفيعة - مسئولان عن الأوهام المضحكة، وكان أنجريس يفضل أن يمتدحه الناس على موهبته كمازف كان أكثر من عبقريته كمصور؛ وكان فاجيير النحات يطلع زأريه على لوحاته ولا يطلعهم على تماثيله، وفي يوم ما اصطحب فلجيير صديقه «هنر» وراح يريه لوحاته وهو ينتقل به داخل مرسمه، وأمام كل لوحة يصيح قائلاً: «مذهل! رائع! الأمر الذي كان يضفي البهجة على فلجيير، وعند مرورهما على تمثال صغير - تمخاطه فلجيير دون أن يلتقي نظرة واحدة عليه - وقف زميله فجأة وقال بلهجتة الإلزامية: «آه! ولكن هذا عظيم!»

إن مزاجنا هو أقرب الأشياء إلينا وفي متناول يدينا، ولكن إقناعنا به يستلزم حظاً أو خبرة، فالبحارة الإسبانيون الذين خرجوا إلى المحيط من مصب نهر الأمازون لم يستطيعوا أن يصدقوا الوطنيين وهم يخاطبونهم بالإشارات بأن الماء حول السفينة صالح للشرب وما عليهم فقط إلا أن يملثوا منه دلاءهم، عبارة «عصية على البحث» هي عبارة تنطبق، في معناها الشامل، على معظم ما نقوم بعمله، ومع ذلك فكلنا ندرك أن أكثر ما نجبه في كتاب هو المؤلفات التي تعكس في أصالة تامة موهبته الخاصة ومزاجه الخاص؛ ومن الذي يطالع أشعار بوسويه الثقيلة الظل؟ إننا نهوى الأشياء التي توفر لنا الأثر بأنها تنسكب انسكاباً، ومرة ثانية أي كاتب لا يدرك أن أروع صفحاته هي تلك التي سببت له أقل قدر من المشقة؟

٢ - تكلم أو اكتب وفق مزاجك، فالناس في غمرة الحب أو سورة الغضب، أو حين يستبد بهم اقتناع قوى أو رغبة عارمة، يكونون دائماً فصحاء

وقليل منا من لم تتح له الفرصة لسماع خطب أشد إثارة مما اعتدنا سماعه من أعظم الخطباء ، يفيض بها أشخاص لا يهتمون قيد أنملة بالفصاحة، ولكنهم في حاله مرهفة من التوتر العصبي الشديد . ومن المعروف تماماً أن الكتاب ذوى الدعامة المعنوية العميقة يمتلكون مزاجاً أوفر خصوبة من مزاج غيرهم من رجال الفن فحسب ؛ فلماذا يؤثر الناس في الوقت الراهن « ليون بلوى » اللفظ الغليظ عن أناتول فرانس؟ وما الذى يجعل ليون دوديه ، على الرغم من ضروب تحامله، وعدم إنصافه وغروره ، فتى هذا الجيل ؟ وكل شخص يسير على مثل هذا المنوال يوفر مثل هذه النتائج ، والناس على حق في عبثهم بمبالغات الخاصة من الكتاب الواقعيين ، وقد راح مستر جيمس أوريلي ، في كتاباته بصحيفة « السياسى الإيرلندى » عن مستر جيمس جويس ، يصف طريقتهم دون تعاطف أو تقرىظ فقال :

«اجلس فى بقعة مستحبة حيث يستطيع العقل التركيز على نفسه— أو على لاشيء إطلاقاً — وضع نفسك فى أغوار حالة من السلبية أو الاستقبال قدر الاستطاعة ؛ وحين تفكيرك فى لاشيء محدد اكتب عاجلاً أى شيء يرد على خاطرك— عاجلاً حتى لا تستبقى فى عقلك شيئاً وحتى لا تعيد الكتابة— وحين تشعر أن الرشاد قد أخذ يسد يدك فى الكتابة ابدأ ثانية ، فاكتب مثلاً سلسلة مكررة من حرف معين حتى تبدأ كلمة بهذا الحرف على غير وعى ، وتواصل سلسلة أفكارك المسير ؛ وهاك هى الطريقة .

ولا مشاحة أن هذه هى طريقة الكثير من رجال الدعاية العملية الذين يسمون أنفسهم خاصة الكتاب الواقعيين ، ولكنها ليست طريقة بعض الشبان

الموهوبين حقا من بينهم ، كما أنها ليست طريقة اثنين من أعظم أسلافهم شهرة ؛ وعليك بمطالعة كتاب « جان دارك » لمؤلفه « بجوى Peguy » وهو من روائع الكتب التي وضعها المؤلف في سن الثانية والعشرين ، وعليك أيضا بمطالعة معظم مؤلفات كلوديل ، وعندئذ تدرك معنى كتابة المرء وفق مزاجه ؛ وكل المدارس الأدبية الناهضة هي غراس خبرة عقلية تظهر لفئة قليلة من الكتاب الأصليين أن الحرية والفترة من مستلزمات الإلهام ؛ وجميعهم بعيدون اكتشاف نفس المبادئ ؛ ولقد سبق أن قلت أن القرون الوسطى مدينة بإبداعها المنقطع النظير ، في جميع مناطق الفن ، لتحررها من الأوهام ؛ وهكذا فعل كتاب الأدب الرومانسي الفرنسيون حتى عرقلهم وهم الإعجاب ؛ ويود خاصة الكتاب الواقعيين أن يكتبوا من أغوار عقولهم الباطن ، أو بعبارة أخرى ، يودون أن يكتبوا في إنسانية وخصوبة وانطلاق قدر المستطاع ؛ فكل امرئ يود أن ينتج وفق مزاجه ؛ وحين أسمع عن راسين ، وهو كمال عصره السكامل ، أنه اعتاد أن يكتب مسرحياته بالثر قبل تغيير صياغتها إلى الشعر الدرامي الرائع الذي يصعب على الأجانب تسميته شعرا ؛ أشعر دائما بالميل لأن أظن أن تلك المسودات الأولى كانت انبعاثات من ذروة الأدب الواقعي مختلفة عن « فيدر » أو « أثالي » كما اختلفت طبعة فلوير الأولى من كتابه « إغراء القديس أنطونيوس » عن الطبعة التي أصدرها في النهاية وأفسدها دون شك ، ألم تلاحظ قط ميل معظم الفنانين لأن يصفوا أول رؤية تطوف بخواطرهم لعملهم في لغة مألوفة أو أسوأ من ذلك؟ ، جهد في ذروة الأدب الواقعي لاستبعاد الإنشاء الأدبي بقيوده وأوهامه أطول وقت ممكن .

وبعض الإيقاعات الشعرية — آخذين الكلمة في أوسع معانيها — تجعل الكاتب أقرب إلى عقله الباطن من أية إيقاعات أخرى ، ويؤدي إيقاع شعر

هو ميروس هذه المهمة بتوفيق أكثر من غيره ، وستشعر به في كتب مستر بيلوك حتى وإن لم يفض لك المؤلف بذلك ، كما صرح لي مرة ، أن هو ميروس هو القصصى الوحيد الذى يطالعه ، وستشعر به أيضاً في أفضل كتب باريه « التل الملهم » الذى أخذت عنه أيضاً شهادة المؤلف ؛ وعادة الاشتغال على مثل هذا الإيقاع الشعري تنتج ما يكاد أن يكون إحساساً بدنيا غامراً يبين لنا أننا نتصرف وفق ما يضطرم في أعماقنا من مشاعر .

٣ — اعرف قيمة الحدس ، والحدس هو العمل العقلي الذى ننتجه بأعظم قدر من الفطرة وبأقل قدر من سبيكة العناصر الخارجية المحسوسة ؛ وعلى حين بغتة يشرق علينا تألق ذهنى لعلنا نكون قد حننا إليه أو لعلنا لا نكون ؛ وفي لحظة واحدة نرى ، كما يفيد اللفظ ، ما لم نره من قبل ، ونشعر بالطمأنينة التى تصاحب الاقتناع .

وهناك أمثلة على الحدس نستطيع أن نسوقها بالئات ، منها ما يلي : حل مشكلة استعصت علينا مدة لعلها طالت ؛ التغيير الذى يطراً ، كأنه السحر ، على موقف بأكله كنا ننظر إليه بتشاؤم فاختلقت نظرنا الآن تماماً ؛ الاهتداء على غير ترقب لتفسير طبيعة شخص اعتدنا أن نقف أمامها حائرين ؛ التكشف الذهني للشئ غير الموصوف الذى نسميه معالم مدنية ؛ فكرة لأجل عملنا ؛ منظر مسرحى كامل نتخيله كما لو كان يمثل أمامنا ، إقناع قوى ، كالذى ملأ باستير وسبق أن ملأ ثلاثة أو أربعة رجال من قبله ، طريقة تبدو للآخرين غير معقولة ، هى على الرغم من ذلك معقولة كما تبدو لنا .

وخلال هذه التكتشفات الذهنية القصيرة المدى ولكنها تخطف البصر لا نشعر بتوتر عصبى ، بل على النقيض بإحساس من الامتلاء والحرية ، وإذا

كانت لديك موهبة تقليد الآخرين ، فإنك تعرف أنك في اللحظة التي تتخيل نفسك الشخص الآخر ، لا تحتاج إلى أى جهد للتفكير والكلام والإشارة كما يفعل ، وقد يعنى هذا بالنسبة لمثل متخلف ، دراسة مطولة لكل تقليد فردى ، أما بالنسبة للمثل الحائز على هذه الموهبة فإن الشيء بأكمله يتم فى بدهة ودون عناء .

وليست ضروب الحدس خصيبة دائماً كتلك التي سقناها ، فقد تكون لمحات خاطفة فحسب تختفى قبل أن نجد الوقت للإمساك بها ، وفاتنة مثلما هي مغرية صعبة المنال ، ولكنها دائماً فاتنة ، وهي لا تشترك فى شيء مع المخاوف المنغصة أو الشكوك المكدرة التي كثيراً ما تبرز عبر منطقة وعينا بما يشبه نفس هذه الحالة ، والتي تبتعثها بعض الكتب وأحياناً أى كتاب ، وعندئذ نمارس ازدواجاً عجيباً ، فنستمر مع الكتاب لأننا نهوى الإشارات التي تصحب مطالعتنا ، ولكننا نكون على حذر منها ، لأننا ندرك أننا لو أوليناها كل اهتمامنا قطعنا أيضاً حبل الرؤية السحرية التي سببتها ولكنها لم تبتعثها ، وبذلك نستعيض بالحصباء عن الجواهر التي نداعبها فى رفق .

وكثيراً ماتأتى صغريات الحدس زرافات ، أو فى تتابع عاجل ، ولكن فى أكثر الأحيان دون اتصال ظاهر ، وحين نحلم ونحن متيقظون ، أو تحت تأثير الموسيقى ، بتزايد عددها إلى حد يتعذر معه الإحصاء ، عندئذ نبدها هباء ، على الرغم من أننا نعرف قيمتها لأنها أحياناً تتطور إلى مسلسلات مطولة من الفكر ، ندرك أن ذهننا يقوم خلالها بعمله على أكمل وجه ، ولكنه يؤديه دون إرهاق لتعاوننا ، وهذا مانود إعادة ابتعائه بعد اعتراض أثر الرقية ، وهذا ما نسميه بالتفكير ، وذكر فن للتفكير يعنى أصلاً بالنسبة لنا إمكان

إعادة ابتعاث حالة عقلية مماثلة كلما أردنا ، وأن ماندهوه بالفهم أو الإدراك هو الملاحق الرفيع لنوع من نمو القوى العقلية ، أما التعلم أو الاستنباط ، على حد ما يعلمنا الجبر أو المنطق ، أن نفعل ، فإننا نعتبرها من العماليات التي هي أدنى مرتبة التي تسفر عن معارف مكتسبة غير بهيجة .

٤ — عامل ضروب الحدث برفق . تقتبس الكتب الروحية ، بين الفينة والفينة ، قولاً لا تينياً مأثوراً معناه : « اخش عبور يسوع لأنه لا يعود » وهذا يصل في معناه للقول : « لا تدع ضروب الحدس الديني تفلت منك ، لأنها لا تقبل مرتين » .

وإنه لمن المبالغة القول : إن ضروب الحدس لا تأتي مرتين أبداً ، ولكنها لا تأتي مرتين بنفس الجاذبية ؛ وحالما نحس مجيئها ، يتم هذا كما لو كنا قد رأينا تحريك الماء في بركة بيت حسدا^(١) وينبغي أن نعلم أن فرصتنا عن كسب ؛ ولا بد أن يسود الصمت في الخارج والداخل ، وينبغي أن نكون منتبهين ولكن دون تاهف ، وفوق كل شيء ، دون رغبة في الاستطلاع ؛ فالزائر الجميل كفراشة ، حالما نصطادها تفقد رونقها ، ومن ثمة يلزم عدم اصطيادها ؛ وإذا تلمست يدك بطاقة ورحت تخط عايتها في عجلة بضع كلمات خشية أن تقتلع الفكرة الأولى ففكرة أخرى ، فإنك ستحفظ لنفسك الجميل حتى ولو اضطرت ، مراراً كثيرة ، أن تندم على الاقتضاب الذي أقم عليك ؛ أما إذا أسرفت في التعقل ، وإذا كنت في لحظة ابتهاجك بالطيف الزائر ، فقد حاولت ألا تغيب عن بصرك

(١) يشير الكاتب إلى ما ورد بإنجيل يوحنا الإصحاح الخامس من أن ملاكا كان ينزل أحياناً في هذه البركة ويحرك الماء ، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أى مرض اعتراه .
[المترجم]

أية صورة له ، مقحماً له في دورة منظمتك العقلية وملاحظاً في جشع ما يقوله لك .
في امتلائه الخصب ، قضيت عليه . . . ما أفضل ما في ذكريات بسكال ؟ ،
بالتأكيد هي الأجزاء التي لم تنته ، فكلماً زاد إيجاز هذه الذكريات ازداد .
المنظر عمقاً وتغلغلاً .

ولا يستطيع معظم الكتاب الفرنسيين أن يمسوا القرطاس بالقلم دون أن
يكونوا قد فعلوا ما يسمونه — مع بالغ الحق وما يقرب من القسوة — معاناة
فكرتهم لإبرازها ، وهناك يربض ما كان ينبض بالحياة حيناً وقد تم تشريحه
إلى فقرات ، ولم يعد في الاستطاعة أن يجول بالفكر مرة أخرى ولكن يمكن
كتابته فحسب ؛ وإلى هذا تعزى السلاسة الفرنسية التي يفاخرون بها ، ولكنه أيضاً
علة ما يسميه الناس أحياناً بجفاف النزعة الشعرية ؛ أما الكتاب الإنجليز ،
ويفوقهم الكتاب الروس ، فإما أن شعورهم بوجود إلهامهم أكثر عمقاً ، وإما
أنهم لا يتعجلون تثبيت أفكارهم ، وإما أنهم حين يفعلون هذا لا يكون تفكيرهم
قد انقضى ، وهم لا يكتبون لأنهم قد فكروا ولكنهم يفكرون وهم يكتبون ؛
وكثيراً ما يسفر هذا عن غموض المعنى وحشد الألفاظ وانعدام الاتزان ؛
وقد اعترف نيومان بأن ثمة مقطوعات لم يفهمها جاءت بكتابه «قواعد التوفيق»
ولكن ماذا في ذلك مادام الكاتب يجعلك تفكر بدلاً من مجرد تعليمك ؟
وإني لأعتقد أن الكتاب الفرنسيين هم أحرق من غيرهم بأن يشعروا بانعدام
أوجه المقارنة بين ما كانت تعج به أذهانهم أولاً وبين ما يرونه فعلاً بين دفتي كتاب
بسبب طريقتهم المسرفة في الوعي .

وليس معنى العمل بفكرة هو التركيز العقلي من الصنف المعتاد ، فالعرق
الكادح لا يكفي هنا ، ومن الضروري توفير عزلة مليئة بالابتهاال مع فترة من

التجرد والتهجد في مجرى حياتنا اليومية ، ثم ما دعاه تندال ، وهو يصف إنتاج المخترعات « إدمان الفكر » ومادعاه نيوتن « التفكير فيه كل الوقت » ويبدو كما لو كانت الرغبة الجادة لتحقيق الشيء بأكمله ينبغي أن تكون هي الشيء الرئيسي الذي يؤثر ، دون شك ، على عقلنا الباطن ؛ وخبرة معظم الفنانين هي أن صنف إنتاجهم قائم في تمشيه مع جدية رغبتهم المركزة ؛ وكما سبق أن قلت إن سير ولتر سكوت ، وهو يطالع كتباً لا علاقة لها قط بموضوعاته ، أو أن شارلس ديكنز وهو يطوف بالشوارع المهجورة ليلاً ، يحاول أى منهما الإبطاء لا الإسراع بما نسميه الفكر الصافي ، ولكن ينبغي تسميته « الفكر النهائى » .

ويتألف العمل الصادق وإدمان الفكر الصادق من تعبير العقل بصور ذهنية متألفة ، أحياناً تستدعيها رغبتنا للقدوم ، وأحياناً أخرى تبتعث من ذكريات ترد عفواً دون أن يكون لها نسق معين ؛ وحين يأتى الضوء كاملاً بقدر ما نستطيع توقعه ، فهما فعلنا ، فلنتحاشى وضع رسم تخطيطى لما اكتشفنا فى شكل منظر شامل عام ؛ ووضع الأعداد والأقواس أيضاً ، خلافاً للتفكير ، فإنهما يستعيدان أول ظهور له .

٥ - اغرس الأمزجة المستنهضة . توجد طبقة أكثر حساسية من الباقى نعرفها ، ونستطيع الذهاب إليها كلما أردنا ، وقد يقول عالم سلوكى إن حتمية الاستجابة عن تلك الطبقة ، فى منطقة وعينا تثبت أنها من خصائص علم الأحياء ، ولكن كل ما أريد قوله هو أننا نعرف بالخبرة أن الاستجابة مؤكدة ؛ وإذا عشنا طويلاً مع أنفسنا أضفنا المزيد إلى شخصيتنا ، وإذا استعدنا وقائع أو فترات معينة أو صوراً من الشعور إلى حياتنا ، أعطينا قدرة الأستقبال الذهنى لدينا .

وحياتنا بقممها — التي نعرفها — من العاطفة ، والجهد ، والنبيل ، أو الذكاء المتزايد ، هي منجم حقيقي للأمزجة المستنهضة ، وتكفي دقائق من الفراغ كي نستعيد لأنفسنا مثل هذه الأمزجة ، وحالما نعيها يبدأ وهج موهبة الحدس في تألقه ، ويعرف الشعراء هذا جيداً ، وخبرتهم الخاصة ، المحصورة أحياناً في مظهرها إلى حد يرثى له ، هي المدد الدائم لإلهامهم ، وهم ، وكذلك الفنانون ، يشبهون الأطفال شهاً عجيباً ، ولم يقطعوا أبداً الخيط الذي يصل مراحل حياتهم المختلفة ببعضها البعض ، كأناس يعيشون في العالم ، وللعالم سيعملون ؛ وطفولتهم خاصة ، بثروتها من الانطباعات وعمقها فيها ، حاضرة لديهم في أكثر الأحيان ، وما من شيء أكثر استحضاراً لعبير الماضي من ذكرى الأعوام الباكورة ؛ وأية قصة عن طفولة ، من دافيد كوبرفيلد إلى دي كوتيه ده شيه سوان ، لا تضيف علينا البهجة حتى وإن أعوزت كاتب القصة أو مدون اليوميات موهبة ديكنز أو براوست ؟ والعلّة هي أن كل الانطباعات المسجلة تقسم بالجدّة ، وترتبط في الحال بما يمتلكه من انطباعات هي أكثر جدّة ؛ وبمرور الوقت تهتصر الحياة منا تلك الذكريات كي نهتم بما ندعوه مصارعتنا ، وهي ، في معظم الحالات ، أي شيء غير نبيل ، ولكن حتى صغار السن من الناس يدركون قيمتها لأنفسهم ؛ وقد اعتدت أن أعرف تلميذاً بالمدرسة كان ، قبل معالجته لمقال ما ، يعود إلى انفعالات طفولته وأحزانها ، فيتخيل أنه وجد نفسه في الحال بالجانب المثمر من نفسه .

وبعض الحالات القصية من منطقة الوجدان ، التي يصعب تعريفها في حينها ، لأنها كانت خصيبة ، والتي لا تستهلك قط تماماً على الرغم من كثرة الأخذ منها ، ما زالت تحتفظ بصفة ترددها بين الفينة والأخرى وبقدرتها على استحضار

عبير الماضي ؛ ولن يتيسر لي قط أن أعال كيف أنى قبل زيارتي لإسبانيا بوقت طويل شعرت بشيء إسباني في الجو المحيط بيوم الجمعة الحزينة في عام كنت إبانه في التاسعة أو العاشرة من عمري ، نفس الجدية ونفس العنف الملىء بالانفعال المذهل الذى أستطيع حتى الآن ، استعادته في ظرف لحظات قصيرة ؛ وكان ظهر يوم متألق من نوفمبر ، الأمر الذى لا يتفق مع مناسبة اليوم الحزين ، وكانت السماء عالية بعيدة الأغوار ، وريح شرقية في نشوة ملتائة ، متغلغلة في أحشاء طرقات الحديقة الفسيحة ذات الأشجار على الجانبين ، وقد غمرتها أشعة الشمس ورننت في أجوائها الأهازيج ، ومن شجرة زيزفون باسقة ملكية بدت آلاف من أوراقها الذهبية تثب في زرقة السماء ، كأنها أرواح صغيرة قد أطلق سراحها أخيراً ، فانطلقت في أجواز اللانهائية ؛ ولم يكن القصر قد هجره قاطنوه إلى بارس ، ولكنهم لم يكونوا خارجه ، وكنت أنا الكائن الحى الوحيد الذى أتطلع إلى هذا المنظر الرائع ؛ وقد شعرت كما لو كنت أمتلكه بأسره وبكامل سحره ، وكما لو كان سر جمال الخريف قد تكشف أخيراً ؛ ومع ذلك فلا بد أنى كنت عاجزا عن تحليل المنظر وتأثيره على .

ومن ذا الذى لا يستطيع تذكر مثل هذه اللحظات ، والذى ، إذا تذكرها لا يدرك أنه يكون حيث تكون روحه أكثر إيجابية ، على الرغم من أنها لا تفعل شيئاً لتحطيم سلبيتها ؟ مثل هذه الخبرات ، المتجددة كلما أردنا ، أثرها يفوق أعواماً من الجهد الواعى والدراسة الشاقة لتعليمنا ما هية الفكر وأين يكون .

الفصل الخامس عشر

الإنتاج الأدبي ليس للجميع

الإنتاج الأدبي ليس للجميع . . . تريدنا أن نكون كتاباً مثلك ، أليس كذلك ؟ أوه ، هل تشعر أن الكتابة هي الطريق الوحيد للوصول إلى الكمال في التفكير ؟ .

« إن رغبة مثل هذا الشيء أبعد ما تكون عنى ! وإذا استطعت اختزال المادة المطبوعة إلى جزء في الألف مما هي عليه ، فعلت هذا في لحظة ؛ وإذا كان هناك من يستحق الرثاء فهو الرجل أو المرأة ، حين يحاول أيهما الكتابة ، كما يحاول غيرها الغناء أو التصوير أو التمثيل أو عمل أى شيء بغير موهبة » .

« حسناً ، وإذن فما هو الإنتاج الأدبي العجيب ، مادام يمكننا للجميع ، فهو لهذا يمكن لى ؟ كيف أستطيع التسلسل بنفسى داخل تاريخ الأدب دون أن أضيف أى شيء إلى ذلك الجبل من المادة المطبوعة التى تقول إنك تمقتها ؟ » .

« هل تعتبر كل ماخرج من دور الطباعة أدباً ؟ » .

« سؤال عصى ! فسلى غيره . »

« إذن أتظن أن كل ماله حق أن يدعى أدباً قد تم طبعه ؟ » .

« لا ياسقراط ، لأظن ، فكل يوم نسمع عن اكتشاف مخطوطات لم تنشر لكتاب مشهورين ؛ ولا مجال للشك في أنها كانت أدباً منذ اللحظة التي دونت فيها ؛ وعام إثر عام نسمع أن مراسلات شخص ما أو يوميات شخص آخر قد اكتشفت حديثاً وأنها في سبيل الطبع ، وأظن أن تلك المذكرات والرسائل من صميم الأدب ، وأنها كانت كذلك وهي مازالت مخطوطات » .

« أجل فرسائل مدام دي سفنييه أو شستر فيلد في كل كتاب مرشد ، وكذلك مذكرات القديس سيمون ويوميات ييبي ، ومئات فوق مئات من مجموعات الرسائل أو المذكرات لمؤلفين أقل شهرة الذين ، على الرغم من هذا ، لا يمكن استبعادهم من محيط ما يسمى بالأدب ؟ فلماذا ؟ » .

« مكتوبة بإتقان على ما أظن » .

« ولكن ماهى الكتابة المتقنة ؟ » .

« عجباً ، إنها اللغة المميّزة ، أو اللغة الرشيقة المعنى ، أو المؤثرة ، أو اللغة التي تفتن الأبواب بأية صورة من الصور ، وأكبر الظن أن كل ما يعلو فوق المستوى العادى لما نكتبه جميعاً ، يعتبر مكتوباً بإتقان » .

« رائع ! إنك تدرك أنه لامناس من إيجاد فارق بين الألفاظ المجردة والعواطف التي تعبر عنها هذه الألفاظ ، فلو أن جان دارك ، التي قطعاً لم تكن من الدراسات ، خلفت رسالة لكانت أدباً دون شك » .

« يا للعجب ! ولو أزيح الستار عن رسائل الغرام التي أرسلها تومي جونس إلى مس براون وأذيعت لكانت أدبياً ؛ لقد أطلعني مرة على واحدة منها فهش الحسد قلبي ، ومع ذلك فجونس ليس كاتباً ، بارك الله فيه » .

« إنك تعنى أن كل عاطفة عميقة أو قوية ، يفصح عنها بأمانة ، تكون أدبياً ؛ وهى كذلك ؛ وهذا يفسر علة حبنا للرسائل التي من هذا القبيل ، ونكاد نلتهمها ونحن نطالعها بعد مرور خمسين عاماً على كتابتها ، كما فعلت الخادم منذ خمسين عاماً حين وجدت الرسائل على مكتب سيدتها ؛ إننا نبغض محبة الذات ولكننا بصورة أو بأخرى نحب أن نسمع الناس وهم يتحدثون عن ذواتهم » .

« أتظن أتظن أن رسائل أدبياً » .

« حتماً كانت بعض رسائلك أدبياً ، أما التي نكتبها في الوقت الراهن فيقينا أنها ليست كذلك ، فإنك لاتقول كلمة قط عما تفكر أو تشعر ، بل تخبرني بما تفعله أو ما يفعله غيرك ، ولكن لاتحمل أبدأ بواعثك النفسية أو بواعثهم كما يلزم ، وكما تفعل في الواقع دائماً حين تناقش الناس بحجرة التدخين ، فرسائلك مليئة بالتوافه والعبارات الجوفاء المعتادة ، ولا مرأى في أن رسائل جونس للآنسة براون لاتبدو كذلك » .

« أخشى أنك على حق ، حتى ولو كنت مشبهاً للعزم ، ولكن أناذن لى أن أخبرك بأنى لم أكتب هذا النوع من الرسائل ، لم نكتب جميعاً نفس الرسالة ، كل حين ؟ حسناً ، هذا أثر شواغل العمل ؛ فإنك تتعود أن تملئ عشرين مرة نفس الرسالة لأناس مختلفين ؛ وبعد حين يصبح عقلك عاجزاً عن أن يتحرر من

أغلال أسلوب العمل؛ وإني لأكتب لزوجتي كما أكتب لك ، وكانت قد اعتادت أن تشكو من ذلك ، ولكنها الآن لا تشكو ، فأكبرظني أنها قد ألفتة .

«لقد أصبت المرمى هذه المرة ، فحين أقول إن في استطاعتنا أن ننتج أدباً في رسائنا فإني أعني رسالة تتيح لنا فرصة منقطة النظير للإفصاح عن أنفسنا ، فما من أحد يطالعها من فوق أكتافنا ، وما من أحد ينتظر أن ينتقدها بعد تحريرها ، وفي المصطلحات المستعملة بهذا الكتاب ما من وهم نخشاه أو عقدة نقص يحتمل ان تصيبنا بالوهن ، فنحن في أفضل حالتنا لنعبر عن أفضل ما نعرفه ، أعني مشاعرنا التي يتلقفها وجداننا فوراً عن طريق الحواس ، وهذا جرى بأن يسفر عن نزعة فطرية مجردة وهي الأدب ، وإني لأعرف قصصية يلاقى المرء في مطالعة كتبها أشد العناء، فالمسكينة العزيزة لا تكون في إهابها قط، ففي عام تلبس إهاب سنكلير لويس ، وفي العام التالي إهاب ويلا كاتر ، بمعنى أنها تحاول أن تكون كذلك ولكنها لا تنتج سوى صنوف رخيصة من المحاكاة مثل حائكة ملابس من «أوكلاهاما» حين تحاول تقليد أزياء باريس ، ولكن هذه الكاتبة ذاتها تحرر رسائل ترى فيها حياتها وروحها في ضوء شفاف ، كل لفظ يعمل كشعلة ساطعة صغيرة لا بقعة قائمة صغيرة .

«أوه، أعرف ما تعني دون شك ، ولكن ما الذي يلزمني على أن أكتب أدباً؟» .

« لا أحد يريد منك أن تكتب أدباً ، وأنا لا أعترض إلا على الضياع ، فكل يوم تضيع فرصة ، بل فرصاً كثيرة في الواقع ، للتغلغل إلى أغوار

وجدانك بالإفصاح عن ذاتك كما ترى ذاتك ، وهذا أمر يرثى له ، لأنه يجعلك
عاماً بعد عام ويوماً بعد يوم ، أكثر شبهاً بأى شخص آخر وأكثر جهلاً
بشخصيتك ، ولا يغرب عن بالك أنك قد تكون حائزاً اليوم على قدر من القوة ،
أو ما تسميه بالقوة أكثر من يوم مغادرتك للكلية ، ولكنك كنت متمتعاً بقدر
من الفردية وأنت في الحادية والعشرين مما لك الآن ، فقد كنت أشد قرباً إلى نفسك
وإلى كتبك الجيدة ؛ أو بعبارة أخرى ، لمستوى من التعبير المرضى ، ومن
التأكد أنك حررت في تلك الأيام رسالة أفضل جداً ، لقد تصلبت وتكلمت
من الكسل الخالص الذى أسفر عن تقليد شائن ، وعليك أن تتحمل نصيبك من
الملام بسماحك نفس الحديث عشر مرات إذا ذهبت لعشرة أماكن مختلفة ،
وأقول لك إن الأدب هو الإفصاح عن الذات ، والإفصاح عن الذات هو
الخصائص الفردية ، وخصائصنا الفردية هي نفسنا ، التي ينبغي أن تكون اهتمامنا
الرئيسي ، ولكننا نغنى تلك النفس الفقيرة التي لنا طوال حياتنا بالمال ، وطوال
حياتنا نفقرها إذ نختلس منها ما يجعلها نفسنا حتى لا يتبقى شيء منها ، ولا تكون
اللغة مسرفة في دقتها إلا حين تتحدث عن النكرات أو الإشارات الرمزية ،
والعالم عدد ضخم مؤلف من أرقام قليلة وأصناف لا تحصى ولا تعد ، وإذن تصلب ،
قاوم ، قل لا ، بحق السماء ، فإن فعلت أصبحت رجلاً حقيقياً ، وأصبحت رسائلك
رسائل حقيقية قد تطبع كما طبعت رسائل كثيرة من قبل .

سأدون مذكرة بكل هذا ، فهو جدير بذلك ، وأظن أن هذا هو ما تسميه أدباً .

« دع الأدب جانباً ، ولكن يقينا دون مذكرات ، فإذا دونت كل
ما تسمعه ، أو تظن أنك تشعر أنه جدير بالذكر ، كانت المجموعة مدونة ذات
قيمة ، طالع مدونة إيمييل فلن تشعر بالسأم ، وسترى ما يمكن أن يحدث في

حياة قضيت ببلدة سويسرية صغيرة لم يقع بها حدث على الإطلاق ، فاحتشدت
المدونة بالأشياء الوحيدة ذات الأهمية : الأفكار والعواصف .

« حسنًا ، إنى أود أن أنتج أدبًا من النوع الذى تصفه ، ولكن لشد ما
أبغض أن أظهر بحروف مطبوعة . ! »

« اعرف هذا ، فأنت لا تطبع إلا ميزانية مصرفك ، وهذا يكفى ، ويظن
كثير من الناس أنها من روائع ما يلزم قراءته ، ولكن دعنى أؤكد لك
أن كتابا عديدين ممن يصل ذكر كتبهم إلى مسامعك أحرزوا من القدرة على
قراءة مشاعرهم الخاصة أو الإفصاح عنها نصيباً أقل مما لكثيرين من الرجال
الذين جعلهم القدر من المصرفيين ورجال المال . »

وصفوة القول : إن كل واحد منا يستطيع أن يكون شخصياً ، أو بتعبير
آخر ، مبتدعاً ما لم يكن معرضاً لضياح شخصيته فى خضم الانطواء الذاتى ،
أو بين الأوهام التى تحاصر كل من يحاول الإفصاح عن نفسه وتشل حركته ،
وهذا يعنى أنه يصبح فى الحال موضع اهتمام ، ومصدر متعة لزملائه البشر ، وغير
مكترث فقط لشخص سيفرق نفسه فى الحشد الجامع ، وهذا الاهتمام هو أساس
الأدب ، وهكذا يتضح أننا جميعاً نستطيع أن ننتج ما يستحق أن يسمى أدباً ،
ولكن لزام علينا ألا نفكر فى الأدب ونحن نفعل هذا ، والنظرية التى يقوم
على أساسها هذا السفر هى أن الفكر وحده هو موضع الاعتبار ، ولا يستطيع
الفكر أن يشترك فى وجوده مع أى شىء غير ذاتنا فى أعلى وأنبل
إمكانياتها .

الاحتياج

لم يوضع هذا السفر للأدباء على الرغم من أنه كان لزاماً أن يقوم على أساس من خبرة كاتب؛ وما من شيء يمكن أن يكون أشد انحرافاً وبعداً عن هدفه من ميل لاعتبار الفكر متخصصاً بدلاً من اعتباره مجرد رجل جدير بالاسم؛ ويشعر المؤلف باحترام عميق لأي رجل حائز على مبادئ رفيعة تتحدث خلال سلوكه كما تتحدث خلال كلماته؛ فهذا الرجل، مهما كانت نقائصه، هو فكر متجسد.

هيءٌ لمثل هذا الشخص وسائل تقوية ملكته الفكرية بإفراح مجال فكره ورفع مستواه، فتجعله وتجعل نفوذه أكثر عظمة بنسبة مطردة؛ وبين له إمكانية الوصول للرؤية الذهنية أو الإبداع، فترقى به إلى ذروة العلي.

ذلك هو ما يحاول هذا السفر فعله، فهو لا يستطيع إيجاد الرغبة في التفكير حيث لا توجد الرغبة، ولكن عند توافر هذه البذرة الحية التي لا غنى عنها، ينبغي أن يوفر الشروط اللازمة لبلوغه حد النضوج؛ فسل أولئك الذين تعهدوا بإنماء ذلك الشيء الذي جعلهم يشقون طريقهم للنجاح، فتغمرك الدهشة لبساطة إجاباتهم واختلافها؛ فلعل الأمر قد كفت فيه بضع كلمات من كتاب،

أو قائمة كتب بمدرسة ، أو مجرد التخطيط لطريقة ما ، أو الأثر الذي خلفه رجل غير عادى ، أو ما يلحقه من رد فعل إزاء الذكاء أو البلاهة ، أو تعبير وجهه ، أو ضروب صمته .

ويمكن إنتاج أثر مماثل ، أو فى كل الحالات ، يمكن إعداده ، عن طريق جملة عابرة فى صفحات مليئة كهذه برغبة لمعونه الفكر ، وستقع النصيحة « طالع الصحيفة اليومية كأنها صفحة من التاريخ » على مسامع بعض الناس كما لو كانت أحجية ساخرة ، ولكنها قد تكون لقوم آخرين نقطة الانطلاق لحياة عقلية جديدة ، وثمة آخرون قد يجدون العون عن طريق مجرد جرس هذا المؤلف أو محتوياته ، أو عنوانه فقط .

وهنا تبرز الحاجة ، كما هو الحال فى باقى الأشياء ، إلى بداية وطريقة ، والبداية هى من أمر ربي ، أما الطريقة فهى من أمرنا ، ويمكن استيعابها فى بضع ساعات ، حتى من كتاب مثل هذا ، وليس للكاتب مطمع غير ذلك وهو لا ينشد تحقيق أمل أعظم من أن يكون نافعا .

مطابع تسجيل العرب
شارع بستان النخلة - ٩٠ عمارة الدين ، القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

مطابع سجل العرب

تتبع بيتان الكرك - ٩ عماد الدين الفاضل
تتبع بيتان الكرك - ٩ عماد الدين الفاضل
٩٣٢٧٠٦ - ٩٣٢٧٠٦

١٩٦٧

Bibliotheca Alexandrina



0281432

٢١